كم بدت السماء قريبة !!

مقاربة عصرية

د. أحمد موسى الخطيب

كلية الآداب –جامعة البتراء

ملخص

يدرس هذا البحث رواية الكاتبة العراقية بتول الخضيري "كم بدت السماء قريبة !! "في محاولة لاستجلاء ما تحقق فيها من جماليات الرواية العصرية على مستوى التشكيل والرؤية . فيتناول خطابات السرد الرئيسية من تتابع ، وتداخل ، وتواز، بالإضافة إلى تعدد أصوات الراوي ، وأثر ذلك على لغة الرواية ، ودوره في تعدد الضمائر في لغة السرد. كما يتناول تداخل الأنواع في الرواية ، مثل : السيرة الذاتية ، والشعر ، والفن التشكيلي ، وفن الباليه ، وفن السينما . كما يدرس البحث كيفية رسمها لشخصياتها الروائية ، وكيف وظفت هذا كله ، من خلال رؤية شمولية، للتعبير عن مجموعة من قضايا الواقع وهمومه الملحة، وذلك عبر أفق روائي يتسع لهموم إنسان العصر المتمثلة في : قلقه، وغربته ، واضطرابه ، وخوائه الروحي .

Kam badat assama' qareeba!
(literally : How close the sky seemed to be !!)
Amodern Perspective Study

Ahmad Al-Khateeb
Faculty of Arts
The University of Petra

Abstract

This paper critically reviews *Kam badat assama' qareeba*! (literally : How close the sky seemed to be !!) a novel written by Batoul alKhudairi, an Iraqi woman writer. The paper attempts to investigate modern aesthetics in the novel in terms of from and vision: narrative discourse in its sequencing, inter-connection, and parallelism, divers story-teller voices and its impact on the language of the novel; genre overlap in autobiography, poetry, formative art, ballet and cinema. In the novel approach to characterization, and its expression in real-life issues seen from a modern perspective are also discussed.

سيتناول هذا البحث بالدراسة رواية الكاتبة العراقية بتول الخضيري (كم بدت السماء قريبة!!)[1]. في محاولة لاستجلاء ما تحقق فيها من جماليات الرواية الحديثة. وإن كانت هذه أول تجربة لها على طريق الإبداع الروائي، إلا أنها استطاعت أن تحقق فيها جملة من ملامح الرواية العصرية، استحقت أن تلفت الأنظار إلى موهبة جديدة تمضي بخطوات واثقة على هذا الطريق الصعب، تنم عن وعي ودراية بآفاق الرواية الجديدة.

التشكيل

(١)البنية السردية:-

لقد استوعبت هذه الرواية في إطار بنيتها خطابات السرد الرئيسية، وهي: التتابع، والتداخل، والتوازي.

- التتابع:

ونعني بالتتابع توالي المشاهد المركزية وفق ترتيب زمني في إطار تصور محدد، وهذا التصور الذي ينظم حركة المشاهد في تدفقها وتواليها يشكل خط السرد الرئيسي[2].

فالرواية تبدأ -خلال عملية استرجاع بطيئة- من لحظة دخول بطلة الرواية إلى المدرسة طفلة صغيرة، مروراً بعلاقتها بصديقتها "خدّوجة" والأولاد في قرية الزعفرانية، ثم انتقالها مع الأسرة إلى بغداد، ذلك الانتقال الذي رافق تنامي وعيها، وإحساسها بنضجها المبكر، ثم وفاة والدها وتصفية مشروعه، يلي ذلك مرافقتها لوالدتها للعلاج في لندن بعد إصابتها بسرطان الثدي، وحتى وفاة والدتها هناك، ودخولها في دوامة الغربة، والوحدة، والضياع، وقد بلغت عامها الثلاثين.

وخلال هذا كله تعرض لمجموعة من التجارب، لعل أهمها تلك العلاقة المتوترة بين والدها العراقي المتمترس خلف عاداته، وتقاليده، وشرقيته، وبين والدها الإنجليزية التي لم تتنازل عن مفردة واحدة مما ألفته في حياتها بلندن، بعد أن أصيبت بخيبة الأمل حين وجدت أن الشرق ليس- كما تصورته أو زُيّن لها قبل الزواج- أسطورياً ساحراً. وبين هذين العالمين المختلفين إلى درجة التناقض الحاد، و لم يستطع أحدهما أنّ ينفي الأخر، عاشت طفولتها، وسنوات مراهقتها، حتى وفاة والدها المبكرة الفاجعة.

ولعل من أهم تلك التجارب تعرّفها بالنحات سليم في بغداد، وبآرنو في لندن، ومع الأول عرفت الأمل، الذي سرعان ما اغتالته ظروف الحرب، ومع الثاني عرفت الحمل، والذي أجهضته بعد أن اكتشفت أنّ آرنو صورة لواقع زائف هناك. هذا بالإضافة إلى نشوب حربي الخليج: الأولى والثانية.

ولا يعني هذا أنّ التتابع للمشاهد المركزية في الرواية قد استأثر بآلية السرد دون أن يفسح للتقنيات الأخرى، مثل التداخل، والتوازي، لتشكل معها بنية هذا العمل المكتملة. كما أنّ هذا التنوع في تقنيات السرد لم يحل دون تراكم مكونات المادة السردية وفق منطق السببية بين المقدمات والنتائج. فعلاقة الأب والأم المحكومة بتناقضات ثقافتين استمرت فاترة واهية، وأقرب ما تكون إلى الانفصال منها إلى حياة زوجية حقيقية. وانتهت الأم إلى الغربة في العراق ولندن، فهي تقول بعد عودتها إلى موطنها "لم أعد أنتمي إلى هنا، عندما غادرت انكلترا حينها، وقررت أن أحاول الانتماء إلى الشرق، لكن لم أنجح في انتمائي إلى الشرق رغم كل محاولاتي. الآن وقد عدت ثانية، أجدني لا أستطيع الانتماء من جديد إلى موطني الأصلي"(٣). كما أنّ علاقة الأم بالطفلة (بطلة الرواية) لم تقم على حب حقيقي، لذا كانت أقرب إلى أبيها منها، كما أنّ الابنة كانت مطالبة باسترضاء ثقافتين مختلفتين، فلم تفلح في الولاء لأي

منهما، فهي تقول لصديقها آرنو في لندن " لست من هنا ولا من هناك، هــذه هــي المشكلة"(٤).

كما يمكن تلمس هذا المنطق السيي في مصائر الأبطال جميعاً، وهي مصــائر درامية كارثية، فحيناً تكون بالموت، كما حدث للطفلة خدّوجــة في ظــل فقرهــا، وغياب الوعي والرعاية الطبية. ومثلما حدث للأب المجهد في العمل، المتــألم لفشــل حياته الزوجية، وإحساسه بعدم إخلاص زوجته له. وكما حدث للأم التي تكاد تقتلــها الغربة والفشل، وخيانتها لزوجها، والتي انتهت فريسة لمرض قاتل.

وحيناً آخر تنتهي حياة الأبطال بموت من نوع أخر، وذلــك حــين تضيــع أحلامهم، وتتبخر مشاريع حياقم، كما حدث مع مدربة الباليه وتلاميذها، وبخاصــة فاروق وأحمد. وكما آلت إلية حياة النحات سليم. فقد كــانت ظــروف الحــرب وتداعياهًا هي السبب في فشلهم وغيابهم.

التداخــل:

لم يستأثر التتابع الأفقي للمشاهد المركزية في الرواية بتقنية السرد وحده، فلــم تدخر الكاتبة جهداً في توظيف صنوف التداخل، التي تضمن لها تناثر مكونات الســرد في الزمن. فالرواية المعاصرة تزداد بساطة كل يوم نتيجة كراهيتها للحبكات المعقــدة الزائفة. ويذهب سكوت " أنّ الرواية تكتسب قدراً أكبر من الصدق إذا كتبــت دون التماسك المخطط له ببراعــة في الحبكــة"(٥).وعلــى هــذا حلــت التشــكيلات (Formations) محل الشكل (Form) في الرواية الجديدة(٦).

لقد تعددت صنوف التداخل في روايتها ،مثل : تيار الوعـــي ، والمونولـــوج، والأحلام ، والاستدعاء من الذاكرة، والرسائل ، والبيانات والتقـــارير ، والبلاغـــات العسكرية.

وقد خلط بعض الدارسين بين تكنيك المونولوج الداخلي، وبين تيار الوعـــي، أو تيار الفكر، أو تيار الحياة الباطنية(٧). لكن الاتجاه السائد اليوم هو أنّ تيار الوعـــي ليس اسماً لتكنيك ما، بل اسماً لنوع أدبي. أما تكنيك المونولوج الداخلـــي، في بعـــض توظيفاته، فهو أحد التكنيكات التي تستعملها رواية تيار الوعي(٨).

والرواية موضوع الدراسة ينطبق عليها جانب مهم من معايير روايـــة تيـــار الوعي، وذلك في تجردها من الزوائد الاجتماعية والتاريخية، وتخلصها مـــن التشـبث بالأحداث الكبيرة والأبعاد البارزة التي تشكل المجتمع، مثـــل حـــربي الخليـــج الأولى والثانية، لكنها تقدمها بطريقة غير مباشرة من خلال تقنية التوازي، وتراسل الخـــارج والداخل. فهي ليست أكثر من مدخل إلى الأحداث الداخلية، لتؤكد على اســـتلاب الشخصيات وغربتها. هذا بالإضافة إلى انشغالها ببعض الأشـــياء الصغـــيرة والأمـــور الهامشية التي لها حضور عميق في وجدان بطلتـــها المحوريـــة، وبخاصـــة في علاقتـــها "بخدّوجة" في الفصلين الأولين(٩).

ولكننا مع ذلك لا نستطيع أن نطلق عليها رواية تيار وعي، لأن القصة مـــن هذا النوع لا تقرأ على أنها أحداث متسلسلة زمنياً، بل سلسلة غـــير متجانســـة مـــن المدركات .. والكاتب يحاول دوماً أن يوهمنا بأننا نجرب بأنفسنا ما يحدث هناك، كمـا يطلب منا أثناء ذلك أن ننظر إلى شتيت من الأشياء الطارئة الغريبة، وكأننا في حلم من أحلامنا، حيث تحدث المستحيلات وغير المعقولات (١٠) لذلك فإن القصة الباطنيـــة كثيراً ما توحي بأنها مضطربة(١١).ففي هذه الرواية –على الرغم من استخدام صنوف

التداخل بهدف المراوحة في الزمن- يمكن ملاحظة التتابع الأفقي للمشاهد المركزية في إطار تسلسل زمني بجدول مع مستويات من الزمن الأخرى، يبدأ من ذهاب بطلة الرواية إلى المدرسة طفلة صغيرة، وحتى تخرجها في الجامعة، واستقرارها في لندن بعد وفاة والدتها، ولها من العمر ثلاثون عاماً.

وبالإضافة إلى أسلوب تيار الوعي، ودوره في التعبير عن الراوي الداخلي، سعياً إلى مزيد من الاتجاه نحو جوّانية أوسع، كما هو الحال عند كتاب الرواية الجديدة، فهناك تكنيك المونولوج الداخلي (الحوار الباطني).

ويقصد به تلك التقنية التي تقدم المحتوى النفسي للشخصية والعمليات الذهنية بداخلها دون أن تنطق بها الشخصية في كلام مجهور، في اللحظة التي توجد تلك الأفكار أو العمليات في مستوى الوعي، ودون أن تفترض تلك الشخصية أو تتوقع وجود سامع على الإطلاق، ويمكن أن يقدم المونولوج مادة الوعي بترتيب غير منطقي(١٢).

وينهض الحوار الداخلي بالعديد من الوظائف في الرواية الجديدة. فحيناً يأتي عند بتول الخضري موازياً للأحداث الخارجية، منعكساً عنها، كما حدث في تفكيرها بالنحات سليم إبان حرب الخليج الأولى "كيف سأحتفل بأجواء علاقتي بأول رجل يكبرني عشر سنوات، ولا يوجد وقت للأسئلة؟ هل يوجد وقت لعلاقة تحت الدوي؟! كيف نبني وسط أشياء تخرب. إنسان بعد أخر يسقط. الأبنية وبيوت الأهالي.الزمن يسقط.هل سيأخذ يدي بين يديه المتورّمتين"(الرواية ص١٣٦). وتشفع هذا المونولوج -الذي يكشف عن صراعها النفسي، وموقفها من الحرب، وما جرّته على موطنها من ويلات- ببيان عسكري من الإذاعة.

ومثل هذا الحوار في كشفه للبعد النفسي للشخصية، ولصراعها الداخلي الذي يأتي موازياً لما يحدث في الخارج، مع وضوح التطور الذي طرأ على الشخصية -ذلك

الحوار الذي ارتبط بلحظة لقائها الحاسم مع سليم في بيته "رأسي يدور.أول رجل. عشر سنوات. خائفة أنا وحذرة.لا! المقولة تؤكد أنّ الحذر والفضول لا يأكلان من صحن واحد. يجب أن أقرر، هل أنا حذرة أم هل أنا فضولية؟ الحرب في الخارج. نحن في الداخل. لا وقت للتعارف البطيء. لماذا أكرر كلماته؟ أين كلماتي؟ هل أغلقت باب الشقة خلفي؟ لدينا ساعة واحدة فقط. يرغب في زيارة والدته هذا المساء..."(الرواية ص١٣٧).

ويلاحظ الدارس كثافة اللغة، واختصار الجمل، واحتشاد الحوار بالأسئلة. وقد جاء هذا متسقاً مع حركة النفس وإيقاعها المتسارع، وهي تتخذ قراراً مصيرياً، وتنتقل من وعي إلي وعي. وقد ساعد هذا المتلقي على ملاحظة أثر الحدث الخارجي في تشكيل العالم النفسي الداخلي للشخصية.

وقد يأتي الحوار الداخلي عندها لرصد التطور الذي يطرأ على وعي الشخصية. ونلاحظ ذلك في نهاية الفصل الأول. وهي تتحدث عن طفولتها مع خدّوجة "أفكر. الربيع في مزرعة المشمش، لولاه لكانت طفولتي مع خدّوجة ترابية كلها. ليس فقط بسبب العواصف الرملية التي كانت تهجم صيفاً وأنا معها أثناء العطلة، لكن أكثر لون يحضر حين أذكرها هو لون التراب. مياه النهر الطينية، أوحال السواقي، بيوت اللبن المرقّع بالقش.." (الرواية، ص ٣٤).

وقد يعكس المونولوج عندها بعداً نفسياً للشخصية، تصور فيه هواجس الوحدة، وما يتصل بها من قلق وخوف يتنامى ويكبر ليصبح كابوساً مفزعاً (الرواية: ص ٦٩).

كما وظّفت الكاتبة تقنية الأحلام والكوابيس لمزيد من الإضاءة الداخلية للشخصية المحورية، ولتكريس منحى التشكيلات في بناء روايتها،

تخلصاً من الحبكة التقليدية المعقدة، وذلك لما لهذه التقنية من قدرة على العصف بالزمان والمكان.

فحيناً يأتي الحلم عندها تحقيقاً لرغبتها في كسر حدة حلقات الغربة التي استحكمت حولها في لندن، وذلك حين تفاقم مرض والدهما في خطّ مواز لتردي الأوضاع في موطنها، فيأتي الحلم ختاماً للفصل الثامن، لينقلها إلى عالمها الجميل في بغداد (الرواية، ص ١٨٩).

وحيناً يأتي الحلم قريباً من عالم الكوابيس، فينهض بدور مهم في التعبير عن مشاعر الكره التي تكنّها (لميلي) صديقة أمها، وأخت (ديفيد) عشيق أمها (الراوية، ص ٤٨)، ويلاحظ في هذا الحلم كيف تعاورت تيار السرد الضمائر الثلاثة (المتكلم، والغائب، والمخاطب).

ونجدها تستخدم تقنية الحلم إمعاناً في تناثر مكونات السرد في الزمن، فنراها تنتقل من بيان عسكري، إلى رسالة من صديقتها، إلى صوت المحلل السياسي، الذي استدعى حديثه عن الأطفال الأسرى مخزون ذاكرتها في صورة حلمية، التقت فيها الصغير"حسّون الملعون"، وهو يرقص بشيئه الصغير وقد نبع فجأة تحت دشداشته، وقد سألته عن صديقة طفولتها "خدّوجة"، ونلاحظ فيه مراوحتها بين ضمير المتكلم وضمير الغائب (الرواية، ص ١٣٤).

وقد يتداخل عندها الحلمي والكابوسي معاً، مؤديا وظيفة الحلم السابق. فهو كابوس مفزع يبدأ بعد قراءة رسالة مخيفة من صديقتها ببغداد، وأقل ما جاء فيها أنّ النساء هناك يرددن: يا رب الستر في الموت.. الستر في الموت. فتدخل في حلمها الكابوسي لتخرج منه إلى واقع مفزع، فأمها تصرح لسقوط شعرها نتيجة للعلاج الكيميائي (الرواية ص ١٨٩) وهكذا يتداخل الحلمي بالكابوسي بالواقعي.

وتمثل تقنية الاسترجاع أو الاستدعاء من الذاكرة جزءاً مهماً في الرواية الجديدة، يحقق لها تلك الحركة التماوجية في الزمن، بالإضافة إلى ما نهضت به في هذا السبيل التقنيات التي سلف الحديث عنها.

ففي الوقت الذي يحرص فيه الكاتب على رصد المسار الأفقي للحدث الروائي، يستدعي الماضي باستمرار في إطار التقنية الحديثة، التي تنظر إلى الزمن بوصفه لحظة مترامية الأطراف يظهر فيها الماضي منساباً في تيار الحاضر وفي غير نظام. وهذا يرتبط بالحياة الداخلية للشخصية"(١٣).

فالملاحظ أنّ التذكّر عند بتول الخضيري يبدأ من خلال كلمة تسمعها (الرواية ص ١٤٣)، أو من خلال مشاهدة شخص ما (الرواية ص ١٠٩)، أو من خلال موقف معين (الرواية ص ٦٤، ١٢٠، ١١٥).

وقد كان تركيزها في استخدامه يتمحور على الرغبة في الانتقال بتيار الزمن من الحاضر إلى الماضي، فالعودة إلى الحاضر، من خلال تلك الاختراقات المفاجئة، التي تجمد سير الحدث، "وهو تجميد يكشف ويفسر ويضيء"(١٤) وبخاصة عندما يطول مشهد التذكر (الرواية ص ١٢٠). وقد تنقلنا هذه التقنية من الزمن الحاضر إلى المستقبل، ثم تعود بنا إلى الماضي فالحاضر (الرواية ص ٦٩). وربما دفعتها تقنية التماوج بالزمن إلى العودة إلى الماضي، ثم المضي إلى زمن غائم ممتد (الرواية ص ١٢٠). فبعد أن استدعت منحوتات سليم في مرسمه أحداث الأمس المرتبطة بمعارك الجبهة في ديزفول-الشوش، خرجت من هذه إلى تأمل المنحوتات في المرسم ووصفها، فهي لم تعد إلى الزمن الحاضر، وإن كانت المنحوتات تعبيراً عن هم الراهن، فلجأت إلى تقنية التراسل مع الفن التشكيلي على امتداد ثلاث صفحات. وزمن الفن -كما نعلم- زمن ممتد، لا ينتمي على نحو حاسم إلى واحد من الأزمنة الثلاثة "القطعة الأولى

كانت لوليد حديث بالحجم الطبيعي. يمتد من بطنه حبل سـري، يربطه بمشيمة منحوتة على شكل خوذة حرب. القطعة الثانية كانت لأم ترضع طفلها. بدلاً من تكورات نهديها الأملسين، توجد خوذتان خاكيتان بمثابة الصدر المرضع ...".

وإذا كان الاسترجاع قد جاء هنا متداخلاً مع الفن التشكيلي، فنجده في مواضع أخرى يأتي ملتحما مع الحلم (الرواية ص ١٤٣). كما نجده متآزراً مع تيار الوعي والمونولوج الداخلي (الرواية ص ٦٩). كل هذا من أجل إضاءة أكثر لعالم الشخصية المحورية من الداخل، ولتنشر مكونات السرد في الرواية في سلسلة من التشكيلات، تمرداً على البينة الكلاسيكية المحكمة.

وتقنية الرسائل ليست جديدة في الرواية العربية "فقد يستعين الكاتب أحياناً بأسلوب (الرسالة) ليكتب به القصة كلها أو جزءاً منها، من أجل أن يوهم القارئ أنّ ما يقصه قد حدث بالفعل"(١٥) ولكن بتول الخضيري توظّف هذه التقنية منذ بداية الفصل الرابع تكريساً لمنحاها في التفكيك المدروس لبناء روايتها، محاولةً المزج بين العديد من الأصوات الساردة، حتى لا يظل صوت الروائي، الذي يؤدي في الوقت نفسه دور الشخصية الرئيسية، هو الصوت الوحيد المهيمن، فنجدها تخلي المكان لوسيط آخر مثل الرسائل، والبيانات والبلاغات والتقارير العسكرية، ونشرات الأخبار والأناشيد والأغاني الوطنية.

وقد عرضت علينا ضمن تيار السرد رسائل من شخصيتين ثانويتين مهمتين في الرواية، الأولى شخصية حبيبها النحات سليم، والثانية مدربة الباليه (المدام). وقد نهضت رسائلهما بدور مهم في إضاءة نفسيهما من الداخل،

بالإضافة إلى دورها في تعرية الواقع وإدانتـــه، ودورهـا في تقنيـة التـوازي الـتي اعتمدت عليها كثيراً في بناء روايتـــها.

وكما كان يأتي التذكر اختراقاً لزمن الســـرد ومكـــان الحـدث، كذلـك جاءت تلك الرسائل متجاورة أو متداخلة مع تقنيـات أخـرى، إمعانـاً في تفتيـت الحدث، وتماوج الزمن والانتقال من مكــان إلى آخـر.

فرسالة سليم الثانية جاءت بعد بيـان عسـكري، وقبـل حديـث المحلـل العسكري، الذي يلاحقها كالكابوس، وبعـد حديـث المحلـل العسـكري حُلْـم واستدعاء من الذاكرة. وهي رســالة تبـدو قصـيرة، لكنـها غايـة في الكثافـةٌ والدلالة على استلاب الفنان وإحباطــه، في أسـلوب يفيـض مـرارة وسـخرية، "... فأنا ما زلت في نعمة تنفيذ منـاضد عسـكرية، دون نقـاش. لكـن إشـاعة أهل القلم تقول إنهم سيوكلون إلي مهمة نقـــل جثـث إلى المدينـة" (الروايـة ص ١٤٢). وتطول رسالته الثالثة إليـــها (الروايـة ص ١٤٣)، والـتي تقطـع قراءتهـا بالرد على مكالمة هاتفية من (المـــدام)، ويبـدو أنّ الطـول كـان مقصـوداً؛ لأن الأزمة التي تشكلت في الرسالة السابقة آذنت بانفجـار في الرسـالة التاليـة، الـتي أومأت إلى موت (الفنان) بداخله، ونمّت عن احتمال إجهاض علاقتـه بهـا، فـهو لم يعد صالحاً للفن ولا للحياة. لـذا جـاءت رسـالته الرابعـة والأخـيرة ضمـن منظومة من النهايات لكثير من الأحداث المهمة، اختتمـت بهـا الفصـل الخـامس من روايتها، ومنها أنه قد سافر إلى الشمال حيث أهلـه، وأنـه يخطرهـا صراحـة بطَيّ ما بينهما من علاقة :"حلّقي يـا صغـيرتي، فـهذا هـو وقتـك. أمـا أنـا فسأبقى. سأمكث في مكان تعلمت فيه كل فنـون قتـل الوقـت ... اعـبري إلى هناك. ارحلي بعيداً .. طوّفي في البلاد . ابحثي... لعلـك تجديـن تسـوية عادلـة مع النفس" (الروايــة ص ١٥١).

وبلغت رسائل المدام إليها خمساً، امتازت بطولها، وتركيزها على وصف ما تغفله وسائل الإعلام من حياة العراقيين في ظل حرب الخليج الثانية. وقد افتعلت بتول هذه التقنية لتقيم حالة من التواصل والتراسل بين مكانها في لندن بعد سفرها لعلاج والدتها هناك، وبين موطنها في العراق، ونجحت في هذا الجزء من روايتها في توظيف الرسائل لإحكام تقنية التوازي بين تفاقم مرض الأم، واستفحال السرطان في جسدها، وإخفاق العلاج الكيميائي، وغرق البطلة في حالة من الغربة والإحباط، وبين تردي الأوضاع في موطنها على نحو دراماتيكي مثير للفزع والجنون: "انفجار سيارات بالجملة .. شاب يبحث عن أصابعه وسط الركام. كلب يحمل إحدى قوائمه بين فكّيه. أكثر الناس يتساقطون بسبب سكتة قلبية من الهلع الدائر" (الرواية ص ١٦٨). ورسائلها الأخرى لا تقل عن هذه في تصويرها الفنتازي لواقع الحياة العراقية في ظل الحرب والحصار من بعدها(١٦). وليس هناك أمرّ وأقسى من تلك العبارة التي ختمت بها روايتها، واستشهدت بها من آخر مكالمة للمدام "نحن نأكل الخرا بالإبرة، لا الأبرة تشيل، ولا الخرا يخلص".

ولا تقل التقارير، والبلاغات، والبيانات العسكرية، ونشرات الأخبار(١٧)، والأناشيد، والأغاني الوطنية (١٨)عن التقنيات السابقة في تعدد الأصوات الساردة، وفي مرواحة الزمان والمكان، وفي تحقيق تلك البنية المفككة المحسوبة القائمة على مجموعة من التشكيلات. وهناك فرق كبير بين التفكك عند جيل الرواد، فهو تفكك يدل على عدم الخبرة، أما التفكيك عند الجيل المعاصر "إنما هو تفكيك مقصود محسوب، يعكس مجتمعاً قلقاً مزدحماً بالناس والأحداث والأنباء المتضاربة، التي تؤدي إلى انفعالات متناقضة في اللحظة

الواحدة"[١٩] ولا نستطيع أن نغفل أثر ما يقع من تطورات أدبية وفنية في الغرب، بالإضافة إلى محاولة هذا الجيل للتمرد على الاشكال الأدبية السابقة إثباتا لوجوده[٢٠].

هكذا استطاعت بتول أن تؤكد لنا أنه لا تنقصها الخبرة ولا موهبة التركيب، حين استطاعت أن توظّف هذه التشكيلات من خلال رؤيتها الموحّدة، لتقدم بالتالي رواية متقنة. وهذه سمة الصنعة الممتازة "ألا يكون هناك شيء تافه إن لم يكن بالغ الضرورة"[٢١]. ويبدو أنّ مهارتها قد خانتها حين شغلت نفسها -على امتداد بضع صفحات- بتصوير تفاصيل عزاء جارهم (أبو نضال)، وكان بإمكانها الاستغناء عن هذا التوثيق الفولكلوري دون أن ينال بناء الرواية أدنى خلل. (الرواية ص ٨٢-٨٦).

التوازي

كان التوازي أحد أنظمة السرد الرئيسية، التي اعتمدت عليها الكاتبة في بناء روايتها بالإضافة إلى التتابع والتداخل، وفيه تتزامن المشاهد والعناصر الحكائية، مما يساعد على تفجير المفارقة، وإضاءة الموقف، ورسم الشخصيات من الداخل.

ونظراً لاعتمادها على أسلوب المقابلة والمقارنة في الفصول الأولى، متخذة منه سبيلاً لرسم عالم شخصياتها، وبخاصة شخصية كل من الأب والأم، لهذا نلاحظ غياب نظام التوازي فيها، فلا نكاد نظفر بنموذج منه إلا في نهاية الفصل الثالث (الرواية ص ٨٧).

أما في سائر الفصـــول فيصبـــح التـــوازي الخطـــاب الســـردي الســـائد، وبخاصة في الفصل الخامس، الذي افتنّت فيه الكاتبة بتوظيـــف هـــذا النظـــام.

وعلى امتداد تلك الفصول توظف الكاتبـــة إمكانـــات التـــوازي الفنيـــة، حيث نراها تتجاور مع التقنيات الأخرى، التي سبق الوقـــوف عندهـــا. فنراهـــا في مواضع عديدة تتخذ منها وسيلة لإضاءة عالم شـــخصياتها مـــن الداخـــل: فضيـــق الأم بحياتها، وقلقها المتصاعد الـــذي بلـــغ مـــداه، وآذن بانفجـــار، يتـــوازى مـــع صوت طبول حرب الخليج الأولى، الـــتي أخـــذت تتعـــالى مـــن خـــلال البيانـــات العسكرية، وأوشكت على الانفجار بين لحظة وأخـــرى. وهكـــذا، ومـــن خـــلال جدلية الخارج والداخـــل، يصبـــح الخـــارج مجســـداً للداخـــل، أو يصبـــح مـــرآة له.(الروايـــة ص ٩٢-٩٤).

ويتجلى التوازي عندها في تلـــك اللحظـــة الـــتي دخلـــت فيـــها مرســـم صديقها سليم، فأخذت في تأمل منحوتاتـــه، الـــتي شـــكلت في مجموعـــها إدانـــة للواقع الذي أفرزته الحرب، ويقطـــع لحظـــة التـــأمل تحليـــل عســـكري مســـموع يطوف بين القطع الفنية. عندئذ تقول لصديقها: المنحوتـــات تعـــبر عمـــا يـــدور في الخارج، فيرد عليها: نعم، الخارج يقتـــل الداخـــل.

وإذا كان التوازي هنـــا قـــد أضـــاء الداخـــل، فقـــد كشـــف موقـــف الشخصية من الحرب أيضاً، وقدم رؤية تشـــاؤمية مفزعـــة لعبثيـــة تلـــك الحـــرب. (الروايـــة ص. ١٢٢).

وينهض التوازي بدور مهم في تصوير صـــراع الداخـــل للبطلـــة، وذلـــك حين التقت صديقها سليم في شقته لأول مرة، فجعلـــت مـــن البيـــان العســـكري الذي يهبط عليهم من شباك الشـــقة خطّـــاً موازيـــاً لمـــا يمـــور في الداخـــل مـــن

تساؤلات "نعم، فبعد أن وصلت الحرب إلى هذه المرحلـــة، لا يــهم مــتى تنتــهي ..." (الروايــة ص. ١٣٣).

وقد وظفت التوازي ثانية لموقف مشابه، حــين التقــت البطلــة صديقــها في لقاء حاسم بشقته، لكنها مزجته في هـــذا الموضــع بتقنيــة المنولــوج الداخلــي "... الحرب في الخارج، نحن في الداخـــل..." (الروايــة ص ١٣٧).

كما أسهم التوازي في إضاءة موقف بعــض الشــخصيات مــن الحــرب. ففي الفصل الرابع يتوازى تصاعد وتيرة الحرب مع إصرار معلمـــة الباليـــه (المـــدام) وعنادها على تكوين فرقة للباليـــة علـــى الرغـــم مـــن الصعوبـــات البالغـــة الـــتي تواجهها. فهي بإصرارها تدين تلك الحرب واغتيالها لعنـــاصر الجمـــال في الواقـــع، وإشاعتها للقبح فيـــه.

وحين تطول الحرب، ويملّ الناس إيقاعـــها البطـــيء، تمـــلّ فرقـــة الباليـــة رقصاتها المكررة التي اجترّتـــها هنا وهنــــاك (الروايـــة ص. ١١٢).

وفي موقف آخر تصف الكاتبة صورة جندي بـــائس أســير، بـــدت علـــى شاشة التلفزيون، وقد تمزق جسده بين ســـيارتين تشـــده كـــل منـــهما في اتجـــاه مخالف، ثم تنقلنا توّاً إلى صورة صديقها ســـليم، وقـــد جلـــس في الزاويـــة البعيـــدة من بيته، وهو يبكي ويدخن بشـــراهة، بعـــد أن حطـــم نصـــف تماثيلـــه، وحـــين اقتربت منه قال لها: "في الماضي كنت أعرف في حياتي شـــعوراً، يســـمونه إشـــراقة الإبداع، أما الآن، فلا أجد غير دقائق انتعاش قصيرة في صراع مـــع الزمـــن يشـــبه صحوة الموت (الروايـــة ص. ١٤٦).

وحيناً آخر توظّف التوازي لتفجير إحـــدى مفارقـــات روايتـــها. وذلـــك حين قدمت لنا بياناً عسكرياً يتحدث عن انتصـــارات هائلـــة للقـــوات المســلحة، لتجعل من هذا البيان خطا موازياً لهزائم الأم وخسائرها: حيـــث فقـــدت الـــزوج،

والحبيب ديفيد، والصحة، والأمل. فأسلوب التوازي هنا أسـهم بقـوة في تفجـير المفارقات. فالقراءة الحقيقية الصحيحة للبيان العسـكري إنمـا تتـأتى مـن خـلال الحدث الموازي له (الروايـة ص. ١٤٠).

لقد قمنا بانتقاء بعـض مواضـع هـذا الأسـلوب السـردي، لاعتمـاد الكاتبة عليه كثيراً في النصف الثاني من روايتها، فقد جعلت مـن رسـائل المـدام، وما حفلت به من أخبار واقع الحياة المتردي في العـراق، خطـاً موازيـاً لتدهـور صحة الأم في لندن، ولتفاقم مرضها. فكأن الحـرب والحصـار سـرطان يتغلغـل كلّ بِنىَ الوطن، ولن يتركه إلا جثة هامدة، تماماً مثل جسـد الأم المتـهالك تحـت وطأة مرض السـرطان(٢٢).

(٢) الـراوي:

ويسلمنا الحديث عن تقنيات السرد إلى الحديـث عـن موقـع الـراوي، ولا يعني ذلك تحديد راوٍ بعينـه، فـهذه فرضيـة غـير واردة في دراسـة الروايـة الحديثة، حيث لا يستأثر راوٍ معّين برواية قصة ما "فالقصـة الواحـدة قـد تحتـوي على أكثر من نوع من الرواة، كمـا أنّ الـراوي قـد يتلـون في داخـل القصـة الواحدة، فيبدل ثوبه من حين إلى آخر، فيبدو سافراً مرة، ويختفـي مـرة أخـرى، ويتحدث بضمير المتكلم مرة، وبضمير الغائب مرة أخـرى، وليسـت هنـاك ايـة ضوابط تحتم على الروائي أن يتخذ طريقـة واحـدة أو نمطـاً واحـداً، فالاكتفـاء بصيغة روائية واحدة، أو المزج بين صيغتـين أو أكـثر مكفولـة لحريـة الكـاتب ولأسلوبه في العـرض"(٢٣).

وعلى امتداد روايتها بدا المنظور الذاتي هو العنصـر الأبـرز، مـع الأخـذ في الاعتبار أنه في نصف الرواية الأول كـان العنصـر السـائد، نظـراً لتضـاؤل

المسافة بين الراوي والشخصيات، وبخاصة شخصية البطلة المحورية للرواية، لذا استأثر ضمير المتكلم بهذا الجزء، وغدت الرواية كأنها ضرب من السيرة الذاتية، حيث يصبح الراوي واحداً من الشخصيات، يمتزج موقعه بمواقعها، ويصبح الزمان الذي يتحدث فيه هو عينه زمانها الذي تتحرك خلاله "وفي الوقت الذي يتولى فيه الراوي فعل القص فإنه يشارك الشخصيات في صناعة الأحداث، ويتزاحم معها في صراعها مع الزمان، أو يشهد هذا الصراع ويراه بعينه"(٢٤).

والراوي المشارك غالبا ما يروي الأحداث بضمير المتكلم، مما يكسب الرواية الثقة، والحرارة، والمصداقية، وروح الذاتية. وقد ينعكس ذلك على وصف الراوي لبعض المشاهد، فيأتي الوصف مشحوناً بالموقف النفسي المأزوم، ومحمّلاً بدلالات رمزية مهمة. ولنأخذ مثلا وصفها للطفل الذي رأته في الكافتيريا بعد أن قررت إجهاض نفسها والتخلص من الجنين الذي يربطها بصديقها "آرنو"، حيث تقول: "حدث كل شيء بسرعة ونظام. انتظرت لمدة ساعة في الكافتيريا. أرقب طفلا يلهو بقدح شراب فاتح يغمس فيه البسكوت. تتكسر البسكوتات في يده، تغوص على شكل كتل عجينية إلى القعر. استمتع بالتجربة. راح يرمي المزيد منها حتى أفرغ العلبة. تهيأ لي البسكوت جنينا في كحول حافظ. ثمة يد لرجل خمسيني تستقر على المائدة قرب الطفل. أعرف هذه التجاعيد جيداً. رفعت بصري نحوه، فإذا به برمشة عيني، قد أدار لي ظهره في طريقه مغادراً الغرفة. كانت تلك يد أبي" (الرواية ص. ١٩٣).

وفي هذه اللغة السردية المعتمدة على استخدام ضمير المتكلم (أنا)، فإن الكاتبة تسعى إلى إبراز الذات الساردة للراوي، وتحويلها إلى محور لعالمها

الروائي، "وهذا الإجراء يجعل العالم المروي عالماً نسبياً ذاتيـــاً منظـــوراً مـــن جـــانب واحد فردي، بل يعمل على جعله ذا طابع رومانســـي" (٢٥)كمـــا يجعـــل المتلقـــي لتجربتها يتعلق بها أكثر "متوهّماً أنّ المؤلـــف، فعـــلا، هـــو إحـــدى الشـــخصيات التي تنهض عليها الروايـــة"(٢٦).

واصطناع ضمير المتكلم شكل سرديّ متطـــور، نشـــأ مواكبـــاً لازدهـــار أدب السيرة الذاتية، كما نشأ عن ازدهار حركـــة التحليـــل النفســـي الـــتي كـــان تأثيرها عميقاً في الفكر والفن في الغرب، لـــذا عـــدّ اصطناعـــه في الفـــن الروائـــي ضرباً من المناجاة، لما له من قدرة على التوغل في أعمـــاق النفـــس البشـــرية(٢٧).

وكثيراً ما يتحـــاور ضمـــيرا المتكلـــم والمخـــاطب في لغتـــها الســـردية، وبخاصة في الجزء الأول من روايتها، حيث جعلـــت مـــن أبيـــها مخاطبـــا، أو قـــل شاهداً وشريكاً، "بيتنا، أو ما يطلـــق عليـــه أصحـــابك في العمـــل بيـــت الخبـــير، غرف تتداخل فيها أصوات. صوتك العميق الذي يشبه بشـــرتك الداكنـــة -وقـــد سألك أحدهم في إحدى المناسبات إن كنت قـــد اســـتعرتها مـــن ســـوق الهنـــود- يشتبك مع صوت أمي عندما تنفعـــل ..."(الروايـــة ص ٢٠).

ويذهب منظّرو الروايـــة الفرنســـية الى أنّ ضمـــير المخـــاطب الأحـــدث نشأة في الكتابات الســـردية المعـــاصرة، وأنّ الروائـــي الفرنســـي ميشـــال بيطـــور أشهر من استعمله في روايته "العدول"(٢٨). لكـــن الحقيقـــة أنّ ضمـــير المخـــاطب ليس جديداً في تاريخ السرد الإنساني، فقد اصطنعه الـــراوي في ألـــف ليلـــة وليلـــة مثلا، إنما المعاصرون هم الذين حاولوا إعطاءه وضعاً جديـــداً، مســـتغلين حميميتـــه السردية، باعتباره ترجمة لضمير "الأنا" مـــن جنس لغتـــه "أو كأنـــه هـــو المـــاثل

والحاضر والشاخص، ولكن بواسطة معادل لغوي آخر، وكـأن المسـألة لا تعـدو كونها لعبة سردية ذات مضمون واحد مهما تعـددت أشـكالها"(٢٩).

والملاحظ أنّ ضمير الغائب كان الأقل حضـوراً. ولعـل طبيعـة التجربـة كانت تستدعي ذلك، باعتبار ضمير الغائب يحيل إلى الخـارج باسـتمرار، وهـذه الرواية كانت بحاجة إلى شكل سـردي ينحـو إلى الداخـل، فـاصطنعت ضمـير المتكلم وصنوه ضمير الغـائب.

ولا يعني وجود الراوي الظاهر تقليديـة الروايـة، نظـراً لسـيطرة هـذا النوع من الرواة وانتشاره في الأدب العـربي القـديم، والأدب الشـعبي، فـالراوي الظاهر المسيطر لم يمت في القصة العربية في العصـر الحـاضر.

والملاحظ أنّ الكاتبة قد أفسحت كثيراً للـراوي الخفـي في الجـزء الثـاني من روايتها، ليحل محل الراوي الظاهر، وذلك مـن خـلال الأناشـيد، والتقـارير والبيانات العسكرية ونشرات الأخبار، والرسائل، بالإضافـة إلى اتسـاع مسـاحة الحوار الخارجي، وتعدد مشاهد تيار الوعي. وكـان لوجـود هـذا الـراوي أثـره الواضح -كما سنرى- على لغة الروايـة.

ولعل "بتول" قد وفقت في ذلـك أيمـا توفيـق، بعـد أن انتقلـت بطلـة روايتها من مرحلة الطفولة السـاذجة في الجـزء الأول منـها، إلى مرحلـة الإدراك والوعي فيما تلا ذلك، حيث أرادت أن تعبرّ عن إنسـان العصـر المـأزوم المحبـط "الذي اكتشف أخيراً أنه مجرد ترس في آلة ضخمـة يعجـز عـن فـهم أسـرارها، وهي تسوقه دون رغبة منـه إلى نهايـة محتومـة لا يمكـن الفكـاك منـها، هـي الموت"(٣٠) وربما كان ذلك وراء حصار الموت بكـل أشـكاله وألوانـه لأبطـال روايتها، الذين عجزوا عن السيطرة علـى الأحـداث، وغـدوا ريشـة في مـهب الريح، وأصبح وعيهم مجرد وعاء لأحداث مهمة. كمـا كـان وراء تخلصـها مـن

بطء الإيقاع اللغوي الملحوظ في النصف الأول من روايتها، وذلك باستخدام لغة أسرع إيقاعاً. كما أسعفها أيضا في التخلي -على نحو واضح- عن ذاتها البارزة، وما أسبغته من نسبية ذاتية على عناصر عالمها المروي، لتصبح أكثر موضوعية وواقعية.

وفي إطار سعيها إلى تعدد الأصوات في روايتها، يطل علينا بين الحين والآخر الراوي العليم بكل شيء، وما يتميز به من قدرة فائقة على استبطان الشخصيات والغوص في دخائلها وأسرارها الدفينة، مما يجعل الأسلوب المصاحب له أسلوباً تحليلياً، يهتم بالبواطن أكثر من اهتمامه بالظواهر، وهي تميل إلى أن يكون الراوي العليم بكل شيء سلبياً محايداً موضوعياً، يكتفي بنقل العالم القصصي دون أن يتدخل بالنقد أو التقويم، فهو مجرد كاشف عن الحقيقة التي يعرفها فحسب(٣١).

ويبدو ذلك جلياً في مجموعة كبيرة من التقارير والبيانات العسكرية، بدءاً من الفصل الرابع وحتى نهاية الرواية، ومثل ذلك تلك الرسائل التي تلقتها من صديقتها (معلمة الباليه) على امتداد الفصول الأربعة الأخيرة. ويمكن تلمّس ذلك في وصفها الحسي لبعض الأمكنة(٣٢)، ولهيئات بعض الشخصيات(٣٣). ولنستمع إليها وهي تصف شارع "همر سميث" في لندن حيث أقامت فور وصولها مع أمها المريضة إلى هناك، فهي تقول: "ألقيت نظرة عمودية. أرقب المارّة، تلمع قبعاتهم البلاستيكية ومعاطفهم الشمعية، ينتقلون بين أشجار تيبست كأنها مكانس أوروبية غرست بالمقلوب، موزّعة بانتظام على الرصيف. أغصانها مثل أيد تخشبت أصابعها إلى أعلى، ففر المطر المنهمر من بين العيدان، تصدّه حدبات المظلات الفسفورية الملونة. بائعة الورد

تدخل نباتاتها إلى المحل. إحدى اللافتات تعلن عن افتتاح مدرسة تعليم قيادة السيارة للرهبان والراهبات .. إعلانات أخرى: الإيدز أسبابه ومخاطره. كيف تسوّق متحف الشمع؟ هل تشعر بالوحدة؟ ما رأيك برفيق يختاره لك الكمبيوتر؟ كيف تتخلصين من حملك بدون ألم" (الرواية ص ١٥٢).

وحين نتأمل هذا الوصف نلاحظ أنّ الراوي العليم المحايد لا ينقل الحدث أو الشيء نقلاً مطابقاً لوجوده المادي الملموس فحسب، بل ينقله من خلال ملامسته لنفوس الشخصيات المحيطة بالحدث أو الشيء الموصوف.

(٣) تداخل الأنواع الأدبية:

لم يعد التمييز بين الأنواع الأدبية ذا أهمية في كتابات معظم الكتاب المعاصرين، فالحدود بينها تُعبر باستمرار، والأنواع تُخلط أو تُمزج، فالأنواع "لم يعد لها ثباتها القديم، وأصبح كل نص جديد كأنه نوع في ذاته، ولم يعد من السهل أن تجمع مجموعة من النصوص لتقول إنها تنتمي إلى نوع أدبي واحد"(٣٤).

وهذه القضية ما زالت مثار جدل، فالتفكيكيون يعملون على هدم مفهوم "النوع الأدبي"، ويبررون عدم تحديد النوع بالطريقة نفسها التي يبررون بها عدم تحديد الدلالة عموماً. ويعمل نقاد ما بعد الحداثة على محاولة العمل بلا نظرية للنوع، مستخدمين مصطلحات مثل "النص" و "الكتابة"، عامدين إلى تجنب التصنيفات النوعية. ونجد من يذهب إلى القول بأن "كل نصّ يستند إلى جملة خصائص تسمح (بتنويعه)، وإدراجه ضمن نوع أدبي عام، مهما بلغت درجة انتهاكه للقواعد الأولية لذلك النوع"(٣٥).

لكنّ الرأي الراجح الآن أنّ الأنـواع الأدبيـة فصـائل مفتوحـة. وهـي ذات مفاهيم مرنة متطورة، بمعنى "أنها تتطور مـن عصـر إلى عصـر، ومـن فـترة إلى فترة، ومن مدرسة إلى مدرسة، ومن كاتب إلى كـاتب. فكـل عمـل جديـد -خاصة إذا كان عملاً أصيلاً- يضيف إلى النـوع"(٣٦). ويعـني هـذا اسـتبعاد فكرة نقاء النوع الأدبي، في ظل تميع الحـدود أو مرونتـها، وفي إطـار العلاقـات المتبادلة بين النوع الأدبي والفنون المجاورة أو غير المجـاورة لـه.

ففي هذه الرواية، نلاحظ كيف تداخلت مـع السـيرة الذاتيـة، وكيـف تأثرت بفن الشعر، وأنها استعارت شيئاً من الفن التشكيلي، وأخـذت بعضـاً مـن فن المونتاج السـينمائي.

ولعل السؤال الذي يطرح نفسه على قرّاء هذه الروايـة هـو: هـل هـذه رواية أم سيرة ذاتية؟ لقد لاحظنا كيـف شـكّل السـرد بضمـير المتكلـم فيـها ظاهرة أسلوبية مهيمنة، وهذه علاقة متبادلة بين السيرة والروايـة. هـذا بالإضافـة إلى أنّ كل الروايات تقرأ كما لـو كـانت سـيراً ذاتيـة(٣٧). كمـا أنّ الفـن الروائي العربي عرف عدداً من الأعمـال الـتي يمكـن أن نطلـق عليـها "روايـة السيرة الذاتية"، مثل: طه حسـين (أديـب)، وتوفيـق الحكيـم (عصفـور مـن الشرق)، ويحيى حقي (قنديل أم هاشم) ومحمد شـكري في ثنائيتـه (الخـبز الحـافي وزمن الأخطاء)، وجمال الغيطاني (كتاب التجليات)، ومحمـد العروسـي المطـوي (رجع الصوت)، والطيـب صـالح (موسـم الهجـرة إلى الشـمال)، وعبـد الله الطوخي (سنين الحب والسجن)، وحنا مينا في ثلاثيته (بقايـا صـور، والمسـتنقع، والقطاف)، وبهاء طاهر (الحب في المنفى). ويمكن أن تنـدرج روايـة بتـول مـع مجموعة الروايات تلك، التي سعت إلى تقـديم شـكل سـردي حديـث، تتقـاطع الرواية فيه مع السيرة الذاتية، بهـدف انتـهاك الحـدود، وكسـر الحواجـز بـين

الأجناس الأدبية. وروايتها أدخل في باب "رواية التكوين"، وهي أول نقاط التماس مع "رواية السيرة الذاتية". ورواية التكوين "تصور التحولات العاطفية والنفسية والفكرية التي تنتهي بنضج بطل شاب تصقله تقلبات الحياة أو تصلب عوده. ويمكن أن ينتسب هذا البطل انتساباً مباشراً أو شبه مباشر إلى الكاتب نفسه، أو يصوره في المرحلة التكوينية الأولى من حياته، مثلما ينتسب "فرتر" إلى جوته الشاعر، أو يدل البطل "ستيفن" في صورة الفنان شاباً "على جيمس جويس"(٣٨).

وإذا كانت السيرة الذاتية معنية بوصف الحياة الخاصة للشخصية، والرواية تحتفي بوصف العالم الخارجي، فنلاحظ أنّ روايتها، وبخاصة في نصفها الأول، هي وصف للحياة الخاصة لشخصية السارد = المؤلف، وقد جاء هذا الوصف عن طريق الاسترجاع الذي يعد قوام السيرة الذاتية. وكانت هذه العناية بحياة الشخصية المحورية تفسح -قليلاً- لوصف العالم الخارجي، الذي سيتسع على نحو واضح في النصف الثاني من الرواية.

فقد صورت في النصف الأول حياة الفلاحين وطيبتهم، وبؤسهم، وتخلفهم. أما النصف الثاني فقد اقترب من كونه وثيقة تصور الواقع الاجتماعي والنفسي للعراقيين في ظل حربي الخليج، وهو واقع إلى الموت أقرب منه إلى الحياة. وربما كان هذا وراء استعارة "بتول" لآليات السيرة الذاتية وعوالمها، لأن السيرة بما أنها "رغبة في الانتصار على الموت، هي يقين، ذلك أنها تعتقد أنّ حياة الإنسان يمكن أنّ تروى، أو يمكن ان تترجم إلى ألفاظ، وأن اللغة قادرة على خلق الحياة من جديد"(٣٩). كما أن السيرة الذاتية لا تنتهي بموت الشخصية، بل تظل مفتوحة، ولعل هذا ما دفع "بتول" إلى التداخل والتقاطع بين فن الرواية وفن السيرة الذاتية، رغبة منها في تجاوز

حصار الموت لأبطال رواياتها، ويبدو هذا جلياً من خـــلال خيــط الضــوء الـــذي ينسلّ وسط حلكة الواقع، ممثلاً في استمرارية حيـــاة الســـارد (البطلـــة) وانتظارهـــا للباص رقم ٢٧، كما جاء في الجملة الأخيرة مـــن الروايـــة.

وربما كان دافعها للجنوح إلى السيرة الذاتيـــة في روايتـــها هـــو رغبتـــها في العودة إلى الجذور من خلال اشتداد البعـــد المكـــاني، الـــذي قـــد يثـــير مخـــاوف انقطاع المرجعية الـــتي يســـتند إليـــها الكيـــان الإنســـاني في تماســـكه واســـتمرار وجوده. ومن المعروف أنها قد كتبت روايتها بعيداً عن وطنـــها، وهـــي تـــرى مـــن حولها الكثير من أبناء شعبها وقد تقطّعت بهـــم الســـبل، واســـتحال علـــى الكثـــير منهم العودة إلى الوطن، فجاءت روايتـــها تعبـــيراً عـــن غربتـــها بخاصـــة، وغربـــة الإنسان بعامة في وطنها واستلابه وانسحاقه. وقـــد لاحـــظ بعـــض البـــاحثين(٤٠) أنّ تشابك رواية (الغربة) بالسيرة الذاتية وتقاطعها معـــها يمثـــل ظـــاهرة في تـــاريخ الأدب العربي الحديـــث.

لم تكتف "بتول" بالاعتماد على بلاغـــة القصـــة الخاصـــة ، كمـــا يفعـــل بعض الروائيين، ممن يسوقون حكايـــاتهم بلغـــة بســـيطة، تخلـــو مـــن اللمســـات البلاغية الرفيعة والأنيقة. بل يلاحظ قارئ روايتـــها مـــدى قدرتهـــا علـــى امتـــلاك لغة جميلة وسليمة، تلامس شواطئ الشعر، وتســـتعير منـــه تلـــك الصـــور الخياليـــة الجميلة، في لغة تميل إلى الاكتناز والامتلاء، وتســـتغني -أحيانـــاً- عـــن الروابـــط، لكن دون إسراف في هذا المنحى، ودون أن تكـــون ترفـــاً يـــأتي علـــى حســـاب تطور الحدث وحركة الشخصية. ولنأخذ مثلاً تلك الصورة الوصفيـــة لهـــا، حـــين تعاقبت وصديقة طفولتها "خدّوجة" ركـــوب الأرجوحـــة "جـــاء دوري. ركلـــت الهواء بقدميّ .. ارتفعنـــا إلى أعلـــى .. ركلـــت أقـــوى ... ارتفعـــت أعلـــى .. سبحت في فضاء ... أطرّتـــني زرقـــة حليبيـــة ... كـــل النخيـــل تحـــت قدمـــيّ

الحافيتين ... الشمس تسبح في مياه النـــهر .. أفـرد أصـابع قدمـي ... تنفـذ أقلام ضوء من بين الفراغات الأربـع ... وبـالقدم الأخـرى أركـل أقـوى ... أرتفع ... استنشقت خط الأفق .. وعندها ... كـم بـدت السـماء قريبـة !!" (الروايــة ص. ١٧).

فبالإضافة إلى ما أومأنا إليه من شـعرية لغتـها، فـهي تدهشـنا في هـذه الفقرة بما توفر فيها من إيقاع يدعم شعرية اللغة، وقـد نهـض بـه قصـر جملـها وتعادلها، وتكرار بعض ألفاظها على نحو لافت، وهـذا النسـيج الصـوتي المتمـيز، وبخاصة تلك الحروف الهامسة مثل: الفاء، والعـين، والسـين، والحـاء، والشـين. ولعل الراء -هذا الحرف القوي- قد جسد بطبيعتـه وحضـوره وتكـراره حركـة الأرجوحة، وحركة المشاعر الموّارة في أعماقـها. ويذكرنـا هـذا بقـول النـاقد جورج ديهامل: "إن موسيقى الأسـلوب شـرط لازم لسـيطرته علـى النفـوس. نعم إنّ الروائي الحق هو الذي يعرف قبل كل شيء بعـض أسـرار الحيـاة، لكنـه أيضا رجل -يلجأ في التعبير عما يعلم إلى موسـيقى لفظيـة يسـتخدمها بطبيعتـه، فيتميز بها كإمارة خفية لخصائص نفسـه"(٤١).

وعلى هذا النحو يجمع أسـلوب القصـة -كمـا يـرى الدكتـور طـه وادي- بين الفائدة القصصية، وبين القيمة الجماليـة للعبـارة القصصيـة سـواء في السرد أو الحـوار(٤٢).

ويبدو أنّ الدعوة إلى العناية بلغة الرواية الحديثة عنايـة تقـترب بهـا مـن جماليات اللغة الشعرية قد غدت اتجاهاً عاماً لدى الدارسين، حـتى أننـا نجـد مـن يؤكد على ذلك بقوله: "إنا نطالب بتبني لغة شـعرية في الروايـة، ولكـن ليسـت كالشعر، ولغة عالية المستوى، ولكن ليست بـالمقدار الـذي تصبـح فيـه تقعـراً

وتفيهقاً .." (٤٣) ولا يكتفي بذلك، بل نجده في موضع آخر يفصل طبيعة اللغة التي يدعو إليها للرواية الحديثة، فيقول: "إذا لم تكن لغة الرواية شعرية، أنيقة، رشيقة، عبقة، مغردة، مختالة، مترهيئة، متزينة، متغجرة، لا يمكن إلا أن تكون لغة شاحبة، ذابلة، عليلة، كليلة، حسيرة، خلقة، بالية، فانية، وربما شعثاء غبراء"(٤٤).

ليست رواية "بتول" من روايات تيار الوعي الخالصة لهذا النوع، لكن تيار الوعي، وتقنية المونولج الداخلي كانا ضمن وسائل السرد المتعددة عندها، ولعل هذا كان سبباً في اقترابها من شواطئ الشعر بين الفينة والأخرى(٤٥)، وملامستها لحدوده، واستعارتها لبعض ملامحه، لأن قصة تيار الوعي (كما يقول ليون إيدل) قريبة جداً من الشعر، وكتّابها يتوسلون بالنثر في استقصائهم للفكر المنساب المتدفق، المتراقص، المعتم بالظلال -إلا أنهم ينتجون شعراً(٤٦). فلم تكن "بتول" -إذن- تستعيد في تلك المواضع أحداثاً من حياتها مجردة من المشاعر والأحاسيس، وحين "يعيد الفن تركيب عناصر الحياة تركيباً دقيقاً، فإنّ جواً من الشعر يحيط بتلك الحقائق"(٤٧).

وتداخل الحدود بين الرواية والشعر ملمح عصري في الرواية الحديثة، أفرد له الباحثون دراسات مستقلة، وبخاصة عند كتّاب رواية تيار الوعي(٤٨).

ولما كانت أعراف الرواية تتغير على ضوء المفاهيم المتغيرة للطبيعة الإنسانية والعلاقات الإنسانية، فإن الروائيين المختلفين في الفترات المختلفة عمدوا إلى أدوات وأساليب مختلفة للتعبير عن نظرتهم الجديدة. وهذه الأدوات والأساليب تؤول عند التحليل إلى مزيد من استغلال عامل الزمن وقيمه

المتأصلة في الرواية، وكثيراً ما تنم عن شبه ملحوظ بتلك المستخدمة في الفنون الزمنية الأخرى كالموسيقى والأفلام السينمائية(٤٩).

وقد استعارت الكاتبة على امتداد روايتها بعض الأدوات المشتركة بين الأفلام والروايات. ففي حديثنا عن تقنية التداخل، تناولنا الاستدعاء من الذاكرة (Flash Back) ضمن مجموعة من ضروب التداخل، باعتباره جزءاً مهماً في الرواية الجديدة، يحقق لها تلك الحركة التماوجية في الزمن.

وحين نتأمل لغتها نلاحظ تفاوت الإيقاع بين (الإسراع والإبطاء). ففي نصفها الأول شكّلت روايتها من لغة تعتمد بناء جمل طويلة ذات زوائد شارحة ومفسرة. ولعل هذه اللغة ذات الإيقاع البطيء كانت أكثر اتساقاً مع تلك المرحلة العمرية للبطلة/ المولفة، وذلك قبل أن ينمو وعيها وينضج، وتصبح أكثر تفاعلاً مع حركة الواقع من حولها، مما دفعها في النصف الثاني من الرواية إلى اعتماد لغة ذات إيقاع أسرع، متخذة من الجمل القصيرة، المتوترة، المستغنية عن الروابط والزوائد الشارحة سبيلاً لذلك. ولنتأمل مثلاً قولها: "عندما شعرت عمة زكية أنّ بقائي عندهم قد طال همّت بإعادتي إلى أهلي. كم أحب هذه اللحظات التي ترفعني فيها عمة خدّوجة عن الأرض بحركة رشيقة سريعة فتجلسني على كتفها .. أشعر كأنني قدور اللبن الرائب العالية التي تصفّها الواحدة فوق الأخرى .." (الرواية ص ٤١) لنرى مصداقاً لذلك الإيقاع البطيء، الذي يأتي نقيضاً لإيقاعها اللغوي منذ نهاية الفصل الرابع، الذي ختمته بقولها: "طقوس الدفن، صلاة الميت. ختمة القرآن. بدأت أدخل زمناً، لشدة كآبته، أكاد أمسك هواء ثقيلاً في قبضة يدي" (الرواية ص ١١٦) وهو إيقاع يأتي متناغماً مع حركة نفسها القلقة، المضطربة،ومع واقعها بكل توتره، وتسارع أحداثه، وانقلاب معاييره تحت وطأة حربين متتاليتين،

يشكل الحصار امتداداً وتواصلاً لثانيتهما. وقد كانت لغة رسائل (المدام) خير مثال لتلك اللغة المتسارعة اللاهثة.

وبالإضافة إلى تلك الأدوات السينمائية، استعارت الكاتبة أداة تقريب الصورة (close up)، وقد استعانت بها في تصوير عدد من المشاهد الحسية، (الرواية ص ٣٩، ٩٦، ١٥٢، ١٥٤)، أو تصوير بعض الشخصيات الثانوية، (الرواية: ص ١١٩، ١٥٩). فتصويرها -مثلاً- لمشهد خيانة الأم في المستودع، الذي شهدته من فتحة صغيرة ضيقة، يذكرنا بتلك اللقطات السينمائية التي تأتي من خلال ثقب الباب "اقتربت من الفتحة. أرمي نظرات تمسح زوايا المخزن. هذا العمود الجانبي اللعين يحجب نصف الرؤيا، فلا أرى غير الجدار الداخلي العريض أمامي.تتوتر عيناي إلى اليمين واليسار، أحاول أن ألعق ببصري مصدر الكركرات ... ببطء، ارتفع أمامي على الجدار ظل بكتفين عريضتين، يحتوي ظلاً بشعر ملفوف للأعلى على هيئة كعكة. أين ميلي؟ الظلال تتقاطع. الكعكة تتدحرج. الشعر يتهدل. يزداد الاحتواء. الكرسي يضطرب. يتشاركانه، الفتحة الرطبة تضيق على مقلتي ... الكرسي المكسور يهتز، يهتز، يهتز ..." (الرواية ص ٥٢).

أما فن (المونتاج) فقد استعارته في مواضع قليلة، (الرواية: ص ١٣٧، ١٩٣) لتخليص نفسها من خجل التفاصيل حيناً، وحيناً آخر لتعبر عن الزمن النفسي للحدث، وفي كلا الحالتين كانت تسعى إلى تكريس إيقاع روايتها المتسارع في نصفها الثاني. ومن ذلك وصفها لأول لقاء مع آرنو في بيته "ضحكنا، تاركين القهوة تبرد ... قضينا ساعة ليست بالغريبة، لم تتخللها أية حوادث ولا أصوات غير مفهومة. ليلة تفاهمنا عبر طياتها كعاشقين قديمين،

تزوج كل منهما على حدة، يلتقيـــان مـــرة في الســـنة، علـــى ضـــوء شمعـــة .." (الروايـــة ص ١٨٥).

وفي إطار سعي الكاتبة إلى استثمار تقنية التماوج بـــالزمن، لاحظنـــا مـــن قبل كيف لجأت إلى عملية التراسل على امتداد ثلاث صفحـــات بـــين الاســـتدعاء من الذاكرة والفن التشـــكيلي، (الروايـــة ص ١٢٠-١٢٢) فـــإذا كـــان التذكـــر يعود بنا من الحاضر إلى الماضي، فإن الفن التشـــكيلي يمضـــي بنـــا إلى زمـــن ممتـــد غائم. وعدا عن دور الفن التشكيلي في إضاءة أبعـــاد شـــخصية ثانويـــة مهمـــة في الرواية، تمثل نموذجاً للفنان المستلب، والمثقف المقهور، فقد نهـــض بـــدور مـــهم في تجسيد هموم الواقع، ومرارته، وقيمـــه المقلوبـــة "علـــى طـــرف المنضـــدة البعيـــد مجموعة من منحوتات أصغر حجمـــاً لحمـــار في بدلـــة ســـهرة، جـــرذ يضـــرب بالسوط، خنزيرة ترضع رجلاً، قطة تضاجع كلبـــاً .. يـــد ترفـــع شـــارة النصـــر، أخرى تنزف، الثالثة تتوسل. يد تتضرع. يد علـــى شـــكل قبضـــة غامضـــة. يـــد تفكر، أخرى تلعب، يد تعبت من الانتظـــار".

كما وظفت فن البالية من خلال عملية التوازي الـــتي أشـــرنا إليـــها مـــن قبل، واستطاعت أن تخلق حالة من التراسل بين الحفل الـــذي أعـــدت لـــه معلمـــة الباليه، وبين ما يحدث في الخارج في ظل حرب الخليـــج الثانيـــة "يبـــدأ الســـيناريو بفريقين يفصل بينهما نهر. الفريق الأول يعيـــش تحـــت شمـــس مذهبـــة هادئـــة، لا يأبه بفريق بدأ يدبّ فيه المرض لاختفاء شمسه تحت غيمـــة كثيفـــة في شـــكل فطـــر عملاق شغل نصف خلفيّة المسرح. أبـــت الغيمـــة أن ترحـــل، فقـــرر أهلـــها أن يهاجروا طلباً للـــدفء في بلـــد بعيـــدة .." (الروايـــة ص ١٤٧) ونجحـــت علـــى امتداد صفحتين - أن تجعل من "فن الباليه" جزءاً من نســـيج عملـــها الروائـــي.

وقد بدا واضحاً الآن كيف قدّمت "بتول" نصّاً عصرياً مرناً، مفتوحاً، تسمح حدوده المتميعة بتبادل العلاقات مع الفنون المجاورة أو غير المجاورة له، حتى غدا نصّاً متميزاً جديداً، كأنه نوع في ذاته. "ولعل تهاوي الحواجز الفاصلة بين أنواع الفنون على هذا النحو يشير إلى رغبة في التوصل إلى تعبير شامل عن القيم العامة"(٥٠).

(٤) الشخصيات:

يلاحظ في رواية السيرة الذاتية وجود بطل محوري، يمثل بؤرة التجربة، وما عدا ذلك من شخصيات أخرى، فهي تدور في فلكها، وتنهض بمهمة إلقاء مزيد من الضوء على جوانبها المتعددة.

فالراوي /البطل/ المؤلف في رواية "بتول" هو الشخصية التي تمحورت تجربتها حولها، تلك الفتاة الوحيدة لأب عراقي وأم إنجليزية، التي عانت كثيراً من صراع ثقافتين مختلفتين، يحاول كل منهما -عبثاً- نفي الآخر.

ولا يعني هذا بالضرورة مطابقة شخصية البطلة للكاتبة "فالشخصية الطبيعية عند دخولها في الرواية تتخذ وظيفة جديدة، وتدل على معنى جديد، وتكون جزءاً من لوحة كبيرة، حتى أننا في النهاية ننسى الأصل، ولا يبقى إلا الشخص الخيالي باعتباره الخادم لفكرتنا ولإحساسنا"(٥١).

وقد حاولت "بتول" تقديم شخصية روائية تتجاوز السائد في الرواية التقليدية، التي تتعامل مع الشخصية على أنها كائن حي لها وجود طبيعي، وسعت -على طريقة الروائيين الجدد- إلى الابتعاد عن وصف ملامح الشخصية، فاكتفت -على مستوى البعد المادي للشخصية- بوصفها بالسمرة والنحافة، و لم تخلع عليها اسماً، كما فعلت الشيء ذاته مع أبيها وأمها، ومع

معلمة الباليه، و لم تسم إلا الأبطال الثانويين الأقل أهميـــة، مثـــل (ديفيـــد، وميلـــي، وأرنو، وجفري). هـــذا إذا استثنينا شـــخصيتين ثـــانويتين مـــهمتين (خدّوجـــة وسليم) اللتين كانتا على جانب كبـــير مـــن الأهميـــة في الكشـــف عـــن جوانـــب الشخصية المحوريـــة.

ولكن "بتول" لم تنجح في الحد من غلواء شـــخصيتها المحوريـــة، وإغفـــال بعديها: الاجتماعي والنفسي. ويبدو أنها لم تسع جـــادة إلى الإعـــلان عـــن مـــوت شخصيتها، كما فعل الروائيون الجدد في ربـــع القـــرن الثـــاني مـــن هـــذا القـــرن، وغدا ملمحاً واضحاً للرواية الجديدة، حتى أنّ بعضهم قـــد اكتفـــى بـــإطلاق رقـــم على بطلة، أو تسميته بحرف من الحروف، كما فعـــل "كافكـــا"(٥٢).

وشخصية البطلة شخصية نامية مدورة، تكشـــفت بـــالتدريج، وتطـــورت متفاعلة مع الأحداث والشخصيات من حولهـــا، متـــأثرة ومؤثـــرة، وتغـــيرت مـــن موقف إلى آخر، سواء انتهى تفاعلها بالغلبـــة أو الإخفـــاق(٥٣). وعـــن طريـــق هذه الشخصية النامية، التي تمثل رؤية الكاتب، يمكـــن تلمـــس مواقـــف الكاتبـــة، وعلاقتها بالحياة من حولها، ومدى تفاعلـــها مـــع القضايـــا الحيويـــة في راهنـــها. ويمكن القول بأن "بتول" استطاعت أن تقـــدم مـــن خلالهـــا شـــخصية نموذجيـــة، تمثل جيل الحرب في العراق، الذي تفتح وعيه علـــى حربـــين متتـــاليتين، وحصـــار مازال مستمراً، كما استطاعت أن تخـــتزل صـــورة المثقـــف المســـتلب والمقمـــوع ... فقدمت العام من خلال الخـــاص. والشـــخصية النموذجيـــة "تمثـــل المطلـــب الأسمى في الإنجاز الفني، والوصول إليها يتطلـــب قـــدرة فنيـــة متطـــورة ... إنهـــا الطموح والحالة الأرقى فنياً، التي تمتلك القـــدرة علـــى التعميـــم، وإعطـــاء صـــورة

موضوعية مطروحة بصيغة فنية عـــن الحركـــة الاجتماعيـــة في ظرفـــها التـــاريخي الذي تعيشـــه"(٥٤).

أما سائر شخصياتها فأكثرهـــا شـــخصيات مســـطحة، مثـــل (خدّوجـــة، وديفيد، وميلي، وأرنـــو، وجفـــري). وأقلـــها شـــخصيات ناميـــة، مثـــل (الأب، والأم، والفنان سليم، ومعلمة الباليه). وقد حظيـــت هـــذه الشـــخصيات باهتمـــام الكاتبة، وكان لها حضورها المميز، وأهميتها في حيـــاة البطلـــة المحوريـــة. وإضـــاءة أبعاد شخصيتها، وربما تجاوزت هـــذا الـــدور المنـــوط بالشـــخصيات الثانويـــة،، لتصبح شخصيات نموذجية لها القدرة على التعميم، وتمثيل فئـــة بعينـــها.

لقد لجأت "بتول" إلى أكثر من أســـلوب في رســـم شـــخصياتها، فنجدهـــا حيناً تلجأ إلى الأسلوب التمثيلي، وحيناً آخر تســـتخدم الأســـلوب التحليلـــي.

والملاحظ أنها قد اعتمدت الأسلوب التمثيلي في رســـم شـــخصية بطلـــها المحوري، كما استخدمته في رسم بعـــض الشـــخصيات الثانويـــة المهمـــة، مثـــل : الأب، والأم، والفنان التشكيلي سليم، ومعلمـــة الباليـــه .

وفي هذا الأسلوب ينحّي الكاتب نفسه جانباً ليتيـــح للشـــخصية أن تعـــبر عن نفسها، وتكشف جوهرها بأحاديثـــها، وتصرفاتهـــا الخاصـــة(٥٥)، بحيـــث لا ينفصم التلازم بين الشخصية والحدث، فيتضمن كل تطـــور في الحـــدث تغيـــيراً في الشـــخصية، ويتبـــع كـــل نمـــو في الشـــخصية تغـــير في الحـــدث، وتنـــامٍ في الصـــراع(٥٦).

ويحلو لبعض الدارســـين تنـــاول هـــذه الطريقـــة في رســـم الشـــخصية في أسلوبين، هما: الأســـلوب التصويـــري المعتمـــد علـــى تقنيـــة الحـــدث والحـــوار،

والأسلوب الاستبطاني المعتمد على تقنية الحوار الداخلي، والتذكر، والأحلام(٥٧).

ويرى الدكتور محمد يوسف نجم أنّ روايات السيرة الذاتية التي تستخدم ضمير المتكلم، أو الوثائق، أو تيار الوعي، لا يستطيع كاتبها أن يدس أنفه، بل يترك للشخصية أن تنضو الحجب عن جوهرها بواسطة البوح، والاعتراف، وتداعي الأفكار، والمراجعة الداخلية(٥٨). وهذا ما لجأت إليه بتول في تصوير تلك الشخصيات التي أشرنا إليها.

والملاحظ أن هذه الطريقة تركز على عالم الشخصية النفسي، وذلك من خلال اعتمادها على تقنيات خاصة تعد ضرورية لإضاءة عوالم الشخصية النفسية، والتي يستطيع بها القارئ أنّ ينتقل من الأحداث الخارجية التي تثير النشاط الذهني للوقوف على حركة الفكر والشعور. ويعد هذا الصنيع الذي ينحو إلى (جوّانية أوسع) ملمحاً عصرياً مشتركاً في فن الرواية(٥٩).

أما الأسلوب التحليلي (التقريري) الذي يعنى برسم الشخصية من الخارج، يشرّح عواطفها ، وبواعثها، وأفكارها، وأحاسيسها، ويعقب على بعض تصرفاتها، ويفسر بعضها الآخر، فتبدو الشخصية جامدة، ثابتة، باهتة الملامح(٦٠) -فقد لجأت إليه في رسم بعض شخصياتها الثانوية، مثل: ديفيد، وميلي، وآرنو، وجفري. أما شخصية الفنان سليم فقد لجأت في رسمها إلى الأسلوبين معاً. فقد بدأت بوصف تقريري للشخصية بقولها "فتح لنا الباب وجه عريض، ينبع منه أنف إغريقي. يتدلى من تحت منخرية الضّيقين شاربان مائلان إلى شقرة تلائم لون العينين اللذين اختفيا تحت جفنين ثقيلين، عندما ابتسم مرحباً ..." (الرواية ص ١١٩) ثم تركت الشخصية تتكشف من

الداخل بالتدريج من خلال الأحداث، وعلاقتها بالشخصية المحورية، ثم من خلال الرسائل التي بعثت بها إليها، فانتهت إلى رسم شخصية حيّة، ديناميّة، نامية، تتطور مع أحداث الرواية.

الرؤية:

تطرح رواية "كم بدت السماء قريبة" مجموعة من قضايا الواقع وهمومه، وهذا شأن الرواية، وبخاصة الروايات ذات المنحى الواقعي التي تتميز بشمولية رؤيتها في التعبير عن الواقع. والرواية بعامة تتشكل من قماشة واسعة، تسمح لكاتبها بتحريك أبطالها عبر زمان ومكان يتأبيان في الرواية الجديدة على الضيق والتحدّد، لما تتمتع به من تقنيات حديثة، تعمل على تثوير الزمان والمكان، ويتم هذا التحريك عبر شبكة معقدة من العلاقات في الواقع.

ولعل أسمى ما يطمح إليه الكاتب الروائي فنياً، هو أن ينجح في تقديم الشخصية النموذجية القادرة على التعميم، وإعطاء صورة موضوعية بصيغة فنية. وأظن ذلك قد تحقق لبتول الخضيري إلى حد كبير من خلال مجموعة من الشخصيات ترمز كل منها إلى فكرة أو منزع، فبطلة الرواية تجسد صورة الجيل الجديد الممزق بين ثقافتين، ولا يعرف لمن يكون ولاؤه، أيكون لهذا الأب الذي تعلم في لندن، وتزوج من امرأة انجليزية، وظل وفيا لهويته الشرقية العربية: لغة، وعادة، وسلوكاً، ومزاجاً ..؟ أم يكون ولاؤه لتلك الأم الإنجليزية التي مثلت ثقافة غربية مغايرة؟ ولنا أن نتساءل هنا: هل أرادت بتول أن ترمز بشخصية الأب إلى تراثنا، وجذورنا، وهويتنا الأصيلة في مقابل شخصية الأم، التي تمثل ثقافة (الضد)، أي ثقافة الغرب الحديثة؟

فالدراسة لا تستبعد ذلك، بل تميل إليه، ولا سيما أنّ الشخصيتين اللتين رسمتهما تحتملان ذلك، فقد برعت في تقديمهما من خلال تلك

المقابلات والتوازيات التي شغلت أكثر من نصف الرواية، وأتقنت بذلك تصوير الصراع الثقافي الذي يعاني منه مجتمعنا العربي. وخلال ذلك نتأمل موقف البطلة/ الجيل الجديد، التي ظلت فترة من الزمن تقدّر موقفها، ثم نراها وقد انحازت إلى شخصية الأب، الذي غدا أقرب إليها من أمها وأحب، وبدأ موقفها يتكرس بعد أن تكشّفت لها حقيقة مشاعر أمها، التي لا تُكِنّ حباً لأبيها، ولا تتورع من خيانته، وإقامة علاقة مع صديقها "ديفيد" الذي يصر الأب على تسميته "داود". ولا تخفى الإيماءة الذكية لهذا الإصرار. وإمعاناً في استجلاء رؤيتها تلجأ إلى تقنية الحلم الكابوسي لتتصور "ميلي" أخت "ديفيد" وقد غدت زوجة أبيها.

لعل هذا يتيح لنا لأن نتقدم خطوة أخرى لنقول: إنّ بتول ترى ملاذ الجيل الجديد يتمثل في تمسكه بتراثه، وهويته في مواجهة ثقافة زائفة، لا تعد بشيء سوى التشويه والضياع.

وتثير دهشتنا وفاة الأب المبكرة المفاجئة، التي شكّلت -ولا شك- حرماناً للبطلة من ذلك الملاذ، وأدخلتها بعد ذلك في دوامة من الغربة الممضّة، التي استحكمت حلقاتها من حولها بعد وفاة الأب/ الملاذ، وأفضت بها إلى الارتباك، وفقدان التوازن، فها هي ذي تقيم علاقة محرّمة مع الفنان سليم، وبعد ذلك تحمل سفاحاً من "أرنو"، ثم تجهض حملها، وتتوه بعد ذلك في بحر من الغربة بلندن. كل ذلك وهي بصحبة تلك الأم التي عجزت عن الأخذ بيد ابنتها، وأنّى لها ذلك وهي العليلة بالقلق قبل وفاة الأب، والمريضة بالسرطان بعد ذلك، والتي لم تستطع لندن بكل علمها وتقدمها من إنقاذ حياتها، والتخفيف من تدهورها الدراماتيكي على نحو مخيف. فهل أرادت "بتول" القول بأن هذه الثقافة / ثقافة الضد هشة، قلقة مقلقة، مريضة، ومصيرها إلى

زوال، ولا تعد بأكثر من الضياع؟ ربما أرادت ذلك، وليس لها أن تنكره أو تنفيه، طالما أنّ التجربة تحتمل ذلك دون أن نلوي عنقها، ونقوّلها ما لم تقل.

ولعل أهم القضايا الإنسانية التي عالجتها الرواية هي قضية الاغتراب، فكل أبطالها عانوا مرارتها، وكانوا ضحايا لها. فالبطلة اغتربت وهي طفلة بين ثقافتين، تحاول كل منهما -عبثاً- نفي الأخرى، ثم تكرست غربتها وهي كبيرة بعد وفاة أبيها، وسفرها من ثم مع أمها المريضة إلى لندن، حيث استحكمت حلقات الغربة، فلندن بكل علمها ونظامها وتقدمها كانت تمثل ضياعا تاما لقاطنيها، الذين يتحركون في حرية متضخمة، لكن في غياب قيم الحياة النبيلة.

كما عانى الأب من الغربة (طالباً) في لندن، ثم تضاعفت غربته (زوجاً) في بغداد، ولعله كان أقل الشخصيات غربة أو أقلها معاناة من حدتها. وذلك بعكس الأم التي عانت من غربتها في موطنها قبل الزواج. وحلمت بالخلاص من ذلك بالسفر إلى الشرق بعد الزواج، ولكن أحلامها تبخرت هناك، وحين عادت إلى موطنها، اكتشفت أنها ليست من هنا أو هناك !.

ومثّل الفنان سليم ومعلمة الباليه جمهور الفنانين المستلبين، والمثقفين المحبطين في المجتمع، ممن تكاد الغربة تقتلهم، وحقاً كان لها ذلك، إذ انهزم سليم، وعبرّ عن غربته من خلال أعماله، التي حطّمها ذات ليلة، حين اشتدت وطأة غربته بفعل ظروف حربين متتاليتين، فقتلت روحه، ووأدت الفنان بداخله "فالمنحوتات تعبر عما يدور في الخارج، نعم، والخارج يقتل الداخل ..." (الرواية: ص١٢٢).

أما معلمة الباليه، فلم تكن أقل معاناة منه، لكنها قبلت التحدي، وأصرت على تشكيل فرقة للباليه في ظروف صعبة ومذلة، واستطاعت أن تقدم عرضاً ناجحاً، كان تجسيداً لراهنها، وظلت بعده صامدة ترصد الواقع من خلال تلك الرسائل، التي بعثت بها إلى صديقتها (البطلة) في لندن، معبرة بها عن وعيها بظروف راهنها، التي لم تحل دون زواجها. ولا يخفى ما للزواج من دلالة على الأمل في بدء حياة جديدة، تنبثق وسط ذلك الدمار الشامل. فهل أرادت "بتول" إدانة سلبية (الذكورة) في مواجهة تحديات الواقع، وذلك في مقابل إيجابية المرأة؟ فنحن لا نستبعد هذا، بل لا نتردد في ترجيحه.

ويبدو أنّ الكاتبة ترى الجيل الجديد على قدر كبير من الوعي، وأنه رافض لسلبيات واقعه، ويدينها ما استطاع، ويتمرد عليها ما أمكن، ولعل بطلة الرواية هي الأكثر تمثيلاً لهذه الروح، فكثيراً ما تمردت على تعليمات أبويها وهي صغيرة، وظلت تتطلع إلى الحرية على امتداد الرواية، وعبرت الكاتبة عن ذلك من خلال صلتها "بخدّوجة" وعالمها السحري الذي كان يتيح لها هامشاً من الحرية، لا تظفر بشيء منه في بيتها، وهذا يعلل لنا فجيعتها بوفاة خدّوجة. كما أنّ نزوعها إلى الحرية يعدّ مفسراً صالحاً لحبّها للنوم فوق سطح منزلهم، ولسعيها إلى الأماكن الواسعة في الزعفرانية، وبغداد، ولندن. ورسالة الفنان -كما يرى كامو- هي إشباع الحاجة إلى الحرية والكرامة،وعظمة الروائي هي بمقدار تمرده وجمعه بين الثورة والإبداع(٦١).

وقد اتبعت "بتول" خلال ذلك الواقعية والتحليل النفسي لتلك الشخصيات وتطويرها، وتعميقها. ولم تكتف بتقديم واقع مؤلم قاتم، بل قدمت حالة فنية راقية، ورؤية فنية متقدمة.

ولكن يؤخذ عليها سيطرتها -أحياناً- على بعض شخوصها، وإنطاقهم بلغتها وفكرها، مما يفقد الشخصية مصداقيتها وحيويتها، كما فعلت على لسان "فاروق" حين اعترض على طلب معلمة الباليه بأن تعمل الفرقة أكثر وأكثر، فقال: "نحن نبذل جهدنا طلبا لرضاك، ومحاولة لتفهم الدرب التي وضعونا عليها منذ الطفولة. وربما جنوا علينا بتعريضنا لعالم جعلنا نخشى ما يطلقون عليه الحياة العملية الطبيعية. نحن لا نعرف غير الرقص، وهذه اللغة لا تجدي في الحرب. وربما كنا مخطئين بتمسكنا بما تسيمنّه بالحلم. ربما آن الأوان أن نفك الارتباط هذا إن كان سيدمر لنا أعصابنا على هذا النحو. على كل حال، الأمل يتضاءل بشأن انتهاء الحرب قريباً. نحن على أبواب تخرج، فلنكن أحكم من أن نطلب المستحيل" (الرواية: ص ١١١).

فهذا المستوى الفكري يتجاوز بكثير مستوى طالب في المرحلة الثانوية، ولكن موطن المؤاخذة هذه يظل استثناءً في مقابل تقديرنا لتحرير شخصياتها الأخرى من سطوتها لتنمو وتتطور، وتعبر عن نفسها على مستوى الحوار والحدث.

ليس هذا كل ما طرحته الرواية من هموم خلال شخوصها" فما يعطيه العمل الروائي لا يكمن بالضرورة في أحداثه الكبرى ، وشخصياته الرئيسية .. فقد يكمن في بعض الزوايا الدقيقة ، أو الإشارات الخافية" (٦٢) فقارئ روايتها لا يستطيع أن لا يتوقف مليا أمام شخصية "خدّوجة" وعالمها في الزعفرانية، فالغاية ليست مجرد رغبة في تحريك البطلة على مساحة مكانية واسعة، وطبيعة ريفية جميلة. ففي الرواية المتقنة لا يوجد حدث تافه. ولعل الكاتبة قد سعت إلى إدانة الواقع، الذي يُهمّش عالم الفلاحين، ولا يسعى إلى

تطويرهم، بل يكرس تخلفهم. فإذا كان أولئك الفلاحـــون يعيشـــون علـــى تخـــوم بغداد منسيين، فما بالنا بمن هم أبعد مكاناً من ذلك في قلـــب الســـواد العراقـــي.

ولا تتورع الكاتبة من إدانة أبناء الطبقة البرجوازيـــة، الـــتي تنتمـــي إليـــها بطلة روايتها، وذلك من خلال عملية موازاة بين بيئتـــين عراقيتـــين تصـــور تجـــاور التناقض بين أسرتها وأسرة خدّوجة المعدمة. فإذا كـــانت أســـرتها تنظـــر إلى عـــالم خدّوجة نظرة تهوين لا تخلو من إزدراء، لأنهـــا تملـــك المـــال، والعلـــم، ووســـائل الحضارة الحديثة، فهذا لا يعني - من وجهـــة نظـــر الكاتبـــة- أنهـــا الأفضـــل. لأنّ أسرة "خدّوجة" تمثل بيئة عراقية أصيلة، تملك الحـــب، وتتمتـــع بعلاقـــات حميمـــة بين أفرادها، وتمتاز ببساطتها ونقائـــها .. وأفرادهـــا متســـاندون، يـــأكلون معـــاً، ويعملون معاً، وبيوتهم تتساند أيضاً مشكّلة وحـــدة بنائيـــة واحـــدة، ولا يعرفـــون الكذب وزيف المشاعر، ولا يعرفون من أدوات الحضـــارة الحديثـــة شـــيئاً. علمـــا بأن بيت البطلة خلو من الحب، ودفء العلاقـــات النبيلـــة.

كما أدانت الكاتبة أيضا إشعال الحروب بـــلا دوافـــع حقيقيـــة جوهريـــة، ودون دراسة دقيقة لحساب المكاسب والخسائر، تضـــع آدميـــة الإنســـان وروحـــه أول اعتباراتها. كما أنّ تلك العنجهية التي تخاض بهـــا الحـــروب لا تليـــق بإنســـان يخطو مسرعا عتبات العقد الأخير صوب الألفية الثالثـــة. فقـــد بـــدا واضحـــاً مـــن تلك التقارير، والبيانات العسكرية، ونشرات الأخبـــار الإذاعيـــة والمتلفـــزة. الـــتي حشدتها الكاتبة- مدى الزيف، وغياب الشفافية والمصداقيـــة ... ولا ســـيما أننـــا نرى -في خطٍ موازٍ لتلك الانتصارات الإعلامية الوهميـــة- ضروبـــا مـــن الهزائـــم والإحباطات للإنسان على كل المستويات، وحسبنا مـــا جـــاء في تلـــك الرســـائل المتبادلة بين البطلة وحبيبها سليم، وبينـــها ومعلمـــة الباليـــه، ولا أدل علـــى ذلـــك

من قولها على لسان البطلة المحورية "كيف نبني وسط أشياء تخـــــرب؟ إنســـان بعـــد آخر يسقط. الأبنية وبيوت الأهالي تسقط. الزمـــن يســـقط" (الروايـــة ص ١٣٦).

وقد لجأت الكاتبة إلى تقنيـــات التداخـــل، والتقـــاطع، والتـــوازي لتقـــديم تلك المادة الوثائقية المدهشة عن الحرب، والتي كادت كثرتها تجـــور علـــى حيويـــة السـرد.

والتجربة التي تقدمها مثل هـــذه الروايـــة -برغـــم خصوصيتـــها- تحمـــل بعض سمات إنسانية عامة، مما يؤهلها لأن تتجـــاوز حدودهـــا الزمانيـــة والمكانيـــة إلى آفاق أرحـــب.

وما يثلج الصـــدر أنّ هـــذه الروايـــة هـــي أول نتـــاج للكاتبـــة "بتـــول الخضيري" ويعني هذا مولد روائية عربية، تخطـــو علـــى دروب الإبـــداع الروائـــي في ثقة وقوة. وهي على وعي بالكثـــير مـــن آليـــات الســـرد الحديثـــة، وتقنيـــات الرواية العصريـــة.

الهوامش

١- بتول الخضيري، **كم بدت السماء قريبة**، الطبعة الأولى (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٩). هنا فيما بعد: **الرواية**.

٢- محمد الشنطي، "تيسير سبول: خصوصية الرواية وجماليات التشكيل"، في: **المؤتمر الأول للحركة الأدبية في الأردن** (مخطوط: جامعة مؤتة ١٩٩٣)،ص.٧٠.

٣- **الرواية**، ص . ١٦٦-١٦٧.

٤- **الرواية**،ص. ١٦٣.

٥- أ.د. مندولا، **الزمن والرواية**، ترجمة بكر عباس (بيروت: دار صادر، ١٩٩٧)، ص.٥٨.

٦- **المرجع نفسه**، ص. ٦١.

٧- ليون إيدل، **القصة السيكولوجية**، ترجمة محمود السمرة (بيروت: المكتبة الأهلية - ١٩٥٩)،ج١، ص ص. ١٥، ١٢١. وانظر أيضاً: محمود غنايم، تيار الوعي في الرواية العربية الحديثة، ط٢ (بيروت: دار الجيل والقاهرة دار الهلال، ١٩٩٣).ص.١٣.

٨- محمود غنايم، **المرجع المذكور**، ص. ١٤.

٩- انظر: **الرواية**، ص.٣٣، وانظر المواضع الأخرى، ص ص.٦٢، ٦٩، ٧١، ٧٨، ٨٦، ٨٧، ١٠٩، ١٥٩.

١٠- انظر: ليون إيدل، **المرجع المذكور**. ج١، ص.١٩.

١١- **المرجع نفسه**، ص.٣٠٣.

١٢- انظر: روبرت همفري، **تيار الوعي في الرواية الحديثة**، ترجمة محمد الربيعي(القاهرة: دار المعارف، د.ت)، ص ص. ٤٤، ٤٥. وراجع : محمود غنايم، المرجع المذكور، ص،ص. ١٤-١٥. وانظر: ليون إيدل، المرجع المذكور، ج١، ص ص. ١١٦-١١٧.

١٣- محمد الشنطي، المرجع المذكور، ص.١٢٠. وانظر أيضاً: طه وادي، **دراسات في نقد الرواية** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٩،

ص ٣٦٠).

١٤- شكري الماضي، **فنون النثر العربي الحديث**، ط١، (جامعة القدس المفتوحة،١٩٩٦)،ص. ٤٣.

١٥- طه وادي، **المرجع المذكور**، ص.٤٦.

١٦- **الرواية**، ص ص. ١٦٥، ١٧٦، ١٨٥، ١٩٥.

١٧- وردت هذه التقنيات في أكثر من خمسة عشر موضعاً: ص ص. ٩٣، ٩٦، ١٠٣، ١٠٦، ١٠٧، ١١٣، ١٢٦، ١٣٠، ١٣٣، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٨، ١٤٠، ١٤٢، ١٥٧، ١٦٠.

١٨- كانت محدودة، وردت في موضع واحد.ص.٩١.

١٩- يوسف الشاروني، **القصة تطوراً وتمرداً** (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩٥)،ص.١٥٠.

٢٠- **المرجع نفسه**، ص. ١٥١.

٢١- مندولا، **المرجع المذكور**، ص. ٥٢.

٢٢- **الرواية**، ص ص. ١٦٨، ١٧٦، ١٨٦، ١٩٥.

٢٣- عبد الرحيم الكردي، **الراوي والنص القصصي**، ط٢ (القاهرة: دار النشر للجامعات، ١٩٩٦)،ص.١٤١.

٢٤- **المرجع نفسه**، ص. ١٢٠.

٢٥- **المرجع نفسه**، ص.١٣٤.

٢٦- عبد الملك مرتاض، **في نظرية الرواية**، (الكويت: سلسلة عالم المعرفة، ١٩٩٨، ص.١٨٤).

٢٧- انظر: **المرجع نفسه**، ص ص. ١٨٥، ١٨٩.

٢٨- انظر : **المرجع نفسه**، ص.١٩١.

٢٩- **المرجع نفسه**، ص ١٩٢.

٣٠- عبد الرحيم الكردي، **المرجع المذكور**، ص ٨٧.

٣١- انظر: **المرجع نفسه**، ص ص. ١٠٨-١٠٩.

٣٢- **الرواية**، ص ص. ١٥٢، ١٥٤، ١٥٦، ١٥٨.

٣٣- **الروايـــة**، ص ص ١١٩، ١٧٥، ١٨٨.

٣٤- خيري دومة، **تداخل الأنـــواع في القصـــة المصريـــة القصـــيرة ١٩٦٠-١٩٩٠** (القاهرة: الهيئة المصريـــة العامـــة للكتـــاب ، ١٩٩٨) ص. ٢٦ ومـــا بعدهـــا. وانظر: آيان رايد، **القصة القصـــيرة**، ترجمـــة مـــنى مؤنـــس (القـــاهرة: الهيئـــة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠) ص. ٧٩ ومـــا بعدهـــا.

٣٥- تزيفتان تودورف،"أصل الأجناس الأدبية" ، **مجلـــة الثقافـــة الأجنبيـــة** (بغـــداد، ربيع ١٩٨٢). والنص المنقول من مقدمـــة المقـــال للمـــترجم الدكتـــور محمـــد برادة، وهو متأثر في ذلك برأي صـــاحب المقـــال الـــذي يذهـــب إلى ضـــرورة وجود النوع حتى يتم تجاوزه وانتهاكه. وهذا الرأي يتفـــق ومـــا يذهـــب إليـــه فولر في كتابه الضخم " أنـــواع الأدب".

Alastair Fowler, *Kinds of Literature: An Introduction to the Theory of Geners and Modes* (Oxford University Press, 1982) p. 278.

٣٦- خيري دومة، **المرجع المذكور**، ص. ٣٣.

٣٧- راجع: برناردي فوتو، **عالم القصة**، ترجمة محمـــد مصطفـــى هـــدارة (القـــاهرة: عالم الكتب، ١٩٦٩)، ص. ٣٨. وانظر أيضاً: جابر عصفـــور، زمـــن الروايـــة (القاهرة: القاهرة: الهيئة المصرية العامـــة للكتـــاب، ١٩٩٩) ص. ٢٣١.

٣٨- جابر عصفور، المرجع المذكـــور، ص. ٢٣٤.

٣٩- محمد الباردي، " **السيرة الذاتية في الأدب العـــربي الحديـــث**، حـــدود الجنـــس وإشكالاته، مجلة فصول (الهيئة المصرية العامـــة للكتـــاب، شـــتاء ١٩٩٧)، ص. ٧٤.

٤٠- أحمد درويش، "تداخلات النصوص والاسترســـال الروائـــي: تقاطعـــات روايـــة السيرة الذاتية ورواية الاغتراب"، **مجلـــة فصـــول** (ربيـــع ١٩٩٨)، ص. ٣٥.

٤١- محمد يوسف نجم، **فن القصة**(بـــيروت: دار الثقافـــة، د.ت)،ص.١١٦.

٤٢- طه وادي، **المرجع المذكـــور**، ص. ٤٢.

٤٣- عبد الملك مرتاض، **المرجـــع المذكـــور**، ص. ١٢٦.

٤٤- **المرجع نفســـه**، ص.١١٥.

٤٥- **الروايـــــة**، ص ص. ٢٤،٣٤،٥٩،٨٦، ٩٦، ١٣٦، ١٣٧، ١٩٣.

٤٦- ليون إيدل، المرجع المذكـــور، ج٢، ص٢٧٥.

٤٧- المرجع نفســه، ص.٢٨٠.

٤٨- انظـــر تفصيـــل ذلـــك في : طـــه وادي، **المرجـــع المذكـــور**، ص.٤٢، جـــابر عصفور، **نظريات معـــاصرة**، (القـــاهرة : الهيئـــة المصريـــة العامـــة للكتـــاب، ١٩٩٨). ص.٢٥٠، خيري دومة، المرجع المذكـــور، ص. ١٥٩ ومـــا بعدهـــا.

٤٩- أ. أ. مندولا، **المرجع المذكـــور**، ص. ٦٥.

٥٠- **المرجع نفســـه**، ص.٦٥.

٥١- فاروق شوشة، " لقاء مع نجيـــب محفـــوظ"، **الآداب** (حزيـــران ١٩٦٠).

٥٢- عبد الملك مرتاض، **المرجـــع المذكـــور**، ص ص ٨٧-٩٣.

٥٣- راجع في مفهوم الشخصية النامية: محمد يوســـف نجـــم، **المرجـــع المذكـــور**، ص ٨٦.

٥٤- عبدالله رضوان، **النموذج وقضايا أخرى** (عمان: منشـــورات رابطـــة الكتـــاب الأردنيـــين، ١٩٨٣)، ص٤٧.

٥٥- محمد يوسف نجم، **المرجـــع المذكـــور**، ص. ٩٨.

٥٦- انظر: فريال سماحة، **رســـم الشـــخصية في روايـــات حنـــا مينـــة** (بـــيروت: المؤسسة العربية للدراســـات والنشـــر، ١٩٩٩)ص. ٣٤.

٥٧- **المرجع نفسه**، ص. ٣٤ وما بعدهـــا.

٥٨- محمد يوسف نجم، **المرجـــع المذكـــور**، ص.٩٩.

٥٩- راجع أ.أ. مندولا، **المرجع المذكور**، ص. ٢٢٧ ومـــا بعدهـــا.

٦٠- انظر: محمد يوسف نجم، **المرجع المذكور**، ص.٩٨. وراجـــع: فريـــال سماحـــة، **المرجع المذكـــور**، ص. ٤٨.

٦١- زكريا إبراهيم، **فلســـفة الفـــن في الفكـــر المعـــاصر**، (القـــاهرة: دار مصـــر للطباعـــة، د.ت)، ص. ٢٢٥.

٦٢- محمـــود الربيعـــي، **قـــراءة الروايـــة** (القـــاهرة: مكتبـــة دار الزهـــراء، ١٩٨٥)،ص.١٣٠.

الرؤية الفنيّة في أعمال غسان كنفاني الروائية

د. حسـن عليـان

كليـة الآداب - جامعـة فيلادلفيـا

ملخص

يهدف هذا البحث إلى كشف رؤية غسان كنفاني الفنية في أعماله الروائية، وبيان أوجه هذه الرؤية وأبعادها النفسية بالنسبة لشخصياته الروائية.

وقد توصل البحث إلى أن علاقة الشخصية الروائية بالأرض ليست طارئة أو نسبية ، بل هي امتداد و ارتباط و التحام ، و أن الإنسان أصبح قضية بمواقفه ورؤاه. وكذلك الوطن فهو يعني الحياة و المصير . و لذا أصبح رمزاً في إطار علاقة الإنسان به.

و توصل البحث إلى تطور المفاهيم، و القيم سواء بالنسبة لإنسان المنفى، أم المعتقل في الأرض المحتلة.

An Artistic Vision in Ghassan Kanafani's Novels

Hassan Alian
Faculty of Arts
Philadelphia University

Abstract

This research aims at revealing the artistic vision of Ghassan Kanafani's novel-works, aspects of this vision and its dimensions that relae to his characters.

The research concludes that relation between the character and land is not casual or temporary, rather it is the state of kinship and fast attachment. It also concludes that man, in his different dimension, attitudes and vision has become an issue Which, beside home-land that symbolizes his life and destiny, has become an emblem because of the attachment between them. The research refers too, to the development of concepts and values of that Man whether in exile or detention – the occupied land.

مدخل

تفتحت عينا غسان كنفاني في فلسطين على الاحتلال البريطاني، وهو يعمل بكل طاقاته على تهويد فلسطين، وإقامة دولة عنصرية ودينية، مسوقاً باستراتيجية واضحة تقوم على شرذمة العالم العربي، وتمزيق كيانه وبعثرته في كانتونات صغيرة واهية، للحيلولة دون وحدته مستقبلاً، وحتى يظلّ الغرب مسيطراً على مقدرات الأمة، ومتحكماً في منافذ أفريقيا وآسيا العربية، تسانده في ذلك القوى الغربية، وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية. ولعل خوف الغرب، وقلقه من النفوذ الصهيوني في أوروبا والولايات المتحدة، هو الذي دفع الغرب إلى خلق هذه الدولة، للملمة شتات اليهود، تخلّصاً من نفوذهم.

لقد وعى غسان كنفاني روح الصراع العربي الإسرائيلي، والمخططات الاستعمارية في المنطقة، ووعى أبعاد الوجود الصهيوني في فلسطين، وماذا تعني الدولة العبرية، وماذا تريد من المنطقة العربية تكتيكاً واستراتيجية.

فهي من وجهة نظره تقف في وجه الفعل التاريخي، وتحاول ان تغيّر مساره الفكري، وحركته الطبيعية الدائبة نحو المستقبل. ووعى غسان نتائج الحركة الصهيونية بعد أن أقيم لها دولة عنصرية ودينية على الوجود الفلسطيني والعربي والدولي، فعلى الصعيد الفلسطيني عايش غسان حياة الفقر والبؤس، وسقف الفلسطيني الواطئ في مخيمات اللجوء والذل والجوع، وصدر عنها في أعماله الروائية: (رجال في الشمس، وما تبقى لكم، وعائد إلى حيفا، وأم سعد) بوعي لمراحل هذا الصراع، فكانت روايته الأولى (رجال في الشمس) صورة لحياة الفلسطيني ببعديها الزماني والمكاني بعد هزيمة عام ١٩٤٨م. كان غسان حاضر البديهة، واعياً مأساة الفلسطيني، برؤية متطورة، فجاءت أعماله الروائية دالّة على التفرّد والأصالة، وعلى "مدى التلازم بين الفن وقضية الإنسان، ومدى استعداد الفنان لأن يجعل فنّه في خدمة الشعب، وقدرته على

الاحتفاظ بالتوازن الضروري بين الإثـــارة الفنيــة المتجــددة، والحاجــة الشــعبية المتطورة".(١)

كان غسان متوحداً بفلسطين، ولم يخرج يوماً عن التفكير في قضيتها، فـــهي هاجسه الأبدي ، ويحسّ دائماً أنه في لحظة الشروق، ولم يكن ليقبل تهاون أصحابــه في الدفاع عنها، أو الانسحاب من سلكها، وكان يثور إذا أحسّ شيئاً من ذلـــك، فقــد كتب لصديقه فضل النقيب في واشنطن يردّ على رسالة أحسّ فيها فتوره في الحمـــاس للوطن، يقول فيها: "تريد ان تنسحب؟ لماذا؟ لأنك بعيد؟ إذا كان فضل يبعــد عــن القضية ألف ميل، فنصف شعبه يبعد عنها ألف سنة. المسافة لا قيمة لها لمن يعيــش في لحظة الشروق. تريد أن تنسحب؟ لا بأس، ولكن صدّقني يا فضــــل أن الانســحاب أصعب بكثير من التحدّي، لقد حكم علينا بالا ننسحب.(٢)

ووفق هذه الرؤية وهذا الالتزام أحالتنا رؤيته الواعية في أعماله إلى المفـــردات التي رغب غسان في أن يحيلها إلينا. لنتعرف إليها بقوة، حتى تخلق فينا الباعث القـــوي على التأمل، والتفكير، والتململ، والحركة، والفعل. وتمثلـــت المفـــردات في علاقـــة الشخصية الروائية بالأرض، وأن الإنسان والوطن قضية.

أولاً: علاقة الشخصية الروائية بالأرض

تفاوتت علاقات الشخصيات الروائية في أعمال غسان كنفـــاني بـــالأرض، وتقاطعت، وتشابكت، فجاءت صورها منـــزاحة، ومتقطعة، ومتقاطعة، ومتصلـة، ولم تكن العلاقة المنـــزاحة في رواية (رجال في الشمس) اختيارية، بـــل مفروضـــة بقـــوة الاحتلال لأجزاء كبيرة من فلسطين عام ١٩٤٨، مما أجبر الشخصيات على البحـــث عن الخلاص الفردي، وهو الأمن النفسي والغذائي والاستقرار، بدلاً من البحث عـــن

الهوية والانتماء، والخلاص الجماعي. وعلى الرغم من ذلك ظلّت العلاقة النفسية بالوطن قويّة التشكل بأمشاجها في رحم التكوين النفسي، والوجداني، والفكري.

ولم تكن شخصيات رواية (رجال في الشمس) على نفس الحدّة والدرجة والنوع من الاتصال بالأرض/ الوطن، فمروان ابن الستة عشر ربيعاً لم نر له جذوراً نفسية، وفكرية، وصلات مادية بالأرض الفلسطينية، فظروفه الأسرية والمعيشية كانت كافية لإشغال نفسه وفكره في البحث عن الأمن الغذائي. أما الشاب أسعد فكانت صلته بالوطن أكثر وضوحاً عبر قنوات الانتماء إلى حزب محظور، ظنّاً منه، -كغيره من أبناء جيله- أنّ الأحزاب هي أقرب مسافة بين نقطتين في طريق العودة إلى فلسطين. وقد اختلفت صلة أبي قيس العجوز/ بالوطن عن سابقيه، فصلاته النفسية قوية وحادّة، تشكّلت لحماً ودماً وكياناً، ولكنها لم تترجم إلى عمل قبل الاحتلال، وبعده، ليكون الاتصال بالوطن أكثر فاعلية، فأبو قيس بظروفه الاقتصادية والنفسية، بالإضافة إلى ضغوط أخرى، أجبر على التوجه إلى الكويت، لعله يعلم ابنه، ويشتري عشر شجرات من الزيتون، ويبني غرفتين هي مساحة أحلامه.

ويدلّ توجه هذه الشخصيات شرقاً في طريقها إلى الكويت على انسلاخها المادي عن الوطن، ولكن هذا الانسلاخ لم يحل دون وجود صلات نفسية قويّة، تعززها ذكريات المواقف والأحداث، وهي تترى على مخيلة أبي قيس، وفكره، وأحلامه.

وقد برزت هذه الصلات بأسلوب الأصوات المتعددة في الرواية، وبها نلج إلى عقل إحدى الشخصيات، أو عقول عدّة شخصيات لنتعرّف بوساطتها إلى كل أطياف الماضي، لنعيشه كائناً حياً بأبعاده، ورؤاه، ومواقفه، وآلامه، وآماله، وطموحاته، وليبني لنا معمار عالم الشخصيات، والأحداث، والأزمنة، والأمكنة.

لقد خرج غسّان على الأساليب التقليدية في بناء الرواية، واعتمد التجريب لغة بطرق متعددة، أهمها تيار الوعي المتدفق عبر تداعيات الأفكار والمعاني، والحوار الداخلي، والفلاش باك، والاستدعاء التاريخي والحدثي، حتى نقف على ما يعتمل في عالم هذه الشخصيات، وما يجول في ذهنها، وفكرها، ونفسياتها من رؤى وأفكار، وعواطف، ومواقف، ومواطن لذة وألم، وفرح وحزن.(٣)

ويحيل الواقع الراهن -شط العرب- فكر أبي قيس إلى الماضي، ويشدّه إليه بعواطفه وأحلامه، وهو يلقي بصدره على أرض شطّ العرب. فأحسّ رطوبة الأرض، تتغلغل إلى صدره، وضرباتها تخفق من تحته. وقد نقله هذا الوجيب إلى أرض الوطن، ووضعه في دائرة التصوّر، والتخيّل، والتذكّر، كأنما قلب الأرض ما زال -منذ أن استلقى هناك أولّ مرّة- يخفق، ويشقّ طريقاً قاسياً إلى النور، قادماً من أعمق أعماق الجحيم. وبدت هذه الصورة دالّة على استعادة أبي قيس، بأسلوب التداعيات، والمقابلة، والترجيع السينمائي، الماضي بكل أبعاده، وهو يضع أمامنا عواطفه الحميمة المترابطة بالتراب والوطن، ويبسطه بأمشاجه، وعلاقاته، ومكوناته حيّاً قائماً، يتحرك، ويعمل، ويفكر. ويعكس استدعاء الحوار بين أبي قيس وجاره صورة العلاقة الحميمة والأبدية بالأرض، فهي المعادل الموضوعي للزوج، وكلاهما رمز الخصب، والنماء، والإنجاب، والديمومة. وتتجلّى هذه الصورة في ردّ أبي قيس على جاره في الأرض، بلغة تنمّ عن مدى حبّ الأرض، والارتباط بها، عندما استنكر هذا الجار أن يكون ما سمعه هو وجيب قلب الأرض، يقول أبو قيس بأسلوب الترجيع السينمائي: "أيّ هراء خبيث، والرائحة إذن؟ تلك إذا تنشقّها ماجت في جبينه، ثم انهالت مهوّمة في عروقه" (الآثار الكاملة الروايات، ص٣٧).

ولا شك أن الواقع الراهن العاقر/صحراء الكويت/ كان المثير والمنبه لأبي قيس،فكل ما حوله بانوراما التيه، والضياع، والضباب الذي لا لون له، والمنبّه لغسّان

في آن معاً، حيث لم تخرج صورة الكويت لدى غسان عن الضباب الأسود، و الأغربة التي تحلّق في كبد السماء، يقول غسان في مذكراته: "إنّ الضباب الأسود غير موجود في الطبيعة، ولكن من ذا الذي يؤكد أنه ليس أبعث على الراحة من الضباب الطبيعي الذي لا لون له"(٤)

ويشير تعلق أبي قيس بالماضي، إلى مكانة هذا الماضي في روحه، وفكره، ووجدانه، فهو يعيشه نبضاً وحلماً، وذكرى، وتتداخل لديه عروق الماضي وحيواته إلى درجة إلغاء صورة الواقع. وقد جاءت رحلة وعي الماضي بفعل تيار الوعي، عبر تداعيات الأفكار والمعاني، وتوارد الخواطر، والتقابل بين صورتين للأرض. وتجدر الإشارة إلى أن تيار الوعي ارتبط عند غسان بالوعي المباشر في الزمن الحاضر جرّاء علاقات الشخصية الروائية القائمة بالأرض والإنسان، فابتعد عن الثرثرة الروائية إلى الرواية التجريبية، أو الرواية الجديدة ذات زاوية الرؤية، أو ما يسمى بأدب البعد الجديد.(٥)

لقد أحالت الأرض الجديدة -شط العرب- بواقعها، ومعطياتها الصعبة، والقاسية أبا قيس إلى الانتقال إلى أرض الوطن -فلسطين- ليحيا مع مفردات ماضيه الحيّة، هرباً من واقعه المجهض، وخوفاً من المجهول الذي ينتظره، وحتى يجد إنسانيته المفقودة، وكرامته الضائعة، ومستقبله المجهول، فالأرض الجديدة لا توفر له الحماية، ولا الطمأنينة، ولا الحياة الحرّة الكريمة، فهي عاقر، لا تمطر إلا قيظاً وغباراً . وظلت هذه الصورة التي ترسخت في ذهن غسان ملازمة له في أثناء إقامة بنية رواية (رجال في الشمس)، يقول غسان في يومياته: "و ها أنا أكتب من جديد يوميات كريهة، تنتهي بموت كريه، مستشعراً كم أنا مجبر على أن اكتب، كما أنا مجبر على أن أعيش، كما أنا مجبر على أن أموت".(٦)

وجاءت هذه الإحالة أو الاستدعاء بأسلوب تيار الوعي الغني بالرموز، والدلالات، والموحيات، والصور المجازية، انتقل بها من الواقع الراهن إلى الماضي، بكل تداعياته، وذكرياته، وأحداثه، وبالتواقت بين صورة الواقع وصورة الماضي. وأدى ذلك إلى التداخل في الصور والمرئيات، وكذلك التقابل بين صورتين متناقضتين. وتبدو الرموز الحيّة، والصور المجازية في الصور المتقابلة والمتناقضة في الرواية، إن لم نقل في جميع أعمال غسان كنفاني الروائية. ويتضح الرمز في تصوير صحراء الخليج بالمرأة العاقر، بما توحيه هذه الصورة من دلالات، وأبعاد، وآثار على الإنسان، وبخاصة الوافد إليها، وفي تصوير الأرض الفلسطينية حيّة، وهي تنبض بالحياة والعطاء والخير.

لقد استدعت صورة الواقع الراهن بالضرورة، صور الماضي المتحركة، والثابتة، مقترنة بشحنات عاطفية ونفسية، فجاءت الصورة واقعية حيّة بألوانها وظلالها، ونسبها، وأبعادها في فكر أبي قيس، وعاطفته، ووجوده، وكأنه يتأسى بها على واقعه المجهض، وهو يستدعي الماضي بكل صوره. ولم يأت هذا التقابل عفوياً، أو مفروضاً على فكر الشخصية، وعاطفته، وأحاسيسه، بل جاء توافقياً، استحضر به واقع الشخصية الممضّ، ويتجسد لنا ذلك في حوار أبي قيس الداخلي، وهو يطرح فرضية، ولكنه سرعان ما ينقضها، وينفيها بقوة وهو يرى الواقع المؤئس، يقول لنفسه: "الأرض النديّة -فكرّ- هي لا شك بقايا من مطر أمس، كلا. أمس لم تمطر، لا يمكن أن تمطر السماء الآن إلا قيظاً وغباراً! أنسيت أين أنت؟ أنسيت؟" (الآثار الكاملة/ الروايات، ص٣٨)

ويحيل الواقع بقساوته شخصية القصة/ أبا قيس، إلى البحث عن الماضي، لعلّه يجد ما يسرّي عنه معضلات الواقع ومرارته. ولذا كان الواقع الراهن أداته للدخول في عالم الشخصية الداخلي، وهي تبحث عن صور الماضي المتراكمة في مخزون الذاكرة. وأسعفه في ذلك قانون تداعي الأفكار والمعاني، وهو يستحضّر بعض مشكلاّت هذا

الماضي، فالصحراء الكويتية، وشط العرب، والطرق السوداء، تنساب كأنها الأبد الأسود، والطير الذي يحوم وحيداً في نقطة سوداء لا في ذلك الوهج الأسود المترامي فوقه، والرطوبة تنقله إلى رحلة الحياة في أرض الوطن، وهو يسأل نفسه: "إذن لماذا هذه الرطوبة في الأرض؟ إنه الشط. ألست تراه يترامى على مدّ البصر إلى جانبك؟".
(الآثار الكاملة/ الروايات، ص٣٨)

وتنثال صورة الأستاذ سليم في مخيلته، وتتسع دائرتها ليعيش الماضي واقعاً حيّاً، ويمتلك أبو قيس لحظة وعيه الصورة وهو يستحضر بداية وعيه شط العرب، لقد كان وعياً مثالياً مجرداً في مخيلته، يخضع لكثير من التصورات والتشكلات قبلاً، ولكنه يعيشه الآن واقعاً مراً ومُرعباً بفكره الواعي، وبوجوده على ترابه، وبمساحات القلق والتوتر، و الإحباطات المتتالية. وتتسع الدائرة لتشمل مفردات تتعلق بالأستاذ سليم، وهو يدرس التلاميذ جغرافية نهري دجلة والفرات، ونقطة التقاء النهرين وهما يشكلان شط العرب، وتتعلق بموقفه من الدين والوطن، فالأستاذ سليم لا يعرف الصلاة، ولكنه يحسن استخدام السلاح.

كما تتعلق بتداخل المواقف و تخارجها وتماسها بتراب الوطن، فالأستاذ سليم، وأبو قيس يعشقان الوطن، ولكن العشق يختلف باختلاف وعي كل منهما معنى الوطن ومفهومه، ويختلف بشكل الارتباط به، وجاء التداخل، والتخارج، والتماس بالوطن بأسلوب الاستدعاء التاريخي لأحداث الواقع، وتشابكها، وتماسها بصورة أو بأخرى، ففي الوقت الذي كانت فيه حركة أبي قيس تجاه الوطن غير واضحة الملامح، في الوقت نفسه رسمت أقوال الأستاذ سليم، وأفعاله صورة التلاحم الإيجابي بالوطن، وكشفت صلات الرحم الحميمة بينهما، وتمثلت في تدفق الماضي بقوة على فكر أبي قيس، وهو يرسم علاقة الأستاذ سليم بالوطن، عكسها تيار الوعي المتدفق بمادة الماضي، وأحداثه، وتشابكاته. وبرز هذا الوعي في استدعاء صورة الحوار بين الأستاذ

سليم ومختار القرية ليلة احتلال القرية، حيث سأله أحدهم: ".... وسوف تؤم الناس يوم الجمعة، أليس كذلك؟ وأجابه الأستاذ ببساطة: كلا. إنني أستاذ ولست إماماً. قال له المختار: وما الفرق؟ لقد كان أستاذنا إماماً.

- كان أستاذ كتّاب. أنا أستاذ مدرسة.

وعاد المختار يلّح: وما الفرق؟ ....

- طيّب، أنا لا أعرف كيف أصلي

- لا تعرف؟

زأر الجميع. فأكدّ الأستاذ سليم مجدداً: لا أعرف. تبادل الجلوس نظرات الاستغراب، ثم ثبّتوا أبصارهم في وجه المختار الذي شعر بأنّ عليه أن يقول شيئاً، فاندفع دون أن يفكر: وماذا تعرف إذن؟

- أشياء كثيرة: إنني أجيد إطلاق الرصاص مثلاً ...إذا هاجموكم أيقظوني، قد أكون ذا نفع". (الآثار الكاملة/ الروايات، ص ٤١-٤٢)

وتتداعى صور الماضي، بعلاقاتها الحميمة بين الإنسان والأرض، بأسلوب تيار الوعي الذي جاء نامياً، وخصيبا، وقوياً، وهو يبسط أمامنا علاقة الشخصية الروائية بالأرض، وفاعلية هذه الصورة على صعيد التصور، وليس على صعيد الحركة والفعل الإيجابي.

ويسجل تيار الوعي صورة المعادل الموضوعي لعلاقة شخصية الرواية بالأرض، كشف به عن رؤية هذه الشخصية، ومدى تماسّها بمساحة وعيه وفكره وقلبه، ويبدو المعادل الموضوعي في صورة المرأة، الوجه الأخر للخصب، والنماء، والديمومة. ويمكننا هذا التصور من وعي علاقة أبي قيس بالأرض، وكنهها المادي، والروحي، وهي تعكس العشق الروحي والأبدي بفعل الحوار النفسي الداخلي لأبي قيس، والتقابل الموضوعي بين هاتين الصورتين "فكلما تنفس رائحة الأرض، وهو مستلقٍ فوقها خيّل

إليه أنه يتنسّم شعر زوجته حين تخرج من الحمام، وقد اغتسلت بالماء البارد، الرائحة إياها، رائحة امرأة اغتسلت بالماء البارد، وفرشت شعرها فوق وجهه وهو لم يزل رطباً، الخفقان ذاته، كأنك تحمل بين كفيّك الحانيتين عصفوراً صغيراً" (الآثار الكاملة/ الروايات، ص٣٧)

ويفجر التقابل بين صورتين متناقضتين في ذهن أبي قيس السؤال الصعب، وقد جاء السؤال افتراضياً وعبثياً ليؤزم شخصية القصة، وليضعها في بؤرة القلق، والتوتر، والمجهول، ويبدو ذلك في تشابك الصور المتداخلة و المتخارجة في عقل أبي قيس بفعل احباطاته المتتالية، و واقعه المدمى. ويبرز ذلك حديثه الداخلي بلغة شعرية موحية ومكثفة وطيّعة، حيث تحولت في يد غسان إلى لوحة فنيّة ذات ألوان وظلال ونسب وأبعاد، وجاء تيار الوعي بقوله: "يا رحمة الله عليك يا أستاذ سليم! يا رحمة الله عليك، لا شك أنك ذا حظوة عند الله حين جعلك تموت قبل ليلة واحدة من سقوط القرية المسكينة في أيدي اليهود. ليلة واحدة فقط. يا الله أتوجد نعمة إلهية أكبر من هذ؟! ... يا رحمة الله عليك يا أستاذ سليم ... ترى لو عشت، لو أغرقك الفقر كما أغرقني، أكنت تفعل ما أفعل الآن؟ أكنت تقبل أن تحمل سنيّك كلها على كتفيك وتهرب عبر الصحراء إلى الكويت كي تجد لقمة خبز؟! (الآثار الكاملة/ الروايات، ص٣٤)

وتوضح صورة الأستاذ سليم قدرة غسان كنفاني على تقديم شخصياته بأبعادها الإنسانية، دون تسطيح، أو دون برود عاطفي، فقد واجهها -بالتداخل و التخارج والتماس مع الوطن- في حالاتها المتعددة، وبسماتها الإنسانية، وملامحها في قوة وتناسق بلغة شعرية أحال الكلمات إلى فرشاة وألوان، يتحرك بها بخفه، وحيوية، ومقدرة شديدة على الإيصال.(٧)

ويرسم الحوار الداخلي في نفس أبي قيس إنسانيته في حالات ضعفها وقوتها ترددها وإقدامها، يأسها وأملها، حزنها وفرحها، وهو يتذكر سبب توجهه إلى

الكويت، وتوقفه في المحطة الرئيسية -شط العرب- استعداداً للرحلة النهائية؛ رحلة الخيبة والموت لعلها توصله بجنّة التصور والأحلام -الكويت- بعد أن فقد الروابط بالأرض والوطن. وتبرز المشاعر المتناقضة بفعل تيار الوعي في داخل نفسية أبي قيس، وهو مستلق على أرض شط العرب، رغم أن الموت يترصده وغيره ممن اخطأوا الطريق، واخطأوا التوجه نحو الشرق، بحثا عن الأمن الغذائي والنفسي فاستبدلوا وجهتهم الحقيقية بأخرى زائفة، وتعلن نهاية الرواية موت الثلاثة اختناقاً في قلب الخزان/ الرمز/ إدانة لتوجه الشخصيات نحو الشرق بحثاً عن الخلاص الفردي، وتعرية لها، ولذا كان الفرار من المواجهة موتاً.(٨)

ولما لم يكن المناخ العربي السياسي قد نضج بعد، بفواعله الاقتصادية والعسكرية والأمنية، والنفسية، والديمقراطية، والاجتماعية، والفكرية، والثقافية، على الرغم من التحولات السياسية بعد ثورة (٢٣) يوليو عام ١٩٥٢م في مصر، وقيام الوحدة المؤقتة بين مصر وسوريا، فقد أثرّ ذلك على المناخ الفلسطيني، ولذا لم يشهد هذا المناخ تحولاً جذرياً في الرؤية والتصور. ولعل رواية (ما تبقى لكم؟) دليل قوي على ذلك، فحامد بطل الرواية، ابن السبعة عشر ربيعاً لم يستطع البقاء في غزة بعد أن طُعن في كرامته بحمل أخته سفاحاً من زكريا، و قد برزت العلاقة غير الشرعية محمولة على بُنية النص الروائي بتيار الوعي عبر أسلوب التواقت بين شخصيات الرواية: حامد، ومريم، و زكريا، والساعة، و الصحراء. وجاء تيار الوعي بصورة مركزة موحية على هيئة لوحات ولقطات متداخلة لشخصيات الرواية في فترة زمنية قصيرة، هي عمر الرواية، استغرقت رحلة حامد عبر صحراء النقب إلى الأردن، ولكنها لم تنته إلى غايتها. وكان لا بُد ان يجتاز حامد صحراء النقب ليلاً، خلاف الرجال في رواية (رجال في الشمس) فلم يستطيعوا اجتياز الصحراء، لأنها لم تمثل حاجزاً يجب اجتيازه، بل مكاناً قاتلاً أدى إلى موت الثلاثة داخل الصهريج.(٩)

ويمكن القول إن شخصيات غسان في روايتيه: رجال في الشمس، وما تبقى لكم ؟ بيّنت أن الإنسان لا يمكن أن يعيش في الحياة دون جسر، ومن ثم لا يمكن أن يكون للحياة معنى إلا بوجود رابط، وإذا فقد هذا الإنسان هذا الجسر، أصبحت حياته مهددة بالموت، إذا لم يقم علاقة جديدة مع الحياة. ولذا انفصمت عُرى الحياة بين شخصيات (رجال في الشمس) وبين الواقع القائم، وأصبح العجز، ومن ثم الموت البديل الطبيعي لحياتهم، كما يرى د. إحسان عباس.(١٠)

وقد حاول حامد أن يخرج على قانون النسبية في رواية (ما تبقى لكم؟) إلى المستوى الفكري الفلسفي، ولكنه أثبت أخيراً أنّ علاقة الإنسان بالأرض من وجهة نظره الفلسطينية، وبالنسبة له ولكل فلسطيني –علاقة ثابتة ودائمة. قوامها الحميمية والانتماء، وهو مغروس في رمال صحراء النقب. وبدت علاقة حامد بالأرض مختلفة ومغايرة لعلاقة أبي قيس برمال شط العرب، لاختلاف المناخ –العلاقات بكل أوجهها– والوعي، والحركة، والفعل. وعلى الرغم من اضطجاع كليهما على الأرض، وتماسهما المباشر بها، إلا أنّ شعورهما إزاءها يختلف تماماً. ففي الوقت الذي يحسّ فيه حامد أن الأرض ترتعش تحته كعذراء في علاقة الحب والانتماء (الآثار الكاملة/ الروايات، ص١٦٩)، في الوقت نفسه يراها أبو قيس مقلاة الجحيم.

وتشير هذه الصورة إلى النقلة النوعية في رواية (ما تبقى لكم؟)، وإلى التوجه الآخر –زمن الفعل– في حقل الوعي، والمعرفة، والتخطيط بالنسبة لغسان كنفاني، وهي ترصد تطور المناخ الفلسطيني الذي يتحرك فيه حامد الرمز أو النموذج لأبناء جيله في الستينيات من هذا القرن. وجاء تحركه إشارة ضوئية إلى ضرورة انزياح القيادات الفلسطينية التقليدية، حتى لا تتعرض لنفس مصير الرجال في (رجال في الشمس)، فحامد يمثل في الرواية الحلقة الوسطى بين نمطين من القيادة، الأولى تقليدية عاجزة، ومجردة من الوعي، والفكر، والرؤية، والثانية قيادة شابة واعية تمتلك الإرادة

والوعي، والحركة بحرية واقتدار، وثبات. كما يمثل الرابط غير المؤهل بين القيادتين، لأنه لا يمتلك رصيداً من الخبرة والوعي، رغم أنه أبرز فكرة الخلاص من كل سلبيات الواقع، ومعوقاته بضرورة مواجهة العدو الحتمية، على قاعدة أن الإنسان سيقابل مصيره يوماً بالموت، فلماذا يستقبله مستسلماً(١١). ولذا رفض حامد الخلاص، بالاستسلام للموت المجاني. لأنه أراد أن يجعل لموته معنى، ورسالة إلى العالم بأن الفلسطيني موجود، ومنذ اللحظة بدأ زمن الفعل لديه. ويوضح ذلك الحوار بين حامد والجندي الصهيوني، وإن كان حواراً من طرف واحد، فالأخر لا يفقه لغة حامد، يقول حامد له: "وهناك قضية أخرى لها قيمتها، ويجب أن تحسب حسابها: أن تقتل و أنت هنا على بعد خطوات منهم،على بعد خطوت من معسكرك، ربما، هو عمل أخطر من أن أقتل أنا، مجرد عدو اقتحم عليكم قلعتكم، وكان وحده تماماً، بلا سلاح. الأمور هنا نسبية تماماً، وهي لصالحي أيضاً، وهذا شيء غريب". (الآثار الكاملة/ الروايات، ص٢٠٩)

وتجدر الإشارة إلى أن زمن الفعل يتطلب وعياً وفكراً، ورؤية وتخطيطاً، ويحتاج إلى رجّة نفسية وفكرية وثقافية، وإلى مناخ جديد تتحرك فيه الشخصيات بفاعلية، لينداح الطوفان، ولذا عمد غسان برؤية واعية، وتخطيط مسبق، إلى وضع شخصيات رواية (عائد إلى حيفا)، على محك التجربة بعد غياب عشرين سنة عن الأرض والوطن، ولم يبقَ لها منه سوى مجموع الذكريات. ولكن العلاقة بالأرض/الوطن تطورت وهي تتخذ منحىً آخر عبر رؤية الشخصيات، وعلاقاتها النفسية، وتشكل بُعداً جديداً بعد أن ارتطمت بالمتغيرات في الرؤية والوعي والمواقف، والسلوك. لقد وضع غسان كنفاني شخصياته الروائية، سعيد. س، وفارس البلدة على طريق التنوير والتثوير، أو بالأحرى ترك لها حرية الحركة، والبحث، والكشف، والفعل في زمن النكبة الثانية، فاكتشفت أن الاتجاه نحو الشرق هو الطريق الخطأ، فالبحث عن

الهوية والوجود الإنساني لا يكون إلا بالانتماء للتراث والوطن والقضية. كما اتضح لديها أن الوطن ليس مجموع الذكريات والبيت والمقتنيات، بل هو المواجهة والتعبئة لها مادياً ومعنوياً لبناء كيان ووطن وهوية.

ولعل التقنية الجديدة للرواية، ذات الإيقاع الشعري المنساب بأسلوب تيار الوعي، وهو يبسط النفس الإنسانية في حالات قوتها وضعفها، وملامحها الإنسانية في حالاتها المتعددة والمضطربة، والمتناقضة، والانتقال بين الأزمنة، وتداخلها و تخارجها - السمة الرئيسية للرواية الجديدة- كان عملاً مهماً في تفجرّ مخزون ذاكرة سعيد س، دفعة واحدة في رواية (عائد إلى حيفا)، فقد انهالت الذاكرة في رأسه دفعة واحدة، وانضغطت العشرون سنة الماضية،/ عمر النكبة/ ومرارتها بين مكبسين جبارين حتى استحالت إلى ورقة شفافةّ نرى من خلالها مساحة الوطن مفتوحة على مصراعيها، بأبعادها، ومكوناتها التاريخية والإنسانية، والروابط، والعلاقات، والآلام، والأمال، وكل ما يتعلق بعالم الإنسان -وقد انفتح الماضي حاداً أمامه كسكين، كما يندفع البركان، فسقطت رحلة التيه والضياع دفعة واحدة، وتوحدّ التراب الفلسطيني لأول مرة، ولكن تحت حراب الاحتلال، اندفع بفعل تيار الوعي، لنرى مخبوءه النفسي والفكري وهو يرى الماضي والحاضر وعلاقاتهما المتشابكة، فتحدث عن الحرب والهزيمة، وبوابة مندلبوم، والجرارات التي هدمتها، وعن العدو الذي وصل إلى النهر والقناة ومشارف دمشق خلال ساعات، وعن وقف إطلاق النار، ونهب الجنود الأثاث، ومنع التجول، وعن قلق الفلسطينيين والعرب من نتائج الحرب، وعن الجنود الثلاثة الذي قاتلوا وحدهم يومين على تلّة تقع قرب مستشفى فيكتوريا، وهو يدخل حيفا، وحين عبر الشارع، ودخل إلى الطريق الرئيسي انهار الجدار كله، وضاعت الطريق وراء ستار من الدموع، ووجد نفسه يقول لزوجته صفية، "هذه هي حيفا يا صفيّة" (الأعمال الكاملة، الروايات، ص ٣٤٣، أنظر ص ٣٤١-٣٥٦)

لقد حملتنا تقنيات الرواية، وبخاصة تيار الوعي المكثّف الموحي عبر التداعيات -الأفكار، والمعاني، والألفاظ، والصور، والأحداث - على مشاركة سعيد، س أحاسيسه، وعواطفه، وانفعالاته، وعلى الشعور نحوه بكل أشكال المودة والتعاطف، ومعايشة ماضيه، بأبعاده وصوره ودلالاته الموحية، وكأنه ماضينا يقف أمامنا واقعاً حيّاً، وحقيقة قائمة. وكذلك على مشاركته شعوره بالغربة عن الوطن الذي قدم إليه لرؤيته، فقد أدرك سعيد.س أنّ العلاقة بينهما لم تكن في إطارها الصحيح. لأنه قدم إلى حيفا محمولاً على أجنحة العواطف، والشوق، والرغبة في رؤية ما انقطع، والوقوف على الماضي بكل خصوصيته ليتواصل معه، ويمتلكه على الصعيد العاطفي، والوجداني، دون تغيير الواقع الراهن -الاحتلال-. ويظهر ذلك الحوار بين سعيد. س ومريام اليهودية التي قطنت مترله بعد النكبة الأولى، يقول: "طبعاً نحن لم نجئ لنقول لك اخرجي من هنا، ذلك يحتاج إلى حرب ... أقصد أن وجودك هنا، في هذا البيت، بيتنا نحن، بيتنا أنا وصفيّة، هو موضوع آخر. جئنا فقط ننظر إلى الأشياء. هذه الأشياء لنا، ربما كان بوسعك أن تفهمي ذلك؟!! (الآثار الكاملة، الراويات، ص ٣٦٧-٣٦٨)

ويبدو ربط تيار الوعي بين الماضي والحاضر، والمراوحة بينهما لرسم ما يريد بهدوء ووعي فاعلين، -بعد أن انفتح على الماضي بقوة الظرف التاريخي الراهن، هزيمة حزيران عام ١٩٦٧- في وضع سعيد.س أمام مكونات الحاضر وحيثياته الدالة على عجز الأمة وإخفاقاتها المتتالية في مواجهة العدو، دفعة واحدة، يقول لزوجته: "أتعرفين؟ طوال عشرين سنة كنت أتصور أن بوابة مندلبوم ستفتح ذات يوم. ولكن أبداً أبداً لم أتصور أنها ستفتح من الناحية الأخرى. لم يكن ذلك يخطر لي على بال، ولذلك فحين فتحوها لهم، بدأ لي الأمر مرعباً وسخيفاً، وإلى حدٍ كبير مهيناً تماماً. قد أكون مجنوناً لو قلت لك أن كل الأبواب يجب أن تفتح إلا من جهة واحدة، وأنها إذا فتحت من

الجهة الأخرى فيجب أعتبارها مغلقة لا تزال. ولكن تلك هي الحقيقة" (الاعمال الآثار الكاملة/ الروايات، ص ٣٤٣)

وتجدر الإشارة إلى أنّ استدعاء الماضي بصـــوره وأحداثـــه، واســـتحضاره، وتجسيده واقعاً حيّا؟ بصوره، ومرئياته، ومخزونه الإنساني، والاجتمـــاعي، والنفســـي، وموجوداته ومعطياته، لم يكن وليد الصدفة، أو بفعل طفرة، ولكنه الواقع الراهـــن - واقع الهزيمة المرعب، بكل ارتطاماته التي فجرّت وعي الشخصية، مـــن خـــلال تيـــار الوعي، عبر قانون تداعي الأفكار، والاستدعاء التاريخي والحدثي، فانبثق الماضي كلـــه من بين الحطام والنسيان والأسى، ونهض من بين ركام الهزيمة ليؤدي دوره في بناء عـالم الشخصية الداخلي، وفي وضع معاناتها أمامنا حيّة، فسعيد. س يتخيل زوجته صفيـــة تبكي ولدها خلدون الذي تركته مجبرة وهو رضيع، تحت حراب الانجليز، والاحتـــلال الصهيوني عشرين عاماً هي عمر النكبة. (الآثار الكاملة/ الروايات، ص٣٤٥-٣٥٦)

لقد استدعى الحاضر شوارع حيفا، والمترل/ الماضي، لينتصب خلدون عملاقـاً لا يصدّق في أحشائها، ورأسها، وقلبها، وذاكرتها، وتصوراتها، ولتتداخـــل أمشـــاج الماضي في رحم الحاضر، رغم انهما اتفقا على أن خلدون قدمات، فكيف يمكن للأمور أن تندفع من الباب الخلفي على هذه الصورة الفريدة. ولكن هذا الماضي لا يعيد حقـــاً مسلوباً، ولا وطناً ضائعاً، ولا أبناً مفقوداً، فتحوّل البطل الروائي، سعيد. س من حقـل الاتصال بالماضي الذي وجده جدباً لا خير فيه ولا حياة، إلى حقل المستقبل الواعـــد، حقل العمل في زمن الفعل. ليستعيد الماضي، وليبني واقعاً خصيباً، ومســـتقبلاً واعـــداً ومستقراً، يمنحه الانتماء والهوية والوجود. ولن يتحقق ذلك إلا بزمن الفعل. لكن هـــذا الزمن بحاجة إلى خطوات تمهيدية، تمهّد له الأرض، وتذلل له الصعب، وتضعـــه علـــى طريق الحرية والعمل، وتحقيق الماهية والوجود.

ويجسد غسان كنفاني معنى الحياة، المخرج من دوامه الموت، والآلام الداخلية المكبوتة، والمعاناة الإنسانية له، ولمن يماثله في الشتات والمنفى والمعتقل بقوله: "في الحقيقة إن المخرج الوحيد من هذه الدوامة الموحلة، هو أن يؤمن الفرد بأن العطاء هو المقبول فقط لدى إنسان الحضارة، وأنّ الأخذ عمل غير مرغوب فيه. أن يعيش الإنسان باذلاً نفسه هو المقابل، ولا مقابل سواه. إنني أحاول الآن أن أصل إلى هذا الإيمان بطريقة من الطرق، أو أنّ الحياة تصبح -بلا هذا الإيمان- شيئاً لا يحتمل على الإطلاق".(١٢)

ويشير هذا القول إلى أن هول الصدمة، والانفتاح على الماضي بكل مغرياته ومقوماته، حقائق يجب مواجهتها، والاستفادة منها، وتجاوزها للعمل على طريق تحقيق المستقبل المضوئ اللأمة.(١٣)

وفي ضوء هذه الرؤية خرج سعيد. س وفارس اللبدة من دوامة الذهول إلى ساحة العمل، وإن اختلفت صوره. فسعيد. س اقتنع في النهاية أن السلاح هو اللغة الوحيدة التي يفهمهما العدو، لاسترداد الأرض والهوية، وشعب المعتقل، ولذا تمنى أن يكون ولده خالد قد التحق بالعمل الفدائي قبل عودته، في حين اختصر فارس اللبدة الطريق، ودروب المعاناة عندما التحق بالثورة. وتتجه هذه العلاقة بالوطن إلى مرحلة أكثر تطوراً وهي أن الإنسان والوطن قضية.

ثانياً: الإنسان والوطن قضية:

كان غسان كنفاني على معرفة واسعة بمراحل تطور قضيته التاريخية، شأنه في ذلك شأن كبار كتاب المسرحية والرواية التاريخية، أمثال كورني، وراسين، وشكسبير، والفرد دي موسيه، ونجيب محفوظ وغيرهم كثير، وإن خرج غسان من معطف هذه الرواية، فهو لم يكتب رواية تاريخية بالمعنى المفهوم للرواية التاريخية، ولكنه أحال الواقع

الموضوعي لشعبه، إنسانياً واجتماعياً، وسياسياً، وثقافياً، وفكرياً، وأخلاقياً، وجسد هذا الواقع بفنيّة رائعة في أعماله، وهو يرسم معاناة شخصياته، وحركتهم، وتوجهاتهم نحو القضية والالتحام بها. ويشير التطور في الوعي إلى إدراك غسان كأديب: "أنه من المستحيل ان يكفّ عن كونه فرداً في هذا القرن العشرين، حين يحاول الحكم على الماضي، ويتعامل معه، وأنّ للماضي، ووقائعه البعيدة والقريبة وظيفة أساسية داخل العمل الأدبي، وهي تعميق معرفتنا بالحاضر، وتحصين دفاعات الوعي البشري من تكرار هجوم الأخطاء نفسها في المستقبل" (١٤)

ويتدرج غسان في أعماله الروائية بوعي متعمد نحو واقعيه صلبة "محدودة الحواف، جاسيّة المظهر، مشمولة بمزيد من البساطة، ومزيد من الوضوح"(١٥)، ليقترب من الهدف الذي أراده من القصة، وهو أن تكون وفق رؤيته "واقعية مائة بالمائة، وبنفس الوعي تعطي شعوراً هو غير موجود".(١٦)

ولا يعني هذا التدرج أنّ غسان كان وثائقياً في فنّه، بل كان يعيد ترتيب العناصر التاريخية ويكثفّها ويوجهها، ويستغلّ فيها الصور والمقارنات والمفارقات لتأتي في ثوب جديد، وكأنه يقول لنا هذه بضاعتكم رُدّت إليكم. ويبرز هذا التدرج الواعي في مسيرة شخصيات غسان، الرموز المتحركة، فشخصيات رواية (رجال في الشمس)/الرمز لمسيرة مرحلة تاريخية، تبدو مخفقة وهي تغادر شرقاً -الطريق الخاطئ- فأبو قيس بدا سلبي الرؤية والموقف والانتماء، وأسعد الشاب الذي رأى أن الفردية لا تعيد وطناً، ولا تبنى هوية، انتسب إلى حزب ظنّاً منه أن طريق الخلاص لا تتوفر إلا بالانتماء لتيار سياسي أو حزب، كغيره من أبناء جيله، ممن لهم رؤية أكثر وعياً، وأكثر تقدمية في حقبة الخمسينات من القرن العشرين، وأبو الخيزران العنين، الذي انفجر فيه لغم أفقده رجولته، فهو رمز القيادة الفلسطينية العنينّة قبل الاحتلال وفي أثنائه، ورغم ذلك تصّر هذه القيادة على تزعم مسيرة الإنسان الفلسطيني، ولكن باتجاه الموت.

وتجدر الإشارة إلى أنّ غسان انتقى لحركة شخصياته باتجاه ساحة الموت عنوة إطارين هما: الإطار الزماني، والإطار المكاني، الملائمان تماماً لمسيرة الفلسطيني بعد نكبة عام ١٩٤٨، في ظل ظروف منتقاة: أمنية، واجتماعية، واقتصادية، بدءاً بالسماسرة، وأبي الخيزران والصهريج، ومروراً بالصحراء، اللاحبة، اللاهبة -السراط المستقيم-، وانتهاءً برجال الجمارك رمز القيادات العربية.

ويتبادر سؤال: ما الذي أراده غسان من رحلة الموت في (رجال في الشمس)؟ لقد أراد ببساطة شديدة ومتناهية تغيير حركة الفلسطيني، وتعديل مساره، بدل التوجه شرقاً، إلى الحركة الفاعلة غرباً، لإثبات الوجود، وتحقيق الأمن، والهوية. كما أراد تغيير نوعية القيادة الفلسطينية الممثلة في أبي الخيزران/الرمز، بقيادة شابة جديدة واعدة، غير عنينة، وواعية لحركة التاريخ في علاقاته المحلية والدولية. ولذا اختار حامد في رواية (ما تبقى لكم؟) ابن السبعة عشر ربيعاً، فهل نجح حامد في أن يقود حركة الشعب نحو الغرب؟ وهل امتلك صفات القيادة الناجحة؟

ويمكن القول إن حامدا بمبتناه الفكري والثقافي المحدود، وبوعيه لفواعل القضية كان مرحلة انتقالية بين مرحلتين، إحداهما عاجزة، و الأخرى فاعلة، و كان مؤشراً لضرورة التحول نحو زمن حتمية الفعل -مواجهة العدو و الالتحام به- لتحقيق فكرة الخلاص بكل أبعاده، و دلالاته، و كأنه يقول: أيها الفلسطينيون احذروا الموت الطبيعي و المجاني(١٧). و كان التحامه بالعدو في صحراء النقب دون وعي أو تخطيط مسبق من كليهما، ولكنه كان تبريراً واعياً ومتعمداً من رؤية غسان لضرورة تطور الحركة التاريخية عندما انتهت الرحلة في الصحراء، وأعلنت بذلك نهاية مرحلة، وولادة مرحلة أخرى جديدة، وبدا في ظل هذا الإطار أن الزمن الخارجي الحقيقي لا يشغل حيزاً في فكر حامد؛ لأن اللحظة الراهنة هي لحظة إثبات الذات بكل ما تعنيه من

وجود، وهي زمن البحث عن الهوية المفقودة، بالمواجهة والالتحام المباشر بالعدو، وبعبارة أخرى بداية زمن الفعل.

وتجدر الإشارة إلى أن حركة الشخصيات في المكان والزمن في روايتي: رجال في الشمس، وما تبقى لكم؟ كانت محسوبة، ومنضبطة، وموقّعة، وعلى درجة كبيرة من الانتقائية والتناقض في موقفهما من الإنسان، وبخاصة المكان، ففي رواية (رجال في الشمس) خلا المكان من أسباب الحياة وفواعلها الإيجابية، فهو منطقة نفوذ لتجار المخدرات والمهربين، وتجار السلع الآدمية، والمجرمين، وقطاع الطرق. وبعبارة أخرى عاقر ومدمر لبنية العلاقات الاجتماعية، والأخلاقية، والإنسانية، ولا يُنبيء بحياة، ولا يمنح الإنسان فواعل الحركة، والتوجه بإرادة ووعي. لقد كان المناخ السائد لحركة الشخصيات الموجهة من الخارج مفعماً بالموت للشخصية السويّة، فكيف إذا كانت الشخصيات في زمن الاستلاب والعجز، يقودها خصيّ بحثاً عن الحلول الفردية دون حركة داخلية من ذواتها؟.

وبدت هذه الصورة ببنائية الحدث والشخصية، وبأسلوب بناء الرواية ذات الأصوات المتعددة، وذلك بإدخالنا –كقراء- إلى عقول الشخصيات لنتعرف إلى الأحداث، وإلى عنصري الزمان والمكان –ساحة العمل الروائي-. ولم تخرج حركة الشخصيات-النماذج المنكسرة- وفق رؤية غسان، عن واقع الشعب الفلسطيني العلم. ولذا لم يجترح معجزة ليخرج بشخصياته إلى بر الأمان، وهو يبني واقعها، وتطلعاتها، ونهاياتها، لأن المعجزة تتناقض وعالم الشعب الفلسطيني القائم في ظل تلك المرحلة.(١٨)

وفي رواية (ما تبقى لكم؟) كانت حركة حامد تسير في دائرتين: غزة اولاً، وصحراء النقب ثانياً، وكانت الحركة في الدائرة الأولى طاردة بأحداثها، و مؤشراتها النفسية والاجتماعية والأخلاقية. أما الدائرة الثانية فجاءت موسومة بالحب والعشق

على الرغم من قساوتها، ونهايتها القاتلة. لقد تماثلت نهايات الشخصيات في الروايتين، ولكن اختلاف الهدف للحركتين، واختلاف زمن الفعل في الروايتين، أدّى بالضرورة إلى اختلاف الرؤية والتصور والحركة، وإلى اختلاف صور الموت المجاني عن صور الموت الفاعل في حركة المواجهة والالتحام بالعدو.

ويمكن أن نعي المغزى الذي لأجله ألقى حامد بساعته فوق رمال الصحراء، فالزمن الحقيقي لم يعد فاعلاً رغم بطولته في الرواية، ولذا تخلص من دقات الساعة، ليعلن بالتالي تخلصه من دقات الركود الفلسطيني على المستوى النفسي والسياسي والعسكري لأكثر من عشرين عاماً، هي "صورة الصمت والموت، وليس بالضرورة صورة الحركة والفعل والكينونة التي عادة ما يرتبط الزمن بها"(١٩).

ويمكن الإشارة إلى أن التحام حامد بالعدو هو المقدمة الحقيقة والفعلية لزمن الفعل، وهو المعيار الصحيح لحركة البداية -زمن الفعل-، ولذا يتطلب زمن الفعل تقييم الأمور، ومعرفة المناخ الملائم، بالحوار الفعّال مع مختلف الأطراف: العدوة والصديقة، حتى لا تكون الحركة ارتجالاً، وحتى لا تحيد عما خطط لها بوعي ودراية وإتقان.

وفي ظل هذه الرؤية كان اختيار غسان كنفاني لشخصيات رواية (عائد إلى حيفا)، وهي تتحرك في حقول ألغام نفسية واجتماعية وسياسية، ترتبط بالماضي والحاضر، وتتوجه نحو المستقبل. واستخدم لبنائها -حيّة فاعلة- الوسائل الفنية الكفيلة بتحقيق هدفه، وتفجير الوعي اللازم لاتخاذ القرار والحركة والفعل، ومنها: أسلوب المتناظرات والمتقابلات، والمفارقات بين الحاضر والماضي، والوصف الموسوم بدقة لحالات النفس الإنسانية، وهي مسلوبة الإرادة والحركة، وحرية التصرّف، والفعل، واستخدام أسلوب تيار الوعي الذي يتماوج بين مشكّلات الماضي بمراحله، والحوار الهادف البنّاء، ليصل إلى ما يريد دون افتعال أو تشنج أو خطابة رومانسية حالمة،

واستخدم كذلك عناصر الإمكانات الضرورية المتاحة، و لم تنسه هذه الوسائل أنّ أهـم عناصر البناء، هي الشخصيات التي تدرك، وتفكر، وتعمل في إطـارٍ مـن الواقعيـة المبتغاة.(٢٠)

ومن أهم العوامل التي ساعدت غسان كنفاني على تشخيص أفكار شخصياته وتجسيدها، حيّة نامية ومتطورة، ترك حرية التفكير، والتصور، والحركـة، والعمـل لشخصياته دون التدخل في شؤونها، وفي وعيها وفكرها، ودون فرض رؤيته وأفكـاره وتوجهاته عليها، فسعيد. س يقف أمام الواقع مشدوهاً ومذهولاً في البدايـة، وكأنـه وراء ظهر العقل والمنطق بعد أن عجز عن التفكير، ونسي ما جاء لأجله، ولكن الواقع -العودة إلى حيفا التي لا تصدّق- ينمّيه، ويطوره، ويجسده كائناً إنسـانياً، بملامحه وسماته الإنسانية على الصعيدين الخارجي والداخلي. ففي الوقت الذي ربط الصمت لسانه، وهو يدخل الحلّيصة -حيّه السكني- في حيفا، إذ انفتح الماضي بكل ملامحه الإنسانية على مصراعيه أمام عينيه، في الوقت نفسه أدرك العوامل التي ابتنـت هـذا الواقع، بالرجوع إلى الماضي القريب، واستدعاء الحدث المرتبـط بعنصـري الزمـان والمكان. ويكشف الحوار عن ماهية سعيد. س، وعن نفسيه زوجته صفية المثقلة بكـل ألوان المعاناة الإنسانية، كأم ثكلى، ويتذكر سعيد. س به قول صفية في رام الله: "إنهـم يذهبون إلى كل مكان، ألا نذهب إلى حيفا؟

- نذهب إلى حيفا؟ لماذا؟ ...

نرى بيتنا هناك. فقط نراه.

لا . لا أريد الذهاب إلى حيفا. إنّ ذلك ذل، وهو إن كان ذُلاً واحداً لأهـل حيفـا، فبالنسبة لي ولك هو ذلان. لماذا نعذّب أنفسنا .؟...

وفي الصباح قالت له بهدوء، قبل ان تلقي عليه تحية الصباح: إذا أردت أن تذهب فخذني معك. لا تحاول يا سعيد أن تذهب وحدك" (الآثار الكاملة/ الروايات، ص ٣٥٧-٣٦٠)

لقد وضع الحوار سعيد. س في دائرة مشاعره المضطربة، وهو يرى بيته الذي أنكره بعد غياب عشرين عاماً، كما وضعه في مواجهة الدفاع عن النفس أمام ولده خلدون، أو دوف اليهودي بالتبني في منزلهما في حيفا. وتتطور هذه المشاعر والأفكار بانتقال سعيد. س من مرحلة الهزيمة إلى الدفاع عن النفس أولاً، والاقتناع بضرورة الحرب، لتحرير البيت والإنسان معاً، ويدرك سعيد ضرورة قطع صلاته بالماضي -ولده خلدون أو دوف- في طريق منظوره نحو المستقبل -خالد- وفي هذا الإطار يؤدي الحوار وظيفته بين سعيد. س وولده خلدون أو دوف، ويعكس أزمته الراهنة بوعي وثبات، وندرك به معاناة سعيد. س، ونبرر له السؤال الصعب الذي تفجرّ في نفسه، وهو يناجي نفسه بقوله: "ما هي الأبوة"؟ لقد أدرك سعيد. س بالحوار أنّ الأبوة لا تعني صلة الرحم، ولكنها لحمة العادات والتقاليد والتربية والمعايشة في البيت والمدرسة والشارع. (الآثار الكاملة/ الروايات، ص ٣٩٦-٤٠٤)

ويمكن القول إن الحوار كان لسعيد. س. ولكل فلسطيني بمثابة الصدمة الكهربائية أو الهزة العنيفة، التي أعادت إليه الحياة والتوازن والعمل، ليخرج من دائرة الذهول والأحلام والأمنيات إلى دائرة العمل، فدوف كان قضية خاسرة، ومرحلة عمرها عشرون عاماً هي الاحتلال، وتسويتها بحاجة إلى حرب جديدة.

وأقنعه الحوار في نهاية الأمر أنّ الإنسان قضية، ولكن أيّة قضية كما يقول لخلدون/ دوف/، كما عمل على تشكيل وعيه الجديد، وترتيب المستويات الفكرية وفق أولوياتها، ووفق رؤيته المتشكّلة للواقع الجديد والمستقبل، يقول لدوف: "الإنسان في نهاية المطاف قضية. هكذا قلت. وهذا هو الصحيح. ولكن أيّة قضيّة؟ هذا هو

السؤال. فكرّ جيداً. خالد هو أيضاً قضية، ليس لأنه ابني، ففي الواقع، دع تلك التفاصيل، على أي حال، جانباً. إننا حين نقف مع الإنسان فذلك شيء لا علاقة له بالدم واللحم، وتذاكر الهويّة، وجوازات السفر. هل تستطيع أن تفهم ذلك؟". (الآثار الكاملة/ الروايات، ص ٤٠٤)

ولإيمان سعيد. س بحركة التاريخ فقد تجاوز علاقته بالماضي، لأنها كانت علاقة عابرة، فالإنسان في نهاية المطاف قضيّة، وكذلك الوطن. ويتساءل سعيد، س عن ماهية الوطن ومفهومه، ويسأل صفية عنه: أهو الطاولة؟ أم هو ريش الطاووس؟ وصورة القدس على الجدار؟ ما هو الوطن؟ خلدون؟ أوهامنا عنه؟ الأبوة والبنوّة؟ ما هو الوطن بالنسبة لفارس اللبدة؟ ما هو الوطن؟ أهو صورة أخيه معلقة على الجدار؟" (الآثار الكاملة/ الروايات، ص٤٠٥).

وكنتيجة حتمية لهذه الرؤية تأكد سعيد. س أنّ فلسطين/الوطن والإنسان، لن يعودا إلا بالحرب، رغم أنه دفع حصته الأولى - خلدون /دوف/ ويجب أن يدفع أيضاً حتى يسترد البيت والولد. ويكشف سعيد ذلك بالحوار، يقول لمريام ودوف: "تستطيعان البقاء مؤقتاً في بيتنا، فذلك شيء تحتاج تسويته إلى حرب. (الآثار الكاملة/ الروايات، ص ٤١٣)

وأدرك أن الوطن ليس هو الماضي، وليس التفتيش تحت غبار الذاكرة، بل هو المستقبل -الجيل الجديد- الذي سيصحح أخطاء الماضي، وأخطاء العالم كله، يقول لزوجته صفية: لقد أدرك خالد ذلك قبلنا. آه يا صفية. آه". (الآثار الكاملة/ الروايات، ص ٤١٢)

كما أدرك أن الماضي والحنين إليه، ونبشه دون تعديله، أو تغييره معاكس لمسار حركة التاريخ، تماماً كما فعل بقدومه إلى حيفا.

ويتعدى الحوار بسعيد، س، مشفوعاً بالرؤية التاريخية، واستشرافه آفاق المستقبل -واقعه السياسي إلى ما قد يكون عليه الوضع عندما تتحقق الصحوة العربية،

إذ ستغلّ الفكر الصهيوني، وستحول دون ممارساته التوسعية، وسلوكه الإجرامي على حساب الأخطاء العربية. ويوضح الحوار هذه الرؤية بين سعيد. س ودوف، يقول سعيد له: "وأنت، أتعتقد أننا سنظل نخطئ. وإذا كففنا ذات يوم عن الخطأ، فما الذي يبقى لديك؟". (الآثار الكاملة، الروايات، ص٤١١)

ثالثاً: إشكالية الرمز والوطن:

بدأ الافتراق واضحاً بين قطبيين متنافرين في دائرة الجذب المغناطيسي بفلسطين، ويمثله إنسان المعتقل -داخل الأرض المحتلة- وإنسان المنفى والتشرد واللجوء، ففي الوقت الذي كان فيه الوطن يعني -لإنسان المنفى- الأحلام، والماضي، وغبار الذاكرة، في الوقت نفسه فإن الوطن يعني لإنسان المعتقل - رمز الفلسطيني داخل الأرض المحتلة -كيانه، وحياته، وهويته ووجوده، وهو جزء لا ينفصل عنه أيّاً كانت المغريات والتهديدات.

وقد جاء الافتراض، لدى سعيد. س، من قبيل مقاربة صورة الوطن لذهن صفيّة، ومن قبيل المقابلة بين صورتين متقابلتين تسيران في خطّين متوازيين، إذا لم يعدّل إنسان المنفى فكرته عن الوطن، وأسلوب التعامل معه، أو التلاحم به. ففارس البلدة - اليافاوي- اتجه بداية إلى يافا بعد فتح الجسور مباشرة، معبأً بشحنات الماضي العاطفية، وبأزمته الراهنة، وانكساره الحاد بفعل الهزيمة، ليلقى نظرة ملؤها الأسى والحسرة، والحزن، والندم، وكانت عودته -رغم شحنات الغضب التي نفثها في وجه إنسان المعتقل الذي يقطن منزله، ظناً منه أنه يهودي- عودة عاجزة كسيحة.

ولم يستخدم غسان لإبرازه صورة هذه العودة الوصف التسجيلي الذي يقوم على الملاحظة الخارجية للشيء والمرئي، بل استخدم الوصف التحليلي، وهو يربط بين انفعالات فارس اللبدة النفسية، وانعكاساهما على ملامحه الخارجية، وسلوكه. وجاء الوصف التصويري مكثفاً وموحياً بإيقاعاته التناغمية، وتصاعد وتيرته النفسية الحادّة،

المحمّلة بشحنات الغضب والاستفزاز والتحدي. ويصف سعيد. س ذلك بقوله: "وأخيراً انفتح الباب، ومدّ الرجل الطويل القامة ... مدّ يده ليصافح القادم الذي لا يعرفه، إلا أنّ فارس اللبدة تجاهل الراحة الممدودة. وقال بالهدوء الذي يحمل كل معنى الغضب: جئت ألقي نظرة على بيتي. هذا المكان الذي تسكنه هو بيتي أنا. ووجودك فيه مهزلة محزنة ستنتهي ذات يوم بقوة السلاح. تستطيع إن شئت أن تطلق عليّ الرصاص هذه اللحظة، ولكنه بيتي، وقد انتظرت عشرين عاماً لأعود إليه" (الآثار الكاملة/ الروايات، ص٣٨٨)

وتجدر الإشارة إلى أن الوصف امتاز بوظيفته التصويرية، فهو لا يقوم على الاستقصاء(٢١) والإطناب في الوصف، فالوصف القائم على الاستقصاء أو التفصيل لا يسمح لخيال القارئ بالانطلاق والتخيّل، والتصور، وإقامة الافتراضات، وإيجاد الحلول، لأنه يمنح القارئ كل شيء، مما يعوق ملكة القارئ المتخيّلة، ولا يصبح مشاركاً في صنع النص الأدبي، وإنما يقوم على الانتقاء المكثف الموحي للقطة الموصوفة، والمتعلّقة بنفسية الشخصية الإنسانية، وبعالمها الاجتماعي والوطني، وبمجموعة ذكرياتها. ويركز الاهتمام على جزئية بعينها لتكون مفتاحه وأداته، ونقطته المركزية للإثارة والحوار، والتحول من حالة إلى أخرى، يشترك فيها قطباً الجذب لمغناطيسي -الوطن والقضية-، ففارس اللبدة يتذكر أنّ أمه رفعت قبل عشرين عاماً كل الصور التي كانت معلّقة على جدران غرفة الجلوس، لتخلي المكان لصورة بدر الشهيد في السادس من نيسان عام ١٩٤٨. ومن مكان وقوفه أمام غرفة الجلوس، استطاع فارس اللبدة أن "يرى المسامير التي كانت تحمل صوراً أخرى قبل عشرين عاماً تطلّ برؤوسها من الجدران العارية، وبدت له كأنها رجال يقفون بالانتظار أمام تلك الصورة الكبيرة لأخيه الشهيد بدر اللبدة، معلّقة وحدها، متشحة بالسواد في صدر الغرفة. (الآثار الكاملة/ الرويات، ص٣٩٠)

ويبدو الافتراق في موقفي فارس اللبدة وإنسان المعتقل واضحاً بقول إنسان المعتقل لفارس اللبدة، وهو يدعوه للجلوس في الداخل، يقول له: "لقد انتظرناكم طويلاً. وكنّا نريد أن نراكم في مناسبة غير هذه".(الآثار الكاملة/ الروايات، ص٤٩٠)

وتتجلى هذه المفارقة في تشبث إنسان المعتقل بالمترل في الوقت الذي تخلى فيه فارس اللبدة، وأمثاله عنه، وربما استأجر إنسان المعتقل البيت لأجل الصورة، يقول لفارس اللبدة: "ذلك شيء معقد لا أستطيع أن أشرحه لك" (الآثار المكاملة، الرويات، ص ٣٩١)،فصورة بدر الشهيد هي الجسر الذي يربطه بإنسان المنفى واللجوء، وهي التزام، ورمز مرحلة تاريخية ونضالية، ولذا فالاحتفاظ بها وفاء لتاريخ الثورة والقضية، وهي شاهد على تشتت شعب، ورمز بما تبعثه على مر الزمن من تحفيز لأجل العمل على عودة وحدة الإنسان والأرض، كما تحتل مرحلة زمنية، وذكرى، وجد فيها إنسان المعتقل سلوى عن أحزان واقعه والآمه تحت وطأة الاحتلال، ووجد فيها رفيقاً يخاطبه، ويحادثه، ويذكره بأمور يعتزّ بها.

وقد عرض الراوي ذلك بالحوار الذي اعتنى بتقديم أبعاد الشخصية الداخلية، وإبراز مستوياها الفكرية والثقافية والوطنية، كما اعتنى بوصف الأماكن والأشياء، وارتبط الوصف بالفعل والحركة حتى لا يأتي الوصف ميتاً أو ساكناً، بل حيّاً ومذهلاً ومُدهشاً وهو يسجل ذاكرة تاريخ، وأحداثاً جساماً، ومعاناة إنسان هي معاناة أمة في ظل الاحتلال. لقد كان إنسان المعتقل كما يصف نفسه، وحيداً، مثل جزيرة صغيرة معزولة في بحر مصطخب من العداء. يقول لفارس اللبدة: "ذلك العذاب لم تجربه أنت، ولكن عشته أنا". (الآثار الكاملة/ الروايات، ص٣٩١)

و لم يخضع الوصف للاستقصاء، أو للدخول في عالم التفاصيل، الأمر الذي يمكن الزمن، ولكنه خضع لدفع الزمن، وهو يضع شرائح الزمن الماضي بآلامها، ومعاناها، وببوازغ الأمل فيها بجمل فعلية قصيرة أزالت التوتر بين النص

والوصف(٢٢)، ووجهت النص إلى الحركة المادية والتقنية. ويصف إنسان المعتقـــل، وهو يحاور فارس اللبدة وقع صورة الشهيد بدر اللبدة على نفسيته. وجاء الوصـــف- وهو يعتمد المتقابلات والمفارقات-محاكمة علنيه لروابط إنسان المنفى بالوطن، وجّـــه فيها أصابع الاتهام إلى إنسان المنفى بالتقصير في الدفاع عن الوطـــن أولاً، وبـــالهروب خارج الحدود ثانياً. وجاء في الوقت نفسه مبيّناً مدى توحد إنسان المعتقل بـــالوطن، فهو يرفض التخلّي عنه، رغم التهديدات اليومية، والسياسات الصهيونية الـــتي تريـــد اجتثات جذور الفلسطيني من الأرض.

ويظهر الوصف الوجه الأخر للتقابل والمقاربة والمفارقة في احتفـــاظ إنســـان المعتقل بصورة الشهيد بدر. لقد وجد فيها السلوى، والصديق، والحصن، و المـــلاذ، ورفض الاحتلال فهو، يخاطبه، ويتحادث إليه، ويذكره بأمور اعتزّ بها، لأنها أروع مـــا في حياته. (الآثار الكاملة/ الرويات، ص٣٩٢)

إن استخدام أدوات التقنية الفنيّة، وبخاصة الحوار في الرواية، وضـــع أمامنـــا صورة الواقع المجهض عربياً وفلسطينياً، كما بشرّ بإيماءات تحوليـــة لتجـــاوز المـــاضي والحاضر باتجاه المستقبل. ففارس اللبدة، الذي انتزع صورة أخيه الشيهد بدر، وتوجـــه بها إلى رام الله، أدرك معنى الوفاء في "أيدلوجية الالتحام بين الإنسان والقضية، وبـــين الماضي ومكوناته، وبين الحاضر بما يرمز إليه من كفاح إلى أن يحقق ما استشهد لأجلـــه الشهيد بدر".(٢٣)

كما أدرك معنى تسمية إنسان المعتقل ابنه بدراً، وفاءً وامتداداً لتاريخ ينتظـــره، حتى يتحقق الالتحام الفعلي والكلي بين أجزاء الوطن في دولة، ومعنى أن يظلّ التـــاريخ مفتوحاً على صفحة النضال، ويمدّ فيه القديمُ الجديد بأنساغ الحياة، والتفاؤل، والأمـــل، والتحرر، ويكتشف فارس اللبدة، أن انتزاع الصورة/الرمز/ بالنسبة لإنسان المعتقل، إنما يعني فقد الارتباط بالماضي، وفقد الأصالة والرمز، وحركـــة التـــاريخ، والصمـــود،

فالصورة الرمز للذين عايشوها أقوى من رابطة الدم، فهي كنزهم الباقي المنفتح على مصراعي الماضي والحاضر والمستقبل، ولذا أعاد الصورة، لأنه شعر بأنه لا يملك الحق في الاحتفاظ بالصورة. ووفق هذه الرؤية تصبح الصورة الرمز جزءاً من منظومة رمزية أو أسطورية، وهي تفرض نفسها بإلحاح كتقديم، وتمثيل على السواء. وتتضح هذه اللغة الإشارية باسلوب القطع السينمائي القائم على مبدأ الانتقاء(٢٤)، وهو يعرض لقطة اجتياز فارس اللبدة القدس باتجاه رام الله، ورجوعه إلى يافا، لإعادة صورة أخيه الشهيد بدر إلى إنسان المعتقل دون توضيح بعديها السابق واللاحق، ودون توضيح فواعلها، أو استكناه الشخصية من الداخل، أو إبراز تفاعلاتها النفسية، وآلامها، وأحلامها، أو إظهار الشخصية الرؤية التاريخية: ماضياً، وحاضراً، ومستقبلاً، وهو يحتضن صورة أخيه الشهيد، ولكنه اكتفى بالإشارة المكثفة والموحية : بالوصف، والحوار دون تعليل، أو تفسير. وكان لهذا الاقتصاد في رصد المشاعر والأحاسيس المصطخبة دوره في الإثارة والحركة والتوجه إلى زمن الفعل.

وبين هذا التوجه أن العلاقة بين الفلسطيني والقضية لم تعد خاضعة لقانون النسبية، بل هي علاقة ثابتة على الدوام، ضاربة جذورها في أعماق التاريخ، وممتدة نحو المستقبل، وساعد على اتخاذ القرار، الحوارُ الذي وضع إشارات التوجه الصحيحة نحو زمن الفعل، ففارس اللبدة عانى كثيراً في طريق عودته إلى رام الله من وقع الحوار على نفسيته وفكره وعقله. ومما لا شك فيه أن احتدام الحوار الداخلي، أو المونولوج الداخلي أدّى إلى هذه النتيجة، فكان الصدى، -إرجاع الصورة- الترجمة العملية لنتائج الحوار، أو المونولوج الداخلي الذي استخدم تكنيكاً لرصد العمليات النفسية لشخصية فارس اللبدة، دون إبداء رأيها، أو رصدها في كلام منظوم في النص الروائي.(٢٥)

رابعاً: إشكالية الشخصية الروائية والفعل

كان لا بُد لولادة زمن الفعل الحقيقي من أتّون يصهر الإنسان العربي، ويلملم أجزاءه، ويشكلّه بما يتفق وحاجات هذا الزمن من جديد، وليسمح له بحرية الحركة والفعل، فكانت هزيمة حزيران بكل مرارتها قد جثمت على صدر الإنسان العربي، وفكره، ونفسيته، ووضعته في دوامة التساؤل عن كل أسباب هذه الانهيارات، إلى درجة جلد الذات، واعتماد الانتحار لغة لدى بعض المثقفين/ تيسير سبول نموذجاً/ احتجاجاً على الهزيمة، ورفضاً لها في آن معاً. كما أدّت إلى انبثاق حركة الإنسان العربي بعامة، والفلسطيني بخاصة من رحم الهزيمة، لتعلن بدء زمن الفعل، ليس على الصورة الفردية في روايتي (ما تبقى لكم؟ وعائد إلى حيفا)، ولكنه الفعل البطولي لحركة الإنسان الفلسطيني الجماعية عقب الهزيمة، وهي تجسد حركة الشعب في ثورته المسلّحة، وتمدّ الجسور إلى الوطن والإنسان التي أشار إليها إنسان المعتقل في رواية (عائد إلى حيفا) فلم تعد الجسور صورة شهيد، ولكنها حركة، وفعل، والتحام بالعدو، لاستعادة الصورة والإنسان والأرض.

ولم تعد البطولة لدى غسان في رواية (أم سعد) بطولة، بالمعنى التقليدي، فردية، بل كانت بطولة تجسد حركة الشعب، وقوامها الناس البسطاء، فهم المعلم الحقيقي، وصاحب الرؤية الصافية، وفيها "تكون الثورة جزءاً لا ينفصم عن الخبز والماء، وأكف الكدح، ونبض القلب". (الآثار الكاملة/ الرويات، ص٢٤١)، وهم لا يفلسفون الأمور، وبمعنى آخر هم صفوف الكادحين، أصحاب السقف الواطئ، وليسوا ممن يقتلون الوقت بالثرثرة على أرصفة المقاهي، وعبر الإذاعة، وشاشات التلفاز، وفي المنتديات، والصالونات المغلقة تشريحاً، وتنظيراً وتقعيداً، حيث تنتهي بطولاتهم بمجرد انتهاء الثرثرة التي لا تعيد حقاً ضائعاً، ولا وطناً مسلوباً، ولا تمنح حرية لإنسان معتقل.

إن حركة الفلسطيني في روايتي (رجال في الشمس) و (ما تبقى لكم؟)، منيت بالإخفاق وبالموت الذي سيطر على مصائر الأشخاص، دون ان تـدرك شـخصيات (رجال في الشمس) أنهم هربوا من موت إلى موت كما يرى د. إحسان عباس، و لم يدركوا أنّ قصتهم كتبت للذين ظلّوا يمارسون الهرب غافلين(٢٦). أما في رواية (ما تبقى لكم؟) فكان للموت معنى آخر، وهو يشير إلى بداية تشكل الوعي، وإرادة الفعل في رحم الصحراء الفلسطينية، أدرك به حامد أنه صاحب موقف، ورؤية، ووجهة نظر، ولذا ثبت للمواجهة، و لم تلفظه الأرض كما لفظت شخصيات رجال في الشمس، بل تحدثت عنه بكل حب وشوق،لأنه إنسان آخر. ويصف الكاتب ذلك بقوله على لسان الأرض: "هذه المرة بدت وقفته حازمة ونهائية، وخيّل إليّ أن قدميه قد غرستافي صدري كجذعي نخلة لا تقتلع. لقد كنت على يقين لا يتزعزع بأنه لن يعود، ولكني اعتقدت لوهلة أنه لن يستمرّ أيضاً، وأنّه سيظل مغروساً هنا ينبض وحده في العراء إلى أن يموت واقفاً مثل الساعة الصغيرة التي غادرها، تدقّ لنفسها حتى تقف دون أن يكترث لها أحد" (الآثار الكاملة/ الروايات، ص٩٥)

إن توقف حامد في الصحراء ونهايته على أرضها، كان الشرارة المضوئة، والهادي لفارس اللبدة، ولخالد، ولسعيد. س بالتحرك نحو الأرض، سواء بالقلم، أو بالحوار، أو بالبندقية، وكان إعلان بدء انطلاقة الثورة المسلحة عقب هزيمة حزيران، وقد أدركت الشخصيات سعد ورفاقه في رواية (أم سعد)، رمز الشعب الفلسطيني، أنّ لغة الحوار التي اعتمدها سعيد.س في (عائد إلى حيفا) قد انتهى دورها، فالقوي يفوض سياسته، ولغته، ومنطقة، الأمر الذي أدّى إلى اعتماد القوة لغة الفعل، والمجابهة بعد أن حرقت مراحل البحث عن الأمن ولقمة العيش، ومرحلة الشوق والحنين، وحب الاستطلاع، والبحث عن الأثاث والمقتنيات، والمتغيرات على أرض الواقع، وبذا برهنت شخصيات رواية (أم سعد) ان الإنسان موقف وقضية في دائرة الصراع العربي

الإسرائيلي، وبينّت أن معنى القضية لم يعد مشكلة فردية تتعلق بمنزل أو شجرة، أو ولد، سواء لإنسان المعتقل أم لإنسان المنفى.

وفي إطار رؤية الراوي -أم سعد وغسان- حركة الجماهير الفلسطينية الفاعلة في المخيمّ، وهي تجسد الحلم إلى حقيقة، وتبني واقعاً جديداً بدت الشخصيات الروائية، وبخاصة أم سعد، مزيجاً من الأسطورة والإنسان العادي في حياته الواقعية، وكان التوازن كما ترى رضوى عاشور "بالتصوير الواقعي للشخصية من ناحية، وبربطها من ناحية أخرى بمجموعة من الصور الدّالة التي ترقى بها إلى مستوى الرمز".(٢٧)

وكأني بغسان كنفاني وهو يرسم شخصية أم سعد يذكرنا بموقف أم غوركي البطل الواقعي الاشتراكي، وبالنموذج الشعبي في مسرحية (الأم) لبرخت، فقد بيّن برخت تحول الأم من امرأة عادية إلى مناضلة ثورية، بفعل العلاقة الجدلية بين الإنسان والجماهير، وبين الجماهير والظروف الموضوعية التي أنتجت عملاً ثورياً، وإرادة قوية، وذلك في إطار ثوريتها.(٢٨)

وكذلك تحولت أم سعد من امرأة عادية تعمل خادمة في البيوت، وتتعرض لضغوطات-نفسية واجتماعية واقتصادية- شأنها في ذلك شأن الطبقة الكادحة، تحولت إلى امرأة مناضلة وثورية، وهي تزغزد لابنها سعد، الذي توجه إلى ساحة القتال في الخامس من حزيران، ولكنّ الظروف الموضوعية حالت دون التحاقه بساحة القتال، وأودع سجن السلطة اللبنانية في لبنان، (الآثار الكاملة، الروايات، ص ٢٥١)

ولكن هذه الظروف الموضوعية، والتعقيدات الأمنية والسياسية على الساحة العربية، فجرّت انطلاقة الثورة لدى الجيل الجديد الذي لم يعرف فلسطين على الطبيعة، ولكنه يعرفها قلباً، ونبضاً، وحبّاً، وحياة، وتضحية، فكان التحول باتجاه المستقبل الفاعل. ويرصد الراوي على لسان أم سعد، حركة الجيل الجديد نحو الأرض، ورفضه الوساطة التي يمثلها المختار، رمز القيادة التقليدية، لإعلان ولادة قيادة جديدة شابّة

وواعية. ويدل هذا الرفض على رفض الأجيال الجديدة القيادات العاجزة التي قـــادت شخصيات رواية (رجال في الشمس)، والقيادات الشابة غير الواعية، وغير المدربـــة أو المدركة لما يجب أن يكون عليه المنهج الثوري، ورفض القيادات المترهلة التي لا تـرى في الوطن إلا صورة أو مقتـــنيات أو ذكريات. فأم سعد لا ترغب في وســـاطة المختـــار لإخراج سعد من السجن، لأنها على وعي أن سعد سيرفض ورفاقه هـــذه الوســـاطة، ولأنها لا تريد أن تتكرر حكاية فضل وعبد المولى قبل ثلاثـــين عامـــاً، أو أن يظـــل الفلسطيني حاملاً بطاقة سرير المستشفى رقم ١٢. (٢٩)

وبدا ذلك بأسلوب الحوار الذي بين رؤية أم سعد البسيطة والواعية للقضيـــة، والمتناقضة مع كل المعطيات عقب الهزيمة، وقد عكس الحوار موقفين متناقضين أحدهمـــا مستسلم للسلطة وخاضع لها، والأخر رافض للهزيمة بمكوناتها، وأدواتهـــا، ونتائجـــها. ونتعرف بالحوار بين غسان وأم سعد على العلاقة بين سعد ورفاقة والمختـــار عندمـــا ذهب إليهم في السجن. ليوقعوا على ورقة، يتعهدون فيها أن يكونوا أوادم، ولكنـــهم رفضوا التوقيع، وطردوه.

"- من هم؟

- سعد ورفاقه، قال لي المختار أنهم ضحكوا عليه، وأن سعد سأله، شو يعـــني أوادم؟ قال المختار أنهم كانوا محشورين في زنزانة. وأنهم أخذوا جميعـــاً، يضحكـــون، و أن شخصاً لا يعرفه كان بينهم قال له: أوادم يعني قاعدين عاقلين؟ فقال رجل ثالث: يعـني نأكل كف ونقول شكراً، وأن سعد قام وقال له: يا حبيبي، أوادم يعني بنحارب، هيك يعني هيك.

- ورفضوا توقيع التعهد؟

- طبعاً رفضوا، قالوا للمختار (راحت عليك). وقد زعل، خصوصاً حـــين ســـألهم المختار إن كانوا يريدون شيئاً من المخيم، فقال له سعد: سلّم عالأهل يا ابني، فزعـــل

لأنه أكبر من سعد، من جيل أبيه، وقال لي إن سعد لم يحترمه، وأنه قال له يا ابني كأنه ولد.

- وماذا قلت للمختار؟

- قلت له إن سعد قلبه أبيض، وأنه حين قال له يا ابني فهو لم يقصد إهانته. كل ما قصده أن الدور الآن دوره" (الآثار الكاملة الرويات، ص٢٥٤)

ويأتي رفض دور المختار، رفضا للقيادات التقليدية التي رسخت الاستسلام، والأمن الوهمي المخادع، والتعامل مع العدو، فعبد المولى جيّر كفاح فضل/ رمز الثورة لصالحه، وأصبح فيما بعد عضواً في الكنيست الإسرائيلي.

وتشير أم سعد إلى ضرورة تبدّل المواقع بين الفقراء والأغنياء، بين المثقفين والبسطاء، أصحاب أكفّ الكدح والعرق، والسقف الواطيء خلاف المثقفين الذين يستهلكون ثقافاهم في الثرثرة والتنظير، وتوضح أم سعد ذلك للراوي غسان بقولها: "وأنت؟ ماذ ستفعل يا ابن العم؟ عشرون سنة مضت، وأمس تذكرتك، وأنا أسمع في الليل أنّ الحرب قد انتهت، وقلت لنفسي يجب أن أزوره، ولو كان سعد هنا لقال لي: هذه المرّة دوره هو أن يزورنا، فهل ستفعل؟" (الآثار الكاملة/ الروايات، ص ٢٥٢)

خامساً: تطور المفاهيم والقيم:

توضح شخصيات أم سعد -القيادة الشابة- تطور المفاهيم والقيم بتطور الأجيال، والظروف، والمناخ، وتبدّل المواقع القيادية بعد هزيمة حزيران. الزلزال الذي هزّ الوعي العربي، وفكره، ووجوده، وقيمته، والحدث التاريخي المدمر، والذي كان ميداناً للدراسات في مسببات الهزيمة النفسية، والاجتماعية، والسياسية، والعسكرية، والاقتصادية والأخلاقية، وذلك لوضع الإنسان العربي على طريق آلية الفعل، وعلى طريق تحقيق الماهية والذات والوجود.

ولا شك في أنّ المناخ الجديد فتح الباب واسعاً لحركة الجماهير الفلسطينية والعربية لتسدّ الفراغ الأمني عقب هزيمة حزيران، وقد لعبت الحركة المسلحة دوراً في تشكيل لغة جديدة للتعامل مع المحيط العربي بدلالاتها المتعددة، وهي تبني نفسية جديدة، وسلوكاً جديداً، واتجاهاً يختلف عما سبق، فموقف سعد ورفاقه من المختار أدى إلى استخدام لغة جديدة تعكس شحنات الثقة، والسخرية، والإصرار على العمل. كما أدى إلى التعامل والتخاطب بجمل دلالية تنبئ عن نفسية جديدة، ورؤية جديدة، ومواقف جديدة في حقل العمل. وبالمقارنة بين لغة شخصيات (رجال في الشمس) ولغة رواية (أم سعد) نجد ثمة فرقاً كبيراً بين الدلالات المحمولة على متن الخطاب اللغوي في الروايتين، فأبو قيس في (رجال في الشمس) ينوء بحمله، ويظلع بهذا الحمل، ولذا بدت لغته مشحونة بالألم والأسى، وثقل المسؤولية، وبالأماني التي تقف ضد سيرورة الإنسان، وحفظ نوعه. لقد عكس تيار الوعي، بفضل تداعي الأفكار، أعباء أبي قيس وتشاؤمه، وعدم رغبته في التواصل مع الحياة، وبدا ذلك في حواره النفسي عندما أخبرته زوجته بأن موعد ولادها قد أزف، يقول لنفسه: "بودي لو لم تلد المرأة بعد مئة شهر من الحمل: أهذا وقت ولادة؟" (الآثار الكاملة، الروايات ص ٤٥٠).

أما أبو سعد في رواية (أم سعد) فقد تبدل حاله بعد اندلاع الثورة، وبدا مزهواً بأبنائه، معتداً بنفسه، وبزوجته، وهو يرى ولده سعيد يصرع خصمه في حلبة تدريب أشبال الثورة، ويوافق قول الرجل العجوز على قوله: "لوهيك من الأول ما

كان صار لنا شيء" وعندما ضم زوجته إليه، وأشار لها قائلاً للعجوز: "هذه المرأة تلد الأولاد فيصيروا فدائيين، هي تخلف وفلسطين تأخذ"(الآثار الكاملة/ الروايات ص ٣٣٤).

ووفق هذه الرؤية، فقد تغيرت دلالات اللغة والجمل، والأساليب، كما اختلفت أدوات النص المعمارية في الروايتين، فرواية أم سعد ليست بحاجة إلى تيارات الوعي التي تبحث في أعماق النفس البشرية، لتخرج المخبوء من حنايا هذه النفس. إن زمن الفعل بحاجة إلى لغة أخرى تتسم بالبساطة والعفوية والعمق في آن معاً، وتتسم بمعاني التحول، وهي تظهر زمن الفعل، وفواعله، وحركة البسطاء الأسطورية، بلغة بسيطة، شفافة خالية من التعقيد.

أما في رواية (رجال في الشمس) فقد تضافرت اللغة والزمان والمكان ــ الثالوث المشحون بالتوتر والموت ــ على رسم نفسية الشخصيات، وقضاياها، ومشاكلها، وسلوكها. ونلاحظ أن هذه العناصر الثلاثة ــ اللغة والزمان والمكان ــ قد وحدت الأفكار، ووضعتها في قالب واحد يسير في مسار واحد أولاً، ثم سارت برحلة الشخصيات إلى نهايتها ــ الموت ــ. وفي ظل هذا التضافر توحدت هواجسهم بأحاديث الموت، بلغة بدت حية، ومعادلة تماماً للظرف التاريخي والاقتصادي الذي تعيشه شخصيات القصة. وتبدت حيوية اللغة وهي تثير كوامن الألم في نفسية أبي الخيزران، وتؤجج الصراع في داخله، وهي تنقب في أحفورات ماضية، وتنقله من لحظة الواقع الراهن إلى عمق الحدث الذي أفقده رجولته إِبان أحداث عام ١٩٤٨.

لقد فجرت اللغة نفسية أبي الخيزران، وهي ترسم بصيغة السؤال، مدارات هذه النفس، مستعينة بوهج الشمس اللامع، المعادل الموضوعي لوهج اللغم الذي صيره خصيّاً، وتجدر الإشارة إلى أن اللغة جاءت موسومة بتداعي الأفكار عبر تيار الوعي، والمعادلات الموضوعية بين مرئيات أبي الخيزران، ومخزونه الفكري، السمة الفنية لغسان كنفاني.

لقد نقلته لغة السؤال بقوة إلى الماضي، لينفجر الحدث، ويعيشه ويعاني مرارته. وقد جاءت النقلة الواعية المنفتحة على عالم الماضي بكل قساوته بأسلوب الاسترجاع، أو الاستدعاء الحدثي، أو الفلاش باك، هذا الأسلوب الذي يتلاءم مع الموقف والحدث، وهو التجاور والتقاطع بين خطوط الماضي والحاضر، وأحداثهما، وهو يعيش فقد الرجولة نفسياً، وشعوريا، وواقعاً معيشاً. (الآثار الكاملة/ الروايات، ١٠٦-١٠٩)، كما كشفت اللغة عن سلوك أبي الخيزران، وعن تعامله في حقل التهريب، وعن تعامل رجال الجمارك معه بأسلوب يختلف عن تعاملهم مع الأخرين، وبخاصة فيما يتعلق بعلاقاته النسوية المزعومة في البصرة. (الآثار الكاملة/ الروايات، ص١٣٥-١٣٩)

وبدت اللغة في رواية (أم سعد) متفائلة بدلالاتها، وواقعيتها، وهي تدفع الشخصية القصصية إلى تذوق طعم الحياة الجديدة، ويبدو التفاؤل في الحوار بين أم سعد والراوي، بيّن فيه الراوي/ غسان، نقلاً عن أم سعد قولها بأنها لم تتناول طعام الإفطار، فهي تنتظر هدية تفتح شهيتها: "ليس للأكل فحسب، ولكن للحياة أيضاً، أتصدق؟ ليس ثمة من يستطيع أن يفعل ذلك إلا سعد، وصمتت قليلاً، ثم همست كأنما لنفسها. أتعرف؟ إذا عاد سعد الليلة، إذا عاد فلن أستطيع تناول الطعام. أتدرك الآن لماذا يتوجب عليه أن يقطع الحدود؟" (الآثار الكاملة/ الروايات، ص٢٥٢). في حين فقدت لغة أم قيس في (رجال في الشمس) دلالتها، وشحناتها العاطفية، كما فقدت مضامينها. وتبدو اللغة هشة، محطمة لا تشي بحياة أو دلالة، ويعكس ذلك الحوار بين الزوجين حول مسألة سفر أبي قيس للكويت. يقول أبو قيس لزوجته: "ماذا تريدين يا أم قيس؟"

حدقت إليه، وهمست: كما ترى أنت.

ـــ سيكون بوسعنا أن نعلم قيس.

ـــ طبعاً

ـــ وقد نشتري عرق زيتون أو اثنين"

ـــ طبعاً

ـــ وربما نبني غرفة في مكان ما

ـــ أجل

ـــ إذا وصلت، إذا وصلت" (الآثار الكاملة/ الروايات، ص ٤٨)

وتبرز اللغة في رواية (أم سعد) تغيّر الحياة، وتبدلها، وتحولها من حالة إلى أخرى، لم تكنها لغة (رجال في الشمس)، ويتبدى ذلك بمقارنة المفردات، والجمل، والفقرات والعبارات، والأساليب في الروايتين. ففي رواية (رجال في الشمس) فقدت اللغة معناها، ومضامينها الإيجابية، كما فقدت العادات، والقيم، والتقاليد لحمتها، وقد حملت الكلمات المستخدمة في جمل وفقرات ذلك بوضوح، فأبو العبد سائق سيارة الأجرة من عمان إلى بغداد، في رواية (رجال في الشمس) تقاضى عشرين ديناراً من أسعد مقابل نقله أو تهريبه إلى داخل حدود العراق، لأسباب أمنية تتعلق بانتسابه لتنظيم محظور. ورغم تأكيد السائق على انتظاره بعد نقطة الاتشفور إلا أنه تخلى عنه، وتركه وحيداً في الطريق لتلتقطه سيارة سائح أجنبي. ويدل هذا السلوك على تغير مدلول الكلمة، وتحميلها مداليل أخرى لا تتسق ومعاني الشرف والرجولة، وتشير إلى أن القيم أصبحت نسبية، تتساوق والموقف، والظرف، والمناخ السائد، وبدا ذلك في الحوار، يقول أسعد للسائق: تقسم بشرفك؟

ـــ أقسم بشرفي أنني سألتقيك وراء الاتشفور، ما عليك إلا أن تدور حول المنطقة الملعونة، وستجدني بانتظارك". الآثار الكاملة/ الروايات، ص٥٨- انظر ص ١٠٦).

أما اللغة في رواية (أم سعد) فقد اكتسبت بعداً جديداً في دلالاتها، ورؤية جديدة، كما اكتسبت خروجاً وتمرداً على اللغة المقيدة بقيود الخوف، والترقب، والحذر، والسجن. ويبرز ذلك الحوار التالي بين أم سعد والراوي/ غسان. وقد جاء الحوار بضمير المتكلم للتأكيد على الرؤية، والموقف المشحون بالتوتر، والانفعال، والدلالات الاجتماعية، والسياسة، والأمنية المحمولة بمفردات اللغة، والجمل،

والعبارات، يقول الراوي: "و الآن، ماذا سيفعل سعد؟ ألم يكن خروجه من السجن أفضل؟...

ــ طيّب، أنت غير محبوس، فماذا تفعل؟... الحبوس أنواع يا ابن العم، أنواع. المخيم حبس، وبيتك حبس، والجريدة حبس، والراديو حبس، والباص، والشوارع، وعيون الناس، أعمارنا حبس، والعشرون سنة الماضية حبس، والمختار حبس، تتكلم أنت على الحبوس ! طول عمرك محبوس، أنت توهم نفسك يا ابن العم بأن قضبان الحبس الذي تعيش فيه مزهريات. حبس. حبس. حبس. أنت نفسك حبس. فلماذا تعتقدون أن سعد هو المحبوس؟ محبوس لأنه لم يوقع ورقة تقول إنه آدمي. آدمي؟ من منكم آدمي؟ كلكم وقعتم هذه الأوراق بطريقة أو بأخرى، ومع ذلك فأنتم محبوسون"(انظر الآثار الكاملة/ الروايات، ص٢٥٥).

ولعل الحوار المحمول على بُنية الأسئلة بجمله القصيرة المتوترة، ودلالته السياسية كان له دوره الفاعل في تشكيل الوعي الجديد لإنسان المخيمات الفلسطينية، وإبرازه، وفي رؤيته، وحركته، وكذلك الحوار المبني بالجمل الاسمية والفعلية، وبتتابع متواليات الاستفهام الهندسية، أدى دلالته المتعددة، وهو يدق بتواتر مشحون بالتوتر والإثارة على الهدف المرجو الذي تريد أن تصل إليه أم سعد، خلاف ما ذهب إليه صوت أبي الخيزران: لماذا لم يدقوا الجدران؟ لقد دق أبو الخيزان على محاولة الخلاص لشخصيات الرواية بصورة فردية، غير أن أم سعد دقت على شمولية الخلاص، بصورته الجماعية عبر طريق الثورة المسلحة، للخروج من النفق المظلم، ومن مستنقع الهزائم المتتالية، وتحطيم قيود الذل والمخيمات والعري، ولذا رفضت أم سعد خنوع الآخرين، واستسلامهم له، وسقوطهم فيه. فهي تريد اختراق حاجز الصمت، وتمزيق حجاب الاستسلام والتواكل، والبحث عن طريق الخلاص بالعمل لا بالتبرير، وترك الباب مفتوحاً لمن يريد العمل دون أن تعيقه القيادات التقليدية و العربية، أو تجيّره لصالحها كما فعل عبد

المولى مع ثورة عام ١٩٣٦، وكما يحاول المختار أن يفعله، وكما فعل أبو الخيزران وهو يلقي بالشخصيات الثلاثة في رواية (رجال في الشمس) إلى أحضان الموت المجاني. وجاء ذلك بلغة إشارية برموزها، وآلياتها، وشحناتها الموحية عبر الحوار بين أم سعد والراوي الذي يقول: "هدئي أعصابك يا أم سعد، أنا لم أقصد ذلك. وبهدوء قالت: كل واحد يقول الآن: أنا لم أقصد شيئاً، فلماذا يحدث كل الذي يحدث؟ لماذا؟ لماذا لا تتركون الطريق للذين يقصدون؟ لماذا لا تقصد أنت شيئاً؟ ثم اقتربت مني: أسمع، أنا أعرف أن سعد سيخرج من الحبس كله، أتفهم؟ (الآثار الكاملة/ الروايات ص ٢٥٦).

وتظهر اللحمة الاجتماعية في رواية (أم سعد) مقابل تفسخ العلاقات الاجتماعية والإنسانية في رواية (رجال في الشمس) و "ما تبقى لكم؟"، فأم سعد رغم الحياة الاجتماعية القاسية التي تعيشها في المخيم لا تبكي هذه الحياة، فحياتها أصبح لها معنى بالتحاق سعد بالثورة المسلحة، وبدنو تحقيق الهدف المنشود. ـ العودة إلى الأرض والوطن.

لقد صورت أم سعد رجال المخيم، ونساءه، وأطفاله، وهم يعملون بهمة لدرء خطر المزاريب السماوية بهمة ونشاط ودأب في إطار من الذل، والألم، والمعاناة، في حين وقف سعد متفرجاً وهازئاً وهو يقول بلغة ذات دلالات واعية، وإرهاصات أولية، أراد منها دفعهم للخلاص من هذا الواقع المؤس، يقول : "ذات ليلة سيدفنكم هذا الوحل". (الآثار الكاملة/ الروايات، ص٢٧٢).

وقد جاء هذا الخطاب موحياً بلغة الفعل الصامت، عما يجول في نفسه من قرار، وبلغة إشارية موحية بضرورة الحركة والفعل، تقول أم سعد، وقد أدركت ما يعتمل في نفس سعد، بلغة وصفية : "قال له أبوه: لماذا تقول ذلك؟ ماذا تريدنا أن نفعل؟ هل تعتقد أنه يوجد مزراب في السماء، وأن علينا أن نسده؟ وضحكنا كلنا.

ولكنني حين نظرت إليه رأيت في وجهه شيئاً أرعبني، كان منصرفاً إلى التفكير، وكأن الفكرة راقت له، كأنه سيذهب في اليوم التالي ليسد المزراب.

ـــ ثم ذهب؟

ـــ ثم ذهب" (الآثار الكاملة/ الروايات ص ٢٧٢).

وتناقض هذه الصورة موقف صفية في (عائد إلى حيفا)، فقد بدت صفية سلبية الموقع في رؤيتها وموقفها وحركتها، حتى في المواقف التي تتطلب حضوراً اجتماعياً، ورؤية، وتدفقاً عاطفياً.

وبلغة موحية ذات إشارات دلالية صورت أم سعد بعفوية وبساطة قدرتها على العمل والتضحية من أجل الثورة ـــ الطريق إلى فلسطين ـــ، وهي ترسل سعد إلى صفوف الثورة، تقول لغسان الراوي: "هل تفهم ذلك يا ابن عمي؟ أنت تعرف كيف تكتب الأشياء. أنا لم أذهب إلى مدرسة في عمري، لكننا نحس مثل بعضنا، يا ربي! ماذا أقول؟ أحس في الليل، فكرت بذلك جيداً، ووجدت الكلمات المناسبة وفي الصباح نسيتها. طيب، أنت تكتب رأيك، أنا لا أعرف الكتابة، ولكنني أرسلت ابني إلى هناك، قلت بذلك ما تقوله أنت. أليس كذلك؟ (الآثار الكاملة/ الروايات ص ٢٧١).

وتتجسد صورة أم سعد في نساء الأرض المحتلة، حيث ظهرت المرأة العربية على حقيقتها بفعل الثورة، فهي لا تخاف الموت، ولا تخشاه، بل تندفع إليه، وتستقبله بالزغاريد وهي تؤبّن الشهداء، كأنهم في حفلة عرس وطني. وتبرز العلاقات اللغوية بين شخصيات الرواية مدى التلاحم بين هذه الشخصيات، وهنا تصبح كل امرأة فلسطينية هي والدة الفدائي، تصله بوشائج نفسيه حميمية، فهو خلاصها من الفقر والجوع والاحتلال، وهو الأمل الذي ترغب في تحقيقه.

وتتضح هذه الوشائج بلغة الحوار، وهي تعكس مستويات الشخصية النفسية، وسلوكها، تقول أم سعد للراوي عن ولدها سعد: "ولو يا سعد؟ ألا تعبط أمك، وتبوسها بعد هذا الغياب؟ أتعرف ماذا قال؟ قال: ولكنني رأيتك هناك، وضحك" (الآثار الكاملة/ الروايات ص ٢٧٨) وقد استدعى هذا الخطاب بلغة الاسترجاع أو الفلاش باك عبر الحوار صورة المرأة الفلسطينية داخل الأرض المحتلة، بوعيها الاجتماعي، والإنساني، والسياسي، وهي تستجيب لنداء الفدائي، وتقدم له الطعام، وتعمل على حمايته من العدو. وتتمثل هذه الصورة في الحوار. حيث يخاطب سعد المرأة: "يا يما، يا يما، ردي علي

ــ أنا هون يُمّا

ــ أنا جائع يما

ــ يجوع عدويك يا ابني ، الله يحميك... الله يحميكم يا أولادي" (الآثار الكاملة/ الرويات، ص٢٨٢-٢٨٦)

وتختلف اللغة الإشارية برموزها الاجتماعية والإنسانية، وبمضامينها، واستعمالاتها، ودلالاتها لكل من (أسعد ومروان) في (رجال في الشمس) عنها في رواية (أم سعد)، فلغة الحوار بين أسعد وعمه كشفت فقد القيم، واختلال المعايير، كما كشفت ابتزاز عمه له، واستغلاله إياه، فقد قدّم له خمسين ديناراً ليسافر إلى الكويت حتى يعمل، ويعود بمهر ابنته. وقد نقله هذا الإحساس إلى تصور نفسه سلعة تشترى تماماً مثلما يشترى كيس الروث للحقل(الآثار الكاملة/ الروايات ص ٦١)، كما نقله سؤال الرجل السمين ــ السمسار، عن الخمسة عشر ديناراً بوساطة قانون تداعي الألفاظ والمعاني إلى ضرورة الحرص على نقوده، وأحاله ذلك إلى لغة المجاز التي حملته على تصور المستقبل المجهول، وهو يحادث نفسه: "يكون بوسعي أن أرد لعمي

المبلغ في أقل من شهر، هناك في الكويت يستطيع المرء أن يجمع نقوداً في مثـــل لمـح البصر"(الآثار الكاملة/ الروايات ص ٦١)

لقد بينت اللغة تفسخ العلاقات الإنسانية، والاجتماعية، والاقتصادية للأســرة الفلسطينية في الزمن الرديء بعد احتلال معظم الوطن الفلسطيني عام ١٩٤٨، وتبـدَّت علاقات اللغة بفعل سؤال أبي الخيزران، مروان عـــن ســبب رغبتــه في التوجــه إلى الكويت، فقد فجر السؤال مكامن معاناة مروان النفسية والإنسانية بفعل توظيف تيـار الوعي، عبر التداعيات لاستدعاء صورة العلاقات التي كانت قائمة من خــلال وعــي الشخصية/ مروان لها بصورة، أو بأخرى. وبين التوظيف بأسلوب البـــوح النفســي المكثف الموحي، عري العلاقات المتردية، (الآثار الكاملة/ الروايــات ص ١٦١-٢٣٣) على نفسية الشخصيات الروائية الإنسانية، وسلوكها، ونتائجها، فمروان ابن الســتة عشر ربيعاً، انفصل عن الدراسة، واتجه إلى الكويت بعد أن تخلى والده عـــن تحمــل مسؤوليات الأسرة، كردة فعل، واحتجاجاً على قطع ابنه زكريا الثلاثمائة روبية الــتي كان يرسلها كل شهر، وبعد أن طلّق والدته ليتزوج من أخرى شوهاء تكفل مؤونتــه، وتؤمن شيخوخته، وتقيه عوادي الزمن، ومحن الأيام. وبيّن أسلوب اللغة باستخدام تيار الوعي، موقف مروان من والده،وكراهيته له،وضرورة وصفه بالكلب والمنحط، لأنــه خلعه من بيئته الأسرية والعلمية إلى عالم مجهول غير مؤهل لارتياده، أو التنبؤ بما قــد يحدث له.

إن صورة الارتكاس التي انغرس فيــها الأب، في ظـل تطـامن الظـروف الفلسطينية ومعطياها الاجتماعية، والاقتصادية السلبية في رواية (رجال في الشـــمس) تقابلها صورة الأب الإيجابية (أبو سعد) في ظل الثورة، رغم قتامة هذه الشخصية الــتي كانت بداية امتداداً لمرحلة شخصيات (رجال في الشمس)، فأبو سعد في روايـــة (أم سعد) كان بداية شخصية سلبية المواقع والمواقف، حاد الطبع، متقلب المزاج، شرســاً،

وبرزت هذه الملامح بالمنظومة اللغوية التي قامت على الجمل الفعلية القصيرة، وبخاصة الفعل المضارع، بما يحيله إلينا من علاقة الشخصية بالظرف الراهن، وبالبشر من حوله. وقد حددت اللغة ماهية هذه الشخصيات، ومستوياتها النفسية، وعلاقاتها الاجتماعية بالأسرة والمجتمع، وهي تصف شخصية أبي سعد بلسان الراوي نقلاً عن أم سعد. وبدت هذه الشخصية متعبة، وشرسه، وفظة في تعاملها مع الأسرة والآخرين، وتتشاجر مع نفسها، و كان أبو سعد يشك في زوجته وهو يودعها بنظرات محملة بالريبة والشك، لقد كان مدعوساً بالفقر، وبالمقاهرة، وببطاقة الإعاشة، ومدعوساً تحت سقف الزينكو، وتحت بسطار الدولة. (الآثار الكاملة، الروايات، ص ٣٣١-٣٣٥)

ولكن تغير المناخ السياسي في المخيم بفعل الثورة قاد بالضرورة إلى تغير العلاقات، وتغير النفس الإنسانية، وأصبح للحياة طعمٌ آخر، وتحول أبو سعد إلى إنسان خير يحمل صفات متناقضة لحالته الأولى بعد أن شعر بكينونته الاعتبارية، ولقد أعادت إليه الثورة علاقاته السوية بالإنسانية والحياة (الآثار الكاملة/ الروايات ص ٣٣٢)، و تشخص أم سعد الحالة الجديدة فتقول: "الحالة صارت غير... الزلمة قلل لي أنه صار للعيشة طعم الآن، الآن فقط" (الآثار الكاملة/ الروايات ص ٣٣٤)

كما كشفت اللغة تبدل العلاقات الفلسطينية مع محيطها الاجتماعي، والسياسي، والأمني، فاللغة كانت بداية آمرة من جهة، ومستقبلة من الجهة الأخرى بما تحمله لغة الأمر من سياقات التهديد والتنفيذ، ومن منظومات إشارية يفهمها المرسل والمتلقي في حقل العلاقة، وتولد هذه اللغة مناخات نفسية، وأخلاقية مرضية، تتسم بالإهانة، والذل، والشعور باليأس، والإحباط، والقلق والتوتر، وتفضي إلى حقول من السلوك السلبي. وفي هذا السياق فإن لغة الحكومات العربية لم تتعود لغة الحوار مع

الفلسطيني، فهي في موقع القوة تأمر وتطاع، وتتجلى هذه الصورة في سـؤال رجـل الأمن اللبناني أم سعد عن ولدها، يقول: "اكتبي له أن يعود"(الآثار الكاملة/ الروايـات ص ٣٢٣).

وتجدر الإشارة إلى أن التغير في لغة الفلسطيني، وسلوكه إزاء الآخر لم يكـن عفوياً، أو وليد الصدفة، أو نتيجة طفرة، أو بصورة انتقائية، ولكنه تغـير ذاتي وإرادي، بعد أن أصبحت حلي النساء من الرصاص. لقد أكسبت الثورة الشخصية الفلسـطينية قوة دفع ذاتية، وحصانة ضد الخوف والمجهول، ولغة القوة والإرادة. فلم تعـد هـذه الشخصية تخشى الواقع المعيش، ولم تعد الضحية، ووسيلة تربية الآخريـن، ولم تعـد السقف الواطئ. لقد باتت تشعر بتبدل القوى والموازين، وبـأن الظـروف تعمـل لمصلحتها، ولذا تغيرت اللغة، وهي تعبر عن ذاتيتها، وقوتها الداخلية، ويشير قـول أم سعد لرجل الأمن إلى ذلك، تقول له: "إذا أردت سعد، لماذا لا تذهب إليه في الأغـوار وتمسكه؟!!" (الآثار الكاملة/الروايات ص ٣٣٤).

وتظهر اللغة تبدل القوى بتبدل الظروف، والمستجدات، والمعطيات بعـد أن أصبح الرصاص أحجبة، يقي الشخصية النموذج/ أم سعد/ عوادي الزمـن، ومخـاطر الواقع، ويتمثل ذلك في الحوار بين أم سعد ورجل الأمن اللبناني، يقول لها: "لقد غيرتنّ حليّكن هذه الأيام"

ـ هذا ليس عقداً

ـ ماذا إذن

ـ هذا حجاب

ـ حجاب؟

ـ حجاب

ـ حجاب جاء به سعد؟

ــ نعم حجاب جاء به سعد

ــ وكيف قلت أن سعد لم يأت؟

...

بلى أتى وراح

ــ ألم أقل لك أن تقولي لنا حين يجيء

ــ خفت

ــ خفت عليه؟

ــ خفت عليك؟"(الآثار الكاملة/ الروايات ص ٣٢٨-٣٢٥)

وتجدر الإشارة إلى أن أسباب المفارقة بين لغتي الخطاب في رواية (أم سعد) ورواية (رجال في الشمس) تعود إلى الاختلاف في الهدف، والتصور، والنتيجة. فرواية (رجال في الشمس) تقوم على إظهار الفكرة الأساسية، وهي ترسيخ قاعدة أن الاتجاه المعاكس للوطن أياً كانت بواعثه محكومة نتائجه بالموت، فهو يدل على العجز والخيانة والموت مجاناً.

أما رواية (أم سعد) فكان الهدف هو تفعيل الجماهير، وتحريكها باتجاه الوطن، لاجتياز الحدود، وتحرير الإنسان، والوطن، والصورة معاً. ويمكن القول إن أعمال غسان الروائية جاءت معبرة عن مدى التحامه بالقضية والشعب، وهو يتوحد بالجماهير، ويتوتر بها ولأجلها، ويتحرك دوماً لتكون فاعلة، ويرفض كل من يقف على الشاطئ متفرجاً، بل كان يندفع بنفسه وبالمشاهدين إلى ساحة العمل (٣٠)، و لم يكن يركن للدعة والراحة إلى أن توحد الفعل الثوري بالفن الثوري" (٣١)

وكان وعيه مبكراً بالعمل والعطاء من أجل الجماهير، لذا كان مؤمنـــــاً بـــأن العطاء هو المقبول فقط، وأما الأخذ فعمل غير مرغوب به، ولذا عمل طيلة حياته علـى البذل والعطاء والتضحية، وشعاره: أن يعيش الإنسان باذلاً نفسه هو المقابل ولا مقـابل سواه. إنني أحاول الآن أن أصل إلى هذا الإيمان بطريقة من الطرق، أو أن الحياة تصبـح ـــ بلا هذا الإيمان ـــ شيئاً لا يحتمل على الإطلاق"(٣٢). لقد حقق غســـان كنفـــاني التوازن الطبيعي بين مفهومه للعالم وبنائه الفني، وهو يقدم موقفاً أدبياً من العـــالم لــــه أبعاده السياسية، وآثاره السياسية والإنسانية، وفي نفـــس الوقـــت يعـــرض نماذجـــه الإنسانية.

الحواشي

١- إحسان عباس، المبنى الرمزي في قصص غسان، الآثار الكاملة، المجلد الأول، الروايات (بيروت: دار الطليعة والنشر ١٩٨٠). ص ١٤.
وانظر أيضا: الياس خوري وآخرون، غسان كنفاني إنسانا وأديبا ومناضلا، (بيروت: اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين ١٩٧٤).

٢- غسان كنفاني، أوراق خاصة، الكرمل، العدد ٢، (عمان: دار الشروق ١٩٨١). ص٤٤.

٣- للاستفادة انظر: ليون إيدل، (بيروت، منشورات المكتبة الأهلية ١٩٥٩) ص ٧٨.
: فيحاء عبد الهادي، وعد الغد، (عمان: الكرمل ١٩٨٧، ص ٨٥.
: سيزا قاسم: الواقعية الفرنسية والرواية العربية في مصر، رسالة دكتوراه (القاهرة: جامعة القاهرة ١٩٨٧). ص ٨٣.

٤- غسان كنفاني، المرجع المذكور، ص ٤٤.

٥- د. صالح أبو إصبع، فلسطين في الرواية العربية، (بيروت: مركز الأبحاث الفلسطينية ١٩٧٥). ص ١٨٣.
وانظر: ألبير يس، تاريخ الرواية الحديثة، ترجمة جورج سالم، (بيروت: منشورات عويدات ١٩٦٧). ص.ص ٤٤٦-٤٤٧.
: د. آلان روب جرييه، نحو رواية جديدة، ترجمة مصطفى إبراهيم مصطفى، (القاهرة: دار المعارف بمصر د.ت). ص ١٢٤.

٦- غسان كنفاني، المرجع المذكور، ص.ص ٢٣٦، ٢٤٠.

٧- د. رضوى عاشور، الطريق إلى الخيمة الأخرى، ط٢، (بيروت: دار الآدب ١٩٨١). ص ١٧٩.

وانظر: فيحاء عبد الهادي، المرجع المذكور، ص ٩.

٨- د. أحمد مطر، الرواية في الأدب الفلسطيني، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨٠). ص ٢٢٩.

وانظر: د. سامي سويدان، أبحاث في النص الروائي، (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية ١٩٨٦). ص.ص ١٦٩-١٧٢.

:د. شكري عياد، الرؤيا المقيدة، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨). ص. ص ١٤٤-١٤٨.

٩- روجر ألن، الرواية العربية، مقدمة تاريخية ونقدية، ترجمة حصة منيف، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨٦). ص ١٤٤.

١٠- إحسان عباس وآخرون، المرجع المذكور، ص ٦١.

١١- د. أحمد مطر، المرجع المذكور، ص ٢٣٦.

وانظر: د. عبد الرحمن ياغي، مع غسان كنفاني وجهوده القصصية، (بغداد: المنظمة العربية للثقافة والعلوم/ معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٨٣). ص.ص ٩٥-٩٧.

: د. عبد الكريم الأشتر، دراسات في أدب النكبة، (دمشق: دار الفكر ١٩٧٥). ص٥٤.

١٢- غسان كنفاني، المرجع المذكور، ص ٢٣٦.

١٣- د. أحمد مطر، المرجع المذكور، ص ٢١٢.

١٤- د. خضير، ضياء، ثنائيات مقارنة، (عمان: دار الكرمل ١٩٩٣). ص ٨٠.

١٥- فضل النقيب، غسان كنفاني، (بيروت: مجلة شؤون فلسطينية ١٩٧٢)، العـدد ١٣، ص١٩٤.

وانظر: د. إحسان عباس، المرجع المذكور، ص ١١.

: د. عبد الرحمن ياغي، المرجع المذكور، ص ٢١.

١٦- د. إحسان عباس، المرجع المذكور، ص ١١.

١٧- د. عبد الرحمن ياغي، المرجع المذكور، ص ١٦.

وانظر: د. أحمد مطر، المرجع المذكور، ص ٢٣٥.

١٨- د. أحمد خليفة، عالم القضية الفلسطينية في أدب غسـان كنفـاني، شـؤون فلسطينية عدد ١٣، أيلول/ سبتمبر ١٩٧٢، ص.ص ١٥٦-١٦٦.

١٩- د. رضوى عاشور، المرجع المذكور، ص ٧٦.

٢٠- د. إحسان عباس، المرجع المذكور، ص ١٢.

٢١- د. سيزا قاسم ، المرجع المذكور، ص.ص ١٢٥-١٢٦.

وانظر: فيحاء عبد الهادي، المرجع المذكور، ص ٨٤.

٢٢- د. فيحاء عبد الهادي، المرجع المذكور، ص ٤٩.

وانظر: د. سيزا قاسم، المرجع المذكور، ص ٢٧١.

٢٣- د. حسن عليان، الروابط الفلسطينية في أعمال غسان كنفاني، المجلة الثقافيـة ١٩٩٨، الجامعة الأردنية، العدد ٤٣، ص ٢٧.

٢٤- وارين أوستن ورينيه بليك، نظرية الأدب، ترجمة محيي الدين صبحـي، ط١، (دمشق: المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ١٩٧٢). ص ٢٤٤.

وانظر: فيحاء عبد الهادي، المرجع المذكور، ص ٧٣.

٢٥- للاستفادة انظر: روبرت همفري، تيار الوعي في الرواية الحديثـة، ترجمـة د. محمود الربيعي، (القاهرة: دار المعارف ١٩٧٥). ص ٤٤.

٢٦- د. إحسان عباس، المرجع المذكور، ص ٢٠.
وانظر: د. أحمد مطر، المرجع المذكور، ص.ص ٢٣٢-٢٣٦.
:د. سامي سويدان، المرجع المذكور، ص ٩٨.
: د. سعيد الورقي، اتجاهات الرواية العربية المعاصرة، (القاهرة: الهيئة المصرية العام ١٩٨٢). ص ٢٦٢.
: د. أحمد مطر، المرجع المذكور، ص.ص ٢٣٢-٢٣٦.
: د. أحمد محمد عطية، الرواية السياسية، (القاهرة: مكتبة مدبولي د.ت). ص.ص ١٩٢-١٩٦.
٢٧- د. رضوى عاشور، المرجع المذكور، ص ١٢٠.
٢٨- إحسان عباس وآخرون، المرجع المذكور، ص.ص ١٢٤-١٢٥.
وانظر: د. شكري عزيز ماضي، انعكاس هزيمة حزيران على الرواية العربية، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٨). ص.ص ١٧٥-١٧٦.
٢٩- غسان كنفاني، مجموعة موت سرير رقم ١٢/ الآثار الكاملة، المجلد الثاني، القصص القصيرة (بيروت: دار الطليعة ١٩٧٣).
٣٠- د. عبد الرحمن ياغي، المرجع المذكور، ص.ص ٧-٨.
٣١- المرجع نفسه، ص.ص ٧-٨.
٣٢- غسان كنفاني، المرجع المذكور، ص.ص ٢٣٦-٢٣٧.

اتجاهات طلبة كليات الشريعة في جامعات الضفة الغربية نحو الدراسة الشرعية

د. محمد عابدين

دائرة التربية - جامعة القدس

د. إبراهيم خليل عوض الله

إدارة الأوقاف الإسلامية —القدس

ملخّص

هدفت هذه الدراسة إلى التعرّف على اتجاهات طلبة كليات الشريعة في جامعات الضفة الغربية نحو الدراسة الشرعية، والكشف عن أية فروق ذات دلالة إحصائية فيها حسب جنس الطالب أو معدّله في امتحان الدراسة الثانوية العامّة أو مستوى سنته الدراسية أو الكليّة.

تكون مجتمع الدراسة من طلبة كليات الشريعة في جامعات الضفة الغربية النظامية للعام الدراسي ٩٧/٩٨. وتم اختيار عينة عشوائية طبقية مقدارها ٢٥ % بلغت (٢٦١) طالبا وطالبة.

تم تصميم أداة خاصة بالدراسة، وجرى التأكد من صدقها بتحكيمها وبتطبيق دراسة أولية، والتأكد من ثباتها بطريقتي إعادة الاختبار حيث بلغت قيمتا القياسين القبلي والبعدي (٠,٧٨) و (٠,٨١) على التوالي، و(كرونباخ ألفا) حيث بلغ معامل

ثباته (٠,٧٥). وتم حساب المتوسطات الحسابية، والانحرافات المعيارية، والرتب، ثم أجري تحليل التباين الأحادي واختبار (شافيه).

أظهرت النتائج أن الطلبة يحملون اتجاهات إيجابية قوية نحو الدراسة الشرعية في المجالات التي حددتها الدراسة، سوى في مجالين هما: المجال الدراسي ومجال إدارة الكلية وأنظمتها. كما أظهرت النتائج وجود فروق دالة إحصائيا بين متوسطات اتجاهات الطلبة نحو الدراسة الشرعية تبعا للجنس (لصالح الإناث)، ولمعدل امتحان الدراسة الثانوية (لصالح ذوي المعدلات العالية)، ولمستوى السنة الدراسية (لصالح طلبة السنة الأولى)، وللكلية (لصالح طلبة كلية القرآن والدراسات الإسلامية).

وقد تضمنت الدراسة عددا من التوصيات، أهمها: إعطاء التعليم الشرعي الرعاية والاهتمام الكافيين في أهدافه ومناهجه ومؤسساته وطلبته وخريجيه، والاهتمام بتنمية الاتجاهات الإيجابية لدى الطلبة نحو العلم الشرعي ورعايتها، وإجراء دراسة حول أسباب تفوق الطلبة الإناث على الذكور في كليات الشريعة في جامعات الضفة الغربية من حيث العدد وقوة الاتجاه نحو الدراسة الشرعية.

Attitudes of Students of SHARIA Faculties at the West Bank towards SHARIA Education

Dr. Mohammad Abdeen
Al-Quds University
Ibraheem Awad-Allah
Department of Islamic Awqaf Jerusalem

Abstract

This study aimed at identifying students' attitudes at the West Bank SHARIA (Religion of Islam) faculties towards SHARIA education. It also aimed at finding any significant differences in those attitudes due to sex, average at the General Secondary Exam, year of college, and faculty.

The population of the study consisted of students of SHARIA faculties at the West Bank universities. A 25 % stratified random sample of (261) students was chosen.

To collect data, a questionnaire was constructed; its reliability and validity were confirmed. The validity was calculated by half-splits (0.78) and (0.81), and by Cronbach Alpha (0.75). To analyze data, means, standard deviations, ranks, One-way Anova, and Scheffe were employed.

The results of the study showed that students bear strong positive attitudes towards SHARIA education, except in the academic and college administration domains. The results also showed significant differences between means due to sex (for the favour of female), average at the General Secondary Exam (for the favour of high score ranking students), year of college (for the favour of first year students), and college (for the favour of the Faculty of Quran and Islamic Studies students).

In the light of the results, several recommendations were made, among which were: giving SHARIA education the necessary concern and importance (in its goals, curricula, institutions, students, graduates, ...), paying more concern to positive attitudes of students towards SHARIA education, and investigating the reasons behind the rise in female enrollment at the SHARIA faculties and attitudes towards SHARIA education over male students.

مقدّمـــــة:

تعتبر الأمة الإسلامية أمة علم وتعلّم، على الرغم مما أصابهـــا مـــن التخلـــف العلمي، وما تبع ذلك من تقهقر سياسي واقتصادي وعسكري. وقد حثّ الإســـلام على العلم عموماً بأنواعه كافة، وجعل العلم من مستلزمات سيادة الأمـــة الإســـلامية ورفعتها وبقائها، بل إن "العلم من أهمّ مقومات التمكين للأمة الإســـلامية، إذ مـــن المستحيل أن يُمكّن الله لأمّة جاهلة، متخلفة عن ركاب العلم"[1]. وفضّل الله العلـــم على الجهل، وجعله مقابلاً له، فقال عزّ وجلّ: {قُل هَل يَستَوِي الذِينَ يَعلَمُونَ والذِيـــنَ لا يَعلَمُونَ، إنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الألبَابِ} [الزمر، الآية ٩]. وجاء في سنن ابن ماجـــة في كتاب فضل العلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم: "طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة"[2]. ومن العلوم التي تمتاز بهـا الأمة الإسلامية دون غيرها والتي يلزمها التخصّص بها تعلّماً وتعليماً، والمحافظة عليـــها ونشرها: علوم الدين الإسلامي ومعارفه وأحكام الإسلام المتضمَّنة في القرآن الكـــريم والسنة النبوية والعقيدة والفقه والسيرة النبوية وعلومها. ويحتاج المسلمون إلى تعلـــم تلك العلوم والمعارف الشرعية لإحسان العبادة لله، ولنشر العلم، والدعوة إلى الخـــير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتواصي بالحقّ، ولمقارعـــة الجـــهل والبـــاطل، والوقوف في وجه الانحراف والبدع والضلال[3]. وإن الدعوة إلى الله بحاجة إلى التفقّـه في الدين وتعلّم العلوم الشرعية حتى يكون الداعية قادراً على إرشاد الناس وتوجيهـــهم وفُتياهم، أو مجادلتهم بالتي هي أحسن وإقامة الحجة عليهم. ومن هنا استوجب الأمـــر وجود دعاة متخصّصين في العلم الشرعي[4]. ويشير محمد السيد يوسف[5] إلى أمـــر مهم حول ضرورة تعلّم العلم الشرعي والتخصّص به في زماننا هذا وهـــو أن هنـــاك صحوة إسلامية وعودة إلى الإسلام تسري بين أبناء المسلمين، وهذه الصحوة بحاجـــة إلى علماء الشرع لتوجيه أفرادها والنوء بهم عن المزالق والمخاطر والتطرّف.

لقد أولى المسلمون علوم الشرع عناية فائقة على مرّ العصور الإسلامية، فصنفوا فيها المصنفات والمؤلفات، وأقاموا لها الدور والأروقة والخوانق والروابط والمدارس والجامعات. وعلى الرغم مما حظيت به مؤسساته من رعاية واهتمام بالغين على أيدي الأمراء والواقفين، فقد عبث بها المغرضون إفساداً وتشويهاً وتحريضاً، وبخاصة في القرن الأخير حيث تعرضت بلاد المسلمين للغزو الحاقد والاحتلال الخسيس. وفي غياب اليقظة والحذر تآمر المبطلون على مؤسسات العلم الشرعي، وسَعَوا في خرابها من الداخل والخارج، فأفسدوا مناهجها، وشوّهوا علماءها، وضيّقوا على مدرّسيها وطلابها، وسلبوها البيئة التعليمية المناسبة، وشتّتوها ليصرفوا الطلبة عنها ويضعفوا هيبتها وأهميتها في نفوس الناس كافة(٦). كما سعى أولئك الضالون إلى إدخال التيار العلماني وإفساح المجال للقوانين الوضعية لإدارة التغيير الاجتماعي، وقطع المسلمين عن الإسلام(٧).

هذا وقد كان من نتيجة حملات الإفساد أن عزف الطلبة عن دراسة العلوم الشرعية بشكل ملفت للنظر (٨). وعظم الخطب إذ ظهرت لدى بعض دارسي العلم الشرعي ومدرّسيه ممارسات غير منسجمة مع دراستهم، فقعدوا عن الدعوة واستمرار التعلّم ومجالسة العلماء، بل إن بعضهم قطع صلته بالعلم الذي درسه وناقض عملُه كلامَه(٩).

إن الالتحاق بالدراسة الشرعية له أسبابه ودوافعه، ولعلّ من أصدقها: تعلّمها ابتغاء مرضاة الله، وقياماً بواجب التواصي بالحقّ وسعياً للعمل بها، وأولئك هم علماء الآخرة؛ غير أن هناك من يتعلمها ليجاري بها العلماء، أو يماري بها السفهاء، أو يصرف بها وجوه الناس إليه، وأولئك هم علماء السوء(١٠). وأشارت دراسة عابدين وعوض الله(١١) إلى أن أهم الدوافع التي تقف وراء التحاق الطلبة بكليات العلم الشرعي كانت الرغبة بالعلم الشرعي ذاته، والإحساس بأهمية العلوم الشرعية، وابتغاء

مرضاة الله تديّناً. وكما تتنوع الدوافع، تتعدّد اتجاهات الطلبة نحو دراسة العلم الشرعي بعد ولوج بابه، وتتأثر تلك الاتجاهات بعوامل ومؤثرات داخل المؤسسة التعليمية وخارجها.

مشكلة الدراسة وأهدافها:

تمثّلت مشكلة الدراسة بمعرفة اتجاهات طلبة كليات العلوم الشرعية في جامعات الضفة الغربية نحو الدراسة الشرعية. وقد هدفت الدراسة بشكل أساسي إلى التعرّف على اتجاهات الطلبة الملتحقين بكليات العلوم الشرعية نحو دراسة العلوم الشرعية، حيث شملت تلك الاتجاهات أحد عشر مجالاً، والتعرف على ترتيبهم لتلك المجالات حسب تأثرهم بها. كما هدفت إلى الوقوف على أية فروق ذات دلالة إحصائية في تلك الاتجاهات تَبَعاً لمتغيرات الدراسة المستقلة.

وبناء على تلك الأهداف، وضعت الأسئلة التالية:

١. ما العوامل المؤثرة في تكوين اتجاهات طلبة كليات الشريعة في جامعات الضفة الغربية نحو الدراسة الشرعية، وما درجة تأثير كل منها؟
٢. ما ترتيب طلبة كليات الشريعة في جامعات الضفة الغربية للمجالات المكونة لاتجاهاتهم نحو الدراسة الشرعية؟
٣. هل تختلف اتجاهات طلبة كليات الشريعة في جامعات الضفة الغربية نحو الدراسة الشرعية حسب الجنس، أو معدّل امتحان الدراسة الثانوية، أو مستوى السنة الدراسية الجامعية، أو الكلية التي يلتحق بها الطالب؟

أهمّيـــــة الدراسة:

اكتسبت هذه الدراسة أهمية خاصة لإنها تبحث في اتجاهات الطلبة نحو دراســة العلوم الشرعية التي بها يميز الناس الخبيث من الطيب، ويُعرف الحـــلال مـــن الحـــرام، ويُتقرّب إلى الله تعالى. ويظنّ الباحثان أن هذه هي الدراسة الأولى الـــتي تبحـــث في اتجاهات طلبة كليات العلم الشرعي نحو الدراسة الشرعية على وجه الخصوص محليـــاً، وأنها ستكون –إن شاء الله- إضافةً واضحة إلى الدراسات القليلة حول هذا الموضـــوع في المكتبة التربوية.

الدراسات السابقة:

حظي موضوع اتجاهات الطلبة باهتمام الدارسين والباحثين، مما أثرى المكتبـــة التربوية وزوّدها بعدد من الدراسات والمصنفات على وجه العموم. غير أن الدراســات التي تتناول اتجاهات الطلبة نحو الدراسة الشرعية على وجه الخصوص لم تتعـــدَّ الـــنزر اليسير، حسب علم الباحثين، بل إنها تكاد لا تتجاوز أن تكون نقيراً.

من الدراسات ذات الصلة بموضوع الدراسة: دراسة أحمد فهيم جبر(١٢) الـــتي أشارت إلى أن بعض طلبة كلية الدعوة وأصول الدين في جامعة القدس حملوا اتجاهـــات إيجابية نحو مدرّسيهم الذين كانوا قدوةً لطلبتهم، واتجاهات إيجابية نحو كليتـــهم الـــتي يدرسون فيها. وفي دراسة علي عبد الرزاق إبراهيم (١٣) حول البطالة، أشارت النتـــائج إلى أن ٢٣,١ % فقط من الطلبة الجامعيين ينظرون بإيجابية لما تعلّموه في الجامعـــة، وأن ٢١,٤ % منهم يرون أن ما تعلّموه لا يفيدهم في مجال العمل.

وفي دراسة للمخزومي (١٤) أظهرت النتائج أن طلبة كلية الشـــريعة يحملـــون اتجاهات إيجابية نحو اللغة العربية كموضوع، وأنهم يشعرون بأهمية اللغة العربية لهـــم،

بينما يرى أكثر من خُمُسهم أن مستوى مدرّسيهم وطرائق تدريسهم متوسط فما دون.

وتناولت دراسة الشوابكة [١٥] اتجاهات طلبة الكليات الرافدة لمهنة التعليم ومنها كلية الشريعة وأظهرت النتائج متوسطات عالية في الاتجاهات الإيجابية نحو مهنة التعليم في المجالين الاجتماعي والثقافي، ومتوسطات أقل في المجالين الاقتصادي والرغبات والميول.

فروض الدراسة:

تحدّدت فروض الدراسة على النحو التالي:

١. لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى α = ٠,٠٥ بين متوسطات اتجاهات طلبة كليات العلم الشرعي في جامعات الضفة الغربية نحو دراسة العلوم الشرعية حسب الجنس.

٢. لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى α = ٠,٠٥ بين متوسطات اتجاهات طلبة كليات العلم الشرعي في جامعات الضفة الغربية نحو دراسة العلوم الشرعية حسب معدّل امتحان الدراسة الثانوية.

٣. لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى α = ٠,٠٥ بين متوسطات اتجاهات طلبة كليات العلم الشرعي في جامعات الضفة الغربية نحو دراسة العلوم الشرعية حسب مستوى السنة الدراسية الجامعية.

٤. لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى α = ٠,٠٥ بين متوسطات اتجاهات طلبة كليات العلم الشرعي في جامعات الضفة الغربية نحو دراسة العلوم الشرعية حسب كلية الطالب.

محدّدات الدراسة:

اقتصرت الدراسة على عينة عشوائية طبقية من كليات العلـــم الشـــرعي في جامعات الضفة الغربية النظامية في فلسطين المحتلة والمسجلين للفصل الدراسي الثـــاني للعام الدراسي ١٩٩٨/٩٧م ضمن برنامج الشهادة الجامعية الأولى (البكـــالوريوس). وتتحدّد نتائج الدراسة بطبيعة الأداة المستخدمة للدراســـة ومـــدى شمولهـــا لمجـــالات الاتجاهات.

مصطلحات الدراسة:

الاتجاه نحو الدراسة: محصلة مشاعر الطلبة نحو تعلّم تخصّصهم والمتكونـــة بفعـــل الخبرة، والتعامل مع واقع ذلك التعلّم وأبعاده، والتي يكون لها القدرة علـــى تحريك الطالب وتوجيهه لاتخاذ مواقف التأييد أو المعارضـــة مـــن ذلـــك التخصص.

كليات الشريعة: الكليات المتخصّصة بتعليم فروع العلم الشـــرعي علـــى وجـــه القصد، وتشمل تلك الفروع: القرآن الكريم وعلومه، والحديث الشـــريف وعلومه، والفقه وأصوله، والعقيدة، وأنظمة الإســـلام، واللغـــة العربيـــة. وتأخذ تلك الكليات مسميّات متنوعة منها: أصول الديـــن، والشـــريعة، والقرآن، والحديث الشريف. وتضمّ هذه الكليات في الضفة الغربية أربـــع كليات هي: كلية الشريعة في جامعة الخليل وأنشئت عام ١٩٧١م، وكليـــة الدعوة وأصول الدين في جامعة القدس وأنشئت عـــام ١٩٧٨م، وكليـــة الشريعة في جامعة النجاح الوطنية في نابلس وأنشئت عام ١٩٩١م، وكليـــة القرآن والدراسات الإسلامية في جامعة القدس وأنشئت عام ١٩٩٦م.

الضفة الغربية: ذلك الجزء من أراضي فلسطين الواقع غربي نهر الأردن والذي كان قبل عام ١٩٦٧م جـــزءاً مـــن المملكـــة الأردنيـــة الهاشميـــة واحتلـــه اليـــهود

عام ١٩٦٧م، ثمّ أُعيدت مدنه الرئيسية -سوى القدس- وقسم من قراها إلى منظمة التحرير الفلسطينية ممثلة بالسلطة الفلسطينية ابتداء من عام ١٩٩٤م.

الدراسة الشرعية: الدراسة المتعلّقة بموضوعات ومباحث الدين الإسلامي وعلومه المختلفة التي تُدرّسها كليات الشريعة.

منهج الدراسة:

اتبعت الدراسة المنهج الوصفي المسحي منهجاً لها، بحيث تتم الإجابة عن أسئلة الدراسة من خلال استطلاع آراء عينة من مجتمعها للتعرّف على اتجاهاتهم وتحليلها.

مجتمع الدراسة:

تكوّن مجتمع الدراسة من طلبة كليات الشريعة في جامعات الضفة الغربية النظامية وهي: كلية الشريعة في جامعة الخليل، وكلية الشريعة في جامعة النجاح الوطنية، وكلية الدعوة وأصول الدين وكلية القرآن والدراسات الإسلامية في جامعة القدس خلال الفصل الثاني للعام الدراسي ١٩٩٨/٩٧م. وقد بلغ عددهم استناداً إلى معطيات دوائر القَبول والتسجيل في تلك الجامعات ١٠٣٦ طالباً وطالبةً.

عينة الدراسة:

عمد الباحثان إلى تحديد عدد طلبة كل كلية وَفقاً للجنس ومستوى السنة الدراسية، ثمّ جرى اختيار عينة عشوائية من كل طبقة مقدارها ٢٥ % وذلك نظراً لصغر حجم المجتمع. بلغ مجموع أفراد العينة ٢٦١ طالباً وطالبةً. ويبين الجدول رقم (١) توزيع أفراد مجتمع الدراسة وعينتها.

جدول رقم (١)

توزيع أفراد مجتمع الدراسة وعينتها* حسب الكلية ومستوى السنة الدراسية والجنس العدد الكلي (١٠٣٦)

مستوى سنوات الدراسة:	السنة الأولى		السنة الثانية		السنة الثالثة		السنة الرابعة		
الكليـــة	ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث	المجموع
الشريعة / جامعة الخليل	٤٨ (١٢)	٦٩ (١٧)	٢٨ (٠٧)	٥٠ (١٣)	٢٣ (٠٦)	٥٣ (١٣)	٣١ (٠٨)	٣٧ (٠٩)	٣٣٩ (٨٥)
الشريعة / جامعة النجاح	٤١ (١٠)	٥٠ (١٣)	٦٠ (١٥)	٦١ (١٥)	٦٣ (١٦)	٧٠ (١٨)	٣٥ (٠٩)	٤٢ (١١)	٤٢٢ (١٠٧)
الدعوة وأصول الدين/ ج. القدس	١٦ (٠٤)	٢٣ (٠٦)	٠٧ (٠٢)	١٥ (٠٤)	١٧ (٠٤)	٢١ (٠٥)	٢٤ (٠٦)	٤٥ (١١)	١٦٨ (٤٣)
القرآن والدراسات الإسلامية/ج. القدس	٠٩ (٠٢)	٣٦ (٠٩)	١٤ (٠٤)	١٨ (٠٥)	٠٩ (٠٢)	٢١ (٠٥)	٠٠ (٠٠)	٠٠ (٠٠)	١٠٧ (٢٧)
المجمـــــوع	١١٤ (٢٨)	١٧٨ (٤٥)	١٠٩ (٢٨)	١٤٤ (٣٧)	١١٢ (٢٨)	١٦٥ (٤١)	٩٠ (٢٣)	١٢٤ (٣١)	١٠٣٦ (٢٦١)

* يشير العدد بين الهلالين إلى العينـــة.

أداة الدراسة:

تمّ تصميم أداة خاصّة بالدراسة (استبانة) مكوّنة من جزأين. تضمّن الجـــزء الأول صفحة للمعلومات الأولية المتعلّقة بجنس الطالب، ومستوى دخل أسرته، ومعدّله في امتحان الدراسة الثانوية العامّة، ومستوى السنة الدراسية الجامعية، واســـم كليـة الطالب. أما الجزء الثاني فاشتمل على ٤٠ فقرة متصلة بالدراسة الشرعية، منـــها ٢٠ فقرة إيجابية و٢٠ فقرة سلبية، موزّعة على أحد عشر مجالاً على النحو التالي: المجـــال الديني في الفقرات (١٩، ٣٦، ٣٧، ٤٠)، والمجال الدراسي (الأكاديمي) في الفقـــرات (١٢، ١٧، ١٨، ٢٠، ٣٢)، ومجال أهمّية العلوم الشرعية في الفقـــرات (٦، ١٤، ٢٨،

٢٩، ٣٠، ٣١)، ومجال الرغبة بالعلوم الشرعية وتشويقها في الفقرات (١، ٢، ٣، ٤، ٧، ٩، ١١، ١٣، ١٥، ٢١، ٢٥، ٣٣)، ومجال الأسرة في الفقرة (١٦)، ومجال المدرسين والعلماء في الفقرات (٢٣، ٢٤، ٢٦، ٣٤، ٣٥)، ومجال الأصدقاء في الفقرتين (١٠، ٣٩)، ومجال إدارة الكلية وأنظمتها في الفقرتين (٢٧، ٣٨)، ومجال الأمن الشخصي في الفقرة (٥)، ومجال المكانة الاجتماعية في الفقرة (٢٢)، ومجال فرص العمل في الفقرة (٨).

وقد طُلب من المستجيب اختيار واحدة من البدائل المحدّدة أمام كل عبارة بوضع إشارة (☒) في الخانة الملائمة. وتحدّدت البدائل بخمسة وفق مقياس (ليكرت) الخماسيّ: أوافق بشدّة، أو أوافق، أو محايد، أو أعارض، أو أعارض بشدّة.

صدق الأداة:

تمّ التأكّد من صدق الأداة من خلال عرضها على عشرة محكّمين مختصّين في ميدان التربية من جامعة النجاح الوطنية، وجامعة القدس، وجامعة القدس المفتوحة، ومديرية التعليم الشرعي في إدارة الأوقاف الإسلامية في القدس. وقد وردت ردود سبعة منهم، حيث تمّ إجراء التعديلات أو التصويبات اللازمة على الأداة وَفقاً لمقترحاتهم وتصويباتهم. كذلك طُبّقت الأداة على عينة استطلاعية من مجتمع الدراسة خارج العينة الفعلية وأخذت ملاحظات أفرادها بعين الاعتبار في الصياغة النهائية للأداة.

ثبات الأداة:

جرى التأكّد من ثبات الأداة بحساب معامل الثبات بطريقة إعادة الاختبار وبطريقة (كرونباخ ألفا). فقد وُزّعت أداة الدراسة على عينة استطلاعية من مجتمع الدراسة بلغت ٢٢ طالباً وطالبةً من كلية القرآن والدراسات الإسلامية للاستجابة لها،

ثمّ أعيد توزيع الأداة على العينة نفسها بعد ثلاثة أسابيع. وتمّ احتساب قيمة القياسين القبليّ والبعديّ للعينة الاستطلاعية فبلغت (٠,٧٨) و(٠,٨١) على التوالي. وبلغت قيمة الثبات الكلية (٠,٧٥) حسب معادلة (كرونباخ ألفا).

المعالجة الإحصائية:

تمّ إعطاء الاستبانات المعادة الصالحة للتحليل وعددها ٢٤١ استبانة أرقاماً متسلسلة لإدخالها للحاسوب، ثمّ تمّت معالجة البيانات بعد إدخالها باستخدام برنامج الرزم الإحصائية (SPSS) لاحتساب المتوسطات الحسابية، والانحرافات المعيارية، والرتب، ومعامل الثبات (كرونباخ ألفا) Cronbach Alpha، وإجراء تحليل التباين الأحادي (One-Way ANOVA) لتحديد دلالة الفروق بين استجابات أفراد العينة، واختبار (شافيه) Scheffe لتوضيح نتائج المقارنات البعدية.

إجراءات تطبيق الدراسة:

بدأ تطبيق الدراسة بالاتصال بعمداء الكليات الشرعية الأربع التي تحدّدت للدراسة، وبمديري القَبول والتسجيل في جامعات الخليل والنجاح الوطنية والقدس لتحديد عدد أفراد مجتمع الدراسة وبالتالي عينتها. أجريت بعد ذلك زيارات ميدانية للكليات لترتيب توزيع أداة الدراسة وجمعها. بعد اختيار العينة وإعداد ترتيبات التوزيع، وزّعت الاستبانة على ٢٦١ طلباً وطالبةً بشكل فرديّ، وطُلب منهم الإجابة حسب التعليمات المحدّدة. تمّ استرجاع ٢٤٢ استبانة بنسبة (٩٢,٧%) من الاستبانات الموزّعة، وقد استبعدت استبانة واحدة من التحليل لعدم صلاحيتها، فبلغ عدد الاستبانات الصالحة التي تمّ تحليلها ٢٤١ استبانة.

وقد منحت الاستبانات المعادة أرقاماً متسلسلة لإدراجها في الحاسوب، ومنحت رتب الإجابات درجات رقمية بحيث أعطيت الفقرات الإيجابية الدرجات: أوافق بشدّة (٥ درجات)، وأوافق (٤ درجات)، ومحايد (٣ درجات)، وأعارض (درجتين)، وأعارض بشدّة (درجة واحدة)، بينما أعطيت الفقرات السلبية الدرجات: أوافق بشدّة (درجة واحدة)، وأوافق (درجتين)، ومحايد (٣ درجات)، وأعارض (٤ درجات)، وأعارض بشدّة (٥ درجات)، بحيث تقيس الأداة بمقياس موحّد موجب، فكلّما زادت الدرجة كان الدافع قويّاً أو ازدادت قوته، والعكس صحيح.

وقد اعتمد مفتاح للمتوسطات الحسابية بحيث اعتبرت المتوسطات (٣,٤١- ٥,٠٠) قوية، و المتوسطات (٢,٦١ - ٣,٤٠) متوسطة، والمتوسطات (١,٠٠ - ٢,٦٠) ضعيفة.

نتائج الدراسة:

فيما يتعلّق بالسؤال الأول حول العوامل المؤثرة في تكوين اتجاهات طلبة كليات الشريعة في جامعات الضفة الغربية نحو الدراسة الشرعية، ودرجة تأثير كل منها، فتشير النتائج إلى أن هناك أحد عشر عاملاً (تأتي بمثابة مجالات مكونة للاتجاهات) لها درجات تأثير مختلفة يظهرها الجدول رقم (٢)، وأن الطلبة بوجه عام يحملون اتجاهات إيجابية قوية نحو الدراسة الشرعية بلغ المتوسط الحسابي الكلي لها (٣,٩٧) بانحراف معياري (٠,٣٨) وَفقاً لمفتاح المتوسطات الحسابية المعتمد في الدراسة.

وبخصوص السؤال الثاني حول ترتيب الطلبة للمجالات المكونة لاتجاهاتهم نحو الدراسة الشرعية في كلياتهم، فيبين الجدول رقم (٢) نتائج ذلك وَفقاً للمتوسطات الحسابية.

جدول رقم (٢)

ترتيب المجالات المكونة لاتجاهات طلبة كليات الشريعة نحو الدراسة الشرعية

الرقم	المجال	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	الرتبة
١	الديـــني	٤,٣٦	٠,٥٩	١
٢	الدراسي (الأكاديمي)	٣,٤٠	٠,٦٤	١٠
٣	أهمّية العلوم الشرعية	٤,٠٧	٠,٥٠	٥
٤	الرغبة بالعلوم الشرعية وتشويقها	٤,١٤	٠,٤٦	٤
٥	الأسرة	٣,٩٩	٠,٩٤	٦
٦	المدرّسون والعلماء	٣,٨٨	٠,٧٣	٨
٧	الأصدقاء والزملاء	٤,٣٥	٠,٦٥	٢
٨	إدارة الكلية وأنظمتها	٣,١٦	١,٠١	١١
٩	الأمن الشخصي	٣,٩٤	١,٠٨	٧
١٠	المكانة الاجتماعية	٤,٢٩	٠,٧٣	٣
١١	فرص العمـــل	٣,٧١	١,١٠	٩

ويتبين من معطيات الجدول رقم (٢) أن الطلبة أظهروا اتجاهات قوية نحو الدراسة الشرعية في جميع المجالات، سوى في المجال الدراسي (الأكاديمي) ومجال إدارة الكلية وأنظمتها، حيث كانت الاتجاهات متوسطة. وقد كان أقوى الاتجاهات (المتوسط الحسابي = ٤,٣٦) في المجال الديني الذي احتلّ المرتبة الأولى، ويليه مجال

الأصدقاء والزملاء (المتوسط الحسابي = ٤,٣٥) الذي احتلّ المرتبة الثانية. واحتلّ المجال الدراسي (الأكاديمي) المرتبة العاشرة (المتوسط الحسابي = ٣,٤٠) ومجال إدارة الكلية وأنظمتها المرتبة الحادية عشرة (المتوسط الحسابي= ٣,١٦).

وفيما يتعلّق بنتائج فروض الدراسة، فقد نصّ الفرض الأول على عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى دلالة (α = ٠,٠٥) بين متوسطات اتجاهات طلبة كليات الشريعة في جامعات الضفة الغربية نحو الدراسة الشرعية حسب الجنس. ويبن الجدول رقم (٣) نتائج ذلك الفرض.

جدول رقم (٣)

تحليل التباين الأحادي للفروق بين المتوسطات الحسابية لاتجاهات طلبة كليات الشريعة نحو الدراسة الشرعية حسب الجنس

مصدر التباين	درجة الحرية	مجموع المربعات	متوسط المربعات	قيمة "ف"	مستوى الدلالة
بين المجموعات	١	١,١٥٦	١,١٥٦	٧,٨٩	٠,٠٠٥١*
داخل المجموعات	٢٣٩	٣٥,٠٣٦	٠,١٤٦		
المجموع	٢٤٠	٣٦,١٩٣			

* دالة عند مستوى α = ٠,٠٥

يتضح من الجدول رقم (٣) أن قيمة "ف" بلغت (٧,٨٩) مما يدلّ على وجود فروق دالّة إحصائياً، وقد جاءت الفروق لصالح الإناث، إذ إنّ متوسط اتجاهات الإناث بلغ (٤,٠٣) وهو أقوى من متوسط اتجاهات الذكور (٣,٨٩)، وبذلك يتم رفض الفرض الأول.

ونصّ الفرض الثاني على عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى دلالة (α = ٠,٠٥) بين متوسطات اتجاهات طلبة كليات الشريعة في جامعات الضفة الغربية نحو الدراسة الشرعية حسب معدّل امتحان شهادة الدراسة الثانوية العامّة. ويبن الجدول رقم (٤) نتائج ذلك الفرض.

جدول رقم (٤)

تحليل التباين الأحادي للفروق بين المتوسطات الحسابية لاتجاهات طلبة كليات الشريعة نحو الدراسة الشرعية حسب معدّل امتحان الدراسة الثانوية العامّة

مصدر التباين	درجة الحرية	مجموع المربعات	متوسط المربعات	قيمة "ف"	مستوى الدلالة
بين المجموعات	٢	١,٧٣٧	٠,٨٦٨	٥,٩٨	٠,٠٠٢٩*
داخل المجموعات	٢٣٣	٣٣,٨٦١	٠,١٤٥		
المجموع	٢٣٥	٣٥,٥٩٩			

* دالة عند مستوى α = ٠,٠٥

يتضح من الجدول رقم (٤) أن قيمة "ف" بلغت (٥,٩٨) مما يدلّ على وجود فروق دالّة إحصائياً، وبذلك يكون الفرض الثاني للدراسة غير مقبول. وقد جاءت أقوى متوسطات الاتجاهات لصالح طلبة الفئة الثالثة ذوي المعدّلات العالية، إذ بلغ متوسطها (٤,١٣). وتدلّ نتيجة المقارنات البعدية باستخدام اختبار (شافيه) كما يوضحها الجدول رقم (٥) أن الفروق ذات الدلالة الإحصائية كانت بين استجابات الطلبة ذوي المعدّلات العالية من الفئة الثالثة وكلّ من الطلبة ذوي المعدّلات من الفئتين الأولى والثانية.

جدول رقم (٥)

نتيجة اختبار (شافيه) لمقارنة متوسطات اتجاهات الطلبة ذوي فئات معدّلات امتحان الدراسة الثانوية العامّة

المتوسط	فئات المعدّل	٦٩,٩ فما دون	٧٠ - ٧٩,٩	٨٠ فما فوق
٣,٩٠	٦٩,٩ فما دون			
٣,٩٥	٧٠ - ٧٩,٩			
٤,١٣	٨٠ فما فوق	***	***	

*** ذات دلالة إحصائية بين المجموعتين عند مستوى (α = ٠,٠٥)

ونصّ الفرض الثالث على عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى دلالة (α = ٠,٠٥) بين متوسطات اتجاهات طلبة كليات الشريعة في جامعات الضفة الغربية نحو الدراسة حسب مستوى السنة الدراسية في الجامعة. ويبن الجدول رقم (٦) نتائج ذلك الفرض.

جدول رقم (٦)

تحليل التباين الأحادي للفروق بين المتوسطات الحسابية لاتجاهات طلبة كليات الشريعة نحو الدراسة الشرعية حسب مستوى السنة الدراسية الجامعية

مصدر التباين	درجة الحرية	مجموع المربعات	متوسط المربعات	قيمة "ف"	مستوى الدلالة
بين المجموعات	٣	١,٥٣٢	٠,٥١٠	٣,٤٩	٠,٠١٦٤*
داخل المجموعات	٢٣٧	٣٤,٦٦٠	٠,١٤٦		
المجموع	٢٤٠	٣٦,١٩٣			

* دالة عند مستوى α = ٠,٠٥

ويتضح من الجدول رقم (٦) أن قيمة "ف" بلغت (٣,٤٩) للدرجة الكلية، ويدلّ ذلك على وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات اتجاهات الطلبة نحو

الدراسة الشرعية في مستويات السنوات الأربعة، وبذلك يكون الفرض الثالث غير مقبول. وقد كان أقوى المتوسطات (٤,٠٩) لطلبة السنة الأولى، وأدناه (٣,٨٩) لطلبة السنة الثالثة. وتدلّ نتيجة المقارنات البعدية باستخدام اختبار (شافيه) كما يوضحها الجدول رقم (٧) أن الفروق ذات الدلالة الإحصائية كانت بين استجابات طلبة السنة الأولى وكلّ من طلبة السنوات الثانية والثالثة والرابعة.

جدول رقم (٧)

نتيجة اختبار (شافيه) لمقارنة متوسطات اتجاهات الطلبة في سنوات الدراسة الأربعة

المتوسط	مستوى السنة	الأولى	الثانية	الثالثة	الرابعة
٤,٠٩	الأولى		***	***	***
٣,٩٤	لثانية				
٣,٨٩	الثالثة				
٣,٩٥	الرابعة				

*** ذات دلالة إحصائية بين المجموعتين عند مستوى (α = ٠,٠٥)

ونصّ الفرض الرابع على عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى دلالة (α = ٠,٠٥) بين متوسطات اتجاهات طلبة كليات الشريعة في جامعات الضفة الغربية نحو الدراسة الشرعية حسب كلية الطالب. يبين الجدول رقم (٨) نتائج ذلك الفرض.

جدول رقم (٨)

تحليل التباين الأحادي للفروق بين المتوسطات الحسابية لاتجاهات طلبة كليات الشريعة نحو الدراسة الشرعية حسب الكلية

مصدر التباين	درجة الحرية	مجموع المربعات	متوسط المربعات	قيمة "ف"	مستوى الدلالة
بين المجموعات	٣	٢,٦٨٩	٠,٨٩٦	٦,٣٤	٠,٠٠٠١*
داخل المجموعات	٢٣٧	٣٣,٥٠٣	٠,١٤١		
المجموع	٢٤٠	٣٦,١٩٣			

* دالة عند مستوى α = ٠,٠٥

يتضح من الجدول رقم (٨) أن قيمة "ف" بلغت (٦,٣٤) وهي دالّة إحصائياً، وبالتالي فإن الفرض الرابع غير مقبول أيضاً. وعلى الرغم من قوة المتوسطات على وجه العموم، غير أنها تفاوتت في قوتها، وقد كان أقوى المتوسطات لصالح طلبة كلية القرآن والدراسات الإسلامية في جامعة القدس، إذ بلغ (٤,٢٠)، ويليه متوسط اتجاهات طلبة كلية الدعوة وأصول الدين في جامعة القدس أيضاً (٤,٠١)، بينما كان أقل المتوسطات لدى طلبة كلية الشريعة في جامعة الخليل (٣,٨٥). وتشير نتائج اختبار (شافيه) للمقارنات البعدية، كما يوضحها الجدول رقم (٩)، إلى أن الفروق ذات الدلالة الإحصائية كانت بين استجابات طلبة كلية القرآن والدراسات الإسلامية في جامعة القدس وكلّ من طلبة كلية الدعوة وأصول الدين في جامعة القدس وطلبة كلية الشريعة في جامعة النجاح وطلبة كلية الشريعة في جامعة الخليل.

جدول رقم (٩)

نتيجة اختبار (شافيه) لمقارنة متوسطات اتجاهات الطلبة في الكليات الأربعة

المتوسط	الكليـــة	الشريعة/ الخليل	الشريعة/ نابلس	الدعوة وأصول الدين	القـــــرآن والدراســـات الإسلامية
٣,٨٥	الشريعة/ الخليل				
٣,٩٩	الشريعة/ نابلس				
٤,٠١	الدعوة وأصول الدين				
٤,٢٠	القرآن والدراســات الإسلامية	***	***	***	

*** ذات دلالة إحصائية بين المجموعتين عند مستوى (α = ٠,٠٥)

مناقشة النتائج:

أظهرت نتائج الدراسة الحالية أن الطلبة بوجه عام يحملون اتجاهــات إيجابيــة قوية نحو الدراسة الشرعية. وتنسجم تلك النتائج مع الاعتقاد السائد بأن المتخصصــين بدراسة موضوع ما يتفوقون في نظرهم الإيجابية نحو تخصصهم، كما أنه من المنطقي أن يحمل طلبة العلم الشرعي اتجاهات إيجابية قوية نحوه حيث إنه يُهذّب النفوس ويُزكّــي القلوب ويُصحّح الأفكار، ويرفع شأن صاحبه -إن اتقى- في الدنيا والآخرة.

كما أظهرت النتائج أن المجال الديني حاز على أقوى الاتجاهات نحوه، ويــدلّ ذلك على إدراك الطلبة لطبيعة العلم الشرعي وتمييزهم إياه عمّا سواه. وتنسجم المرتبة التي حاز عليها مجال الأصدقاء والزملاء مع التأثير الذي يلعبه الأصدقاء في أصدقائــهم، ويشهد على ذلك قوله تعالى: {الأَخِلاَّءُ يَومَئِذٍ بَعضُهُم لِبَعــضٍ عَــدُوٌّ إلاّ المُتَّقِــينَ} [الزخرف، الآية ٦٧]. وبخصوص المرتبة المتقدّمة التي حازها مجال المكانة الاجتماعيــة فيعكس ذلك الصحوة العامة في المجتمع نحو الإسلام وتقدير أفراده للعلماء وخرّيجــي

العلم الشرعي. أما المرتبتان المتأخرتان اللتان نالهما مجالا إدارة الكلية والمجال الدراسي فتعكس عدم الرضا عنهما لدى الطلبة، مما يمكن تفسيره بأن إدارات الكليات وأنظمتها لا تُراعي دائماً -وبشكل متفوق- تطلعات الطلبة وحاجاتهم، وأن المواد والخطط الدراسية تعجز إلى حدّ ما عن تلبية رغبات الطلبة وميولهم وتطلعاتهم. أما المرتبة التاسعة التي نالها مجال فرص العمل للخرّيجين فيمكن تفسيرها بأنها انعكاس لواقع أن فرص العمل ليست ميسورة دائماً. وتتفق المرتبة غير المتقدمة التي حازها كل من المجال الدراسي ومجال فرص العمل مع نتائج دراسة المخزومي (١٩٨٩) وإبراهيم (١٩٩٥).

وقد أظهرت النتائج وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين الذكور والإناث في اتجاهاتهم نحو الدراسة الشرعية لصالح الإناث. وتتفق هذه النتيجة مع انخفاض عدد الذكور مقابل عدد الإناث في تلك الكليات، لكنها لا تنسجم مع حقيقة بروز علماء أجلاء من الرجال نذروا أنفسهم لعلوم الدين على مدار تاريخ الإسلام منذ القرن الهجري الأول. وقد يعود ذلك الفرق إلى الظروف التي يعيشها المجتمع المحلي من عدم الاستقرار في حياة الخريجين سياسياً واقتصادياً ووظيفياً، وإلى إدراك الإناث لفائدة العلم الشرعي -على وجه الخصوص- في حياتهن: بناتٍ وزوجاتٍ وأمهاتٍ، دون أن يكون تعلمهن بغرض العمل خارج المترل.

أما بالنسبة لمعدّل الطالب في امتحان الدراسة الثانوية، فقد دلت النتائج على وجود فروق ذات دلالة إحصائية في اتجاهات الطلبة وَفقًا له لصالح ذوي المعدلات العالية. ويشير ذلك إلى أن التفوق الدراسي له أثره في حمل اتجاهات إيجابية نحو الدراسة. كذلك يمكن أن يُعزى ذلك إلى أن عدداً من الطالبات في كليات الشريعة هنّ من ذوات المعدّلات العالية وأنهنّ يطلبن العلم الشرعي ويلتحقن بمعاهده رغبةً فيه ذاته وليس من أجل الإعداد للعمل. وتدحض هذه النتيجة ما تقوم به بعض كليات

الشريعة من التساهل في قَبول الطلبة ذوي المعدّلات المنخفضة، إذ لا مبرّر لذلك، وينبغي الحرص على التحاق الطلبة المجدّين في تحصيلهم بالدراسة الشرعية.

وأشارت النتائج أيضاً إلى تباين اتجاهات الطلبة نحو الدراسة الشرعية حسب مستوى السنة الدراسية في الجامعة، وذلك لصالح طلبة السنة الأولى. ويمكن أن يفسر ذلك بأنه ناتج عن قوة دوافعهم للالتحاق بالدراسة الشرعية تديناً ورغبةً فيها، وتأثراً بزملائهم بعيداً عن القلق على المكانة الاقتصادية والأمن الشخصي لهم. أما التراجع النسبي لقوة الاتجاهات نحو الدراسة الشرعية لدى طلبة السنوات اللاحقة، فيمكن أن يستنتج منه وجود بعض المعوقات التي قد تكون مرتبطة بالتدريس، أو بيئات الكليات، أو الظروف المحيطة بالطلبة في الجامعات.

وأخيراً، أشارت النتائج إلى تفوق طلبة كلية القرآن والدراسات الإسلامية في اتجاهاتهم على زملائهم في الكليات الأخرى. ويمكن أن يُعزى ذلك إلى أن غالبية طلبة كلية القرآن والدراسات الإسلامية هم من الإناث اللواتي حملن اتجاهات أقوى من اتجاهات الذكور نحو الدراسة الشرعية، وإلى الإغراءات التي توفرّها الدراسة في الكلية لطلبتها.

وبشكل عام، فإن اتجاهات طلبة كليات الشريعة نحو دراسة العلوم الشرعية إيجابية، وإن الفروق في متوسطات تلك الاتجاهات تدعو لمزيد من النظر فيها لسبر أغوارها، من أجل تنمية الاتجاهات الإيجابية ورعايتها.

التوصيات:

في ضوء هذه النتائج، توصي الدراسة بما يلي:

١. إعادة النظر في سياسات إدارات كليات الشريعة وأنظمتها وما يتطلبه ذلك من مراجعة للتعليم الشرعيّ تخطيطاً وتمويلاً وإدارةً وإشرافاً وتدريساً من حيث أهدافه ومناهجه ومؤسساته واختيار طلبته، وحثّهم على طلبه وترغيبهم بذلك.

٢. إظهار التقدير والاحترام لخريجي معاهد العلم الشرعي والاهتمام بتوظيفهم وعدم اضطهادهم، وتتحمّل مسئولية ذلك بشكل خاصّ وزارات التربية والتعليم، والتعليم العاليّ، والأوقاف والشؤون الإسلامية، والمالية، والإعلام إضافةً إلى إدارات الجامعات والمدارس الثانوية.

٣. اهتمام كليات العلوم الشرعية برعاية الاتجاهات الإيجابية نحو العلم الشرعي لدى طلبتها، بحيث تتعزّز لديهم الرغبة بدراسة العلوم الشرعية والعمل بمقتضياتها، فيكون الطلبة والخرّيجون قدوةً لغيرهم ودافعاً لإقبال الآخرين على الدراسة الشرعية.

٤. دراسة أسباب تفوّق الطالبات على الطلاب في كليات العلوم الشرعية في جامعات الضفة الغربية من حيث العدد وقوة الاتجاهات نحو الدراسة الشرعية، ودراسة العوامل المؤثرة في انحدار الخط البياني لاتجاهات الطلبة نحو الدراسة الشرعية بعد السنة الأولى.

الحواشي

١. محمد السيد يوسف، **التمكين للأمّة الإسلامية** (القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة،١٩٩٧)،ص.٦٢.

٢. الحافظ أبو عبد الله ابن ماجه، **سنن ابن ماجة** (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٢)، ج١،١٧/٢٢٤.

٣. عباس محجوب، **أصول الفكر التربوي في الإسلام** (عجمان: مؤسسة علوم القرآن،١٩٨٧)،محمد عبد القادر عابدين، **تاريخ التعليم الشرعي في مدينة القدس ١٩٤٨-١٩٨٨** (القدس: مركز القدس للأبحاث والتوثيق،١٩٨٨).

٤. محمد عبد القادرأبو فارس، **أسس الدعوة ووسائل نشرها** (عمان: دار الفرقان،١٩٩٢).

٥. يوسف، **المرجع المذكور**.

٦. عبد الغفارعزيز، "المشكلات التي تواجه الدعوة الإسلامية في العالم الإسلامي وخارجه". **بحوث مؤتمر دور الجامعات الإسلامية في تكوين الدعاة وندوة التنسيق بين كليات الشريعة** (القاهرة: جامعة الأزهر، ١٩٨٨) ، ج٢،ص ص.١٠٧-٢٣٩.

٧. أحمد العسّال، "دور الجامعات الإسلامية في تطبيق الشريعة في المجتمعات المسلمة". **بحوث مؤتمر دور الجامعات الإسلامية في تكوين الدعاة وندوة التنسيق بين كليات الشريعة** (القاهرة: جامعة الأزهر،١٩٨٨)،ج١٠،ص ص.٦١-٧٧.

٨. يحيى هاشم فرغل،"عزوف الطلاب عن الالتحاق بمعاهد الدعوة: أسبابه وعلاجه" **بحوث مؤتمر دور الجامعات الإسلامية في تكوين الدعاة**

وندوة التنسيق بين كليات الشريعة (القاهرة: جامعة الأزهر، ١٩٨٨)، ج٢٠، ص ص ١٩٧-٢١٠.

٩. عابد توفيق الهاشمي، **طرق تدريس الدين**، ط ٢ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٧٤).

١٠. أحمد بن محمد ابن قدامة المقدسيّ، **مختصر منهاج القاصدين**، ط ٤ (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٧٣).

١١. محمد عابدين وابراهيم خليل عوض الله، "بعض دوافع الطلبة الجامعيين للالتحاق بالتعليم الشرعي في الضفة الغربية" **مجلة البحوث والدراسات التربوية الفلسطينية**، ١-٢(١٩٩٨)، ص ص. ١٣٩-١٦١.

١٢. أحمد فهيم جبر، "مصادر التنشئة الدينية الإسلامية للشباب الجامعي الفلسطيني"، **هُدى الإسلام**، ١٥-٥ (١٩٩٧)، ص ص. ١٢-٢٣.

١٣. علي عبد الرازق إبراهيم، "التعليم الجامعي وظاهرة البطالة بين خرّيجي الجامعات: دراسة تطبيقية في محافظة المنيا"، **المجلّة العربية للتعليم العالي**، ١(١٩٩٥)، ص ص. ٥٠-٧٨.

١٤. أمل علي المخزومي، "سلوك واتجاه طلبة كلية الشريعة بجامعة التاسع من أيلول بإزمير نحو اللغة العربية"، **رسالة الخليج العربي**، ١٠-٣١(١٩٨٩)، ص ص. ٦١-٩١.

١٥. محمد سالم الشوابكة، "دراسة اتجاهات طلبة الكليات الرافدة لمهنة التعليم في الجامعة الأردنية نحو مهنة التعليم"، **دراسات العلوم التربوية**، ١٣-٦ (١٩٨٦).

إشكالية التحيز وأحكام القيمة في علم الاجتماع

د. كلثم علي الغانم

قسم الاجتماع - جامعة قطر

ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن إمكانيات تحقيق الموضوعية في علم الاجتماع، وذلك من خلال فحص العلاقة بين الظاهرة الاجتماعية بوصفها حقيقة موضوعية، من ناحية، وبدرجة تخلص الباحث من ذاتيته، ومن ناحية أخرى، على اعتبار أن الأخير جزء من الواقع الاجتماعي، الذي يشهد ثنائية في التعبير: الأولى واقعية ملموسة، والأخرى معيارية نسبية. وهذا الاختلاف الذي تتصف به الحياة الاجتماعية يؤدي إلى تصورات حول حقيقة الواقع الاجتماعي، يتم التعبير عنها من خلال الذاتية والموضوعية في وقت واحد.

وإذا كان علم الاجتماع في مسيرته الطويلة قد ناقش هذه القضية نقاشا مستفيضا، إلا أن ذلك لم يؤد في النهاية إلى تجاوز هذه المعضلة، بل ظهرت تيارات تنادي بعدم إمكانية تحقيق الحيدة الخلقية الخالصة التي نادي بها البعض في مجال البحث الاجتماعي، بل أنها غير مطلوبة أساسا، في ضوء غائية وقيمة المواقف الاجتماعية المدروسة ونسبيتها أيضا. وإذا كان تطوير المناهج يعتبره البعض حلا، فإن البعض الآخر يرى عدم جدوى ذلك. فمخاطر التحيز لا يمكن إبعادها إلا من خلال التأمل

العقلي والنقد الذاتي. وبذلك تستمر جدلية موقف الباحث وذاتيته والقدرة على تحقيق الموضوعية.

وتخلص الدراسة إلى أن تخليص علم الاجتماع من المواقف الذاتية وأحكام القيمة شبه مستحيل، في حال ما إذا أردنا أن نقدم تحليلاً عميقاً لأبعاد الظاهرة الاجتماعية ومضامينها المعيارية والموضوعية. فالتحليل العقلي المتعمق والتأمل النقدي للموقف الذي يعايشه الباحث عند فحصه للواقع الاجتماعي، يساعده في أغلب الأحيان على تفسير أبعاد الواقع بصورة أعمق وأصدق من اعتماده على المناهج والأدوات التقنية المصطنعة.

The Bias and Judgment Problem in Sociology

Dr. Kaltham A. Al-Ganim
Faculty of Arts
Qatar University

Abstract

This study aims at examining the possible degree of objectivity in sociology, which in this case has been studied by exploring the kind of relationship between social phenomena, as social facts, on the one hand, and the degree of subjective disposition of the researcher, on the other, assuming that the later is part of what is social, which is both an empirical fact or an objective and a relative meaning; such conflicting positions of the social world have lead to conflicting perspectives of the social reality, as expressed through subjectivity and objectivity.

This issue has long been discussed by sociologists, but no final answers have been attained. Some trends maintain the impossibility of absolute neutralism which some researchers have called for. Moreover, it is often argued that it is not even required in the first place in the values of social situations.

Some scholars call for the development of methods, others decline due to the lack of feasibility. The danger of partiality can only be separated through thoughtful pondering and self-criticism. Thus the researchers argument is maintained, together with his ability to achieve objectivity.

The study concludes that the effort of to free itself from personality, subjectivity and value judgment is almost impossible if we want to introduce a deep analysis of the social phenomenon and its normative and objective cores. The thoughtful and deep analysis and critical pondering assist the researcher in most cases to interpret the social reality in depth. This is better than depending on methods and technical instruments only.

مقدمة:

يسعى علم الاجتماع إلى تحقيق هدفين مثاليين من أهداف العلم وهما: وضوح الرؤية، من جهة، والدقة القاطعة، من جهة أخرى. ولكن تواجهه مشكلات عويصة تحد من قدرته على تحقيق هذه الأهداف لعل أهمها هو تعقد نطاق البحث. فالمجتمع الإنساني يتكون من وحدات معنوية تتمثل في أنساق قيم ومعايير ونظم لا يستدل عليها إلا من خلال وسيط هو السلوك الواقعي في محيط من التفاعل الاجتماعي الذي تتعدد أشكاله وتتداخل مكوناته وتترابط.

فالمجتمعات الإنسانية تعتبر بيئة غير متوازنة إلى حد بعيد. فمكوناتها تتغير خلال فترة زمنية قصيرة، سواء عندما يقاس ذلك بالزمن البيولوجي للجيل الواحد، أو حتى بالزمن العقلي على المستويين الخاص أو العام (الفرد أو المجتمع)، حيث تتوفر بها خاصية تغير الأفكار ومستويات المعرفة التي تعتبر أكثر أشكال التغير تأثيراً في حياة المجتمعات، وبالتالي في شكل الظواهر الاجتماعية ومضمونها وسياقها.

وبالإضافة إلى تعقد المجال وكونه بناء معيارياً لا حدود جغرافية تقيده ولا زمان يؤطر أبعاده، فإن خاصية أخرى تميز هذا المجال وهي نسبيته التي قد تتفاعل ببطء مع أنماط البناء وأشكاله البسيطة، أو تتسارع في علاقة تبادلية بين تعقد البناء وتغيره، الذي يفرز أشكالاً لا نهائية من العلاقات التركيبية التي لا يمكن في ضوئها فصل العوامل عن بعضها البعض، حيث يختلط الاقتصادي بالاجتماعي بالسياسي بالأيدلوجي... وهكذا.

ولذلك فإن علم الاجتماع عندما يبني فرضياته ويصوغ تعميماته، فإنما يواجه نطاقاً واسعاً من العلاقات المعقدة والمتغيرة باستمرار، الأمر الذي يجعل من الصعوبة بمكان حدوث نمو تراكمي في القضايا النظرية التي يتبناها، والاستنتاجات أو التعميمات المشتقة منها (فالقانون الوحيد الثابت هو قانون التغير والحركة النسبية، وليس قانون

الثبات والسكون والإطلاق). فالطبيعة المتغيرة للظواهر الاجتماعية تقتضي صياغة متغيرة للنظرية الاجتماعية. وفي هذا الصدد يذهب بوتومور Bottomore إلى أن هذه الحقيقة هي التي تجعل من العلوم الاجتماعية ذات طبيعة مختلفة عن العلوم الطبيعية، فهي تبحث عن المعنى وتسعى إلى تقديم التفسير السببي الذي تتم صياغته في قانون عام ثابت.[1]

ففي الوقت الذي تتفق فيه النظرية الاجتماعية مع النظريات العلمية من حيث بناؤها ووظائفها، نجد أنها تختلف معها من حيث مضمونها، فالنظرية الاجتماعية تهدف إلى تقديم تصورات وتفسيرات للحياة الاجتماعية، وهي تضع في اعتبارها أن المجتمع مجال متغير بصورة قد لا تتيح للعلم الاجتماعي القدرة على التنبؤ بما ستؤول إليه الأوضاع في حالة توفر الظروف الموضوعية التي يتوقع منها أن تؤدي إلى ذلك التغير، أو بالأحرى الشكل الجديد الذي يمكن أن تتمحور وتتبدل إليه الأوضاع القديمة، والتي قد تختلف من حيث الشكل والمضمون أيضاً من مجتمع إلى آخر، ومن مرحلة زمنية إلى أخرى. بل أن ما يمكن أن يؤثر في مجتمع ما قد يحتاج إلى عوامل ومتغيرات أخرى لكي يؤثر في مجتمع آخر. وهكذا تستمر الإشكاليات النظرية الأولية التي يواجهها علم الاجتماع كأحد فروع المعرفة العلمية.

وإلى جانب الظروف المتغيرة، حسب الخبرة التاريخية لكل مجتمع، يجب أن لا نستبعد أيضاً تأثر الظواهر الاجتماعية بقرارات الأفراد التي تختلف باختلاف خبراتهم الشخصية، والتي لها دور أساسي في خلق أنماط جديدة من العلاقات والظواهر. وفي بعض الحالات تقف الارداة البشرية حائلاً أمام التغيير عندما تتمسك بالأشكال الاجتماعية القديمة، وتحد بالتالي من قدرة المتغيرات الاجتماعية على التأثير في الواقع الاجتماعي وتغييره نحو الأشكال المتوقعة.

وعند هذا الحد فإن الإنسان كائن له دوره المؤثر في المحيط الاجتماعي الذي يتفاعل معه. ولذلك فعندما نؤسس علماً يبحث في هذا المجال المتفاعل والمتغير فإن المبادئ والاستنتاجات التي نتوصل إليها ليست فقط قابلة للتغير بتغير الظروف أو الإطار الاجتماعي والزمني الذي اشتقت من خلاله، ولكنها أيضاً متأثرة بموقف الإنسان من هذا المحيط أو الإطار الاجتماعي. والباحث الاجتماعي جزء من هذا الموضوع، يتأثر بالسياق الفكري والموضوعي السائد، الأمر الذي يثير إشكالية أخرى تتعلق بدرجة الدقة والموضوعية التي يمكن أن يمارسها الباحث، وما ينتج عن ذلك من نتائج وحقائق علمية، خصوصاً عندما نسلم بحقيقة أن الباحث المهتم بشؤون مجتمعه والمجتمعات الإنسانية عامة، قلما يتخذ موقفاً محايداً تماماً عن موضوع اهتماماته.

وهذه الحقيقة ولدت معضلة أخرى تواجه الباحثين الاجتماعين، هي قضية "الانتقاء"، وهو المبدأ الذي أصبح ضرورياً نتيجة ذلك التنوع الذي يظهره الواقع الاجتماعي، حيث لا يمكن للباحث أن يقوم بوصف كل شيء، وعليه فإن المهمة الأولية تتمثل في انتقاء ظاهرة معينة يقوم بدراستها ووصفها[٢].

ولكن "الانتقائية"، بدورها ولدت مشكلة أخرى لا تظهر إلا في العلم الاجتماعي ألا وهي تدخل "ذاتية" الباحث في عملية الانتقاء هذه. فهو إنما ينتقي ظاهرة يهتم بها وتثير لديه تساؤلات معينة مما يؤثر على موضوعيته عند الدراسة.

ويدخل هذا أيضاً ضمن الاختلافات بين العلم الطبيعي والعلم الاجتماعي. فعلم الاجتماع هو علم مصطنع لدراسة الإنسان في جميع علاقاته الاجتماعية. فهو يفترض أن وحدات الدراسة هي "الناس" و" العلاقات"، وذلك بخلاف العلم الطبيعي الذي تتكون وحدات دراسته من "الأشياء" و "المسببات". كما أن الاختلاف الأساسي الآخر يتمثل في أن علم الاجتماع يضع في اعتباره أهداف البشر التي يسعون إليها [٣]. ولذلك فإن منطق الظاهرة الاجتماعية يتضمن أبعادا موضوعية تتمثل في

معطياته من بشر وعلاقات، كما يتضمن أبعاداً فكرية ومعنوية تظهر في مجموعة المفاهيم التي نشأت نتيجة التجرد العقلي وتفسر لنا أهداف هذا الواقع الموضوعي. ولذلك حسبما يرى كارل مانهايم Mannheim . فإن الباحث لا يمكن أن يفسر الظاهرة إلا من خلال مفاهيمه التي يملكها عن الحياة الاجتماعية والتي يشترك فيها مع باقي أعضاء المجتمع (٤) .

إشكالية الدراسة:

إذا كان على الباحث أن يستعين بالأنماط التصورية والأنساق المنطقية في تقديم صورة أو رؤية أوضح عن الظاهرة المفحوصة، فإن مسيرة تطور علم الاجتماع تشير إلى أن معيار الدقة الذي يسعى إليه قد اتخذ أبعادا كمية اعتبرت لفترة طويلة هي المعيار الأساسي الذي يثبت موضوعية هذا الفرع من فروعه المعرفة (٥) . وهي القضية التي تطرح بقوة عند دراسة الظواهر الاجتماعية التي هي في الأساس غير مادية، فالعلم لا يستطيع أن يصدر حكماً على كرامة الإنسان أو العدالة أو العقيدة... الخ. فهذه المفاهيم لا يمكن الكشف عنها وصياغتها في شكل قانون فهي ليس لها وجود مادي، ولكنها موجودة في العقل والإحساس، ولا يقلل ذلك من حقيقتها (٦) .

ومع ذلك فمن الصعوبة بمكان تفسير الكلمة أو شرحها بواسطة كلمات أخرى ترتبط معها بانتظام، والتي عادة ما تكون بدون برهان إمبريقي. وإلى ذلك فإلى أي حد تكون الموضوعية مضمونة في ضوء التكرار المستمر للمفاهيم والأفكار، وحتى يمكن التوصل إلى النقطة الدالة على المعنى الحقيقي للمفهوم، وتعرضها أثناء ذلك إلى التفسير المرتبط بالشعور أو بالمعنى الذاتي للمفهوم. وما هي احتمالات وقوع المرء في معضلة اللا موضوعية في صياغته لمفاهيم لم يتمكن من فهمها فهماً كاملاً (٧). وهذا يقودنا إلى مشكلة رئيسية تمثل أهم المعوقات التي تقلل من قدرة علم الاجتماع على

تحقيق "الموضوعية " Objectivity أو العلمية، ألا وهي التحيز وأحكام القيمة The bias and value judgment ، وتأتي هذه الدراسة كمحاولة لتوضيح الحدود بين إمكانيات الواقع الاجتماعي المادية والموقف المعياري الذي تتكشف عنه، وبين إمكانيات الباحث الاجتماعي المنهجية وتفضيلاته القيمة.

فمن أبرز الاعتبارات التي تتحدى منزلة علم الاجتماع كعلم هي مطالبته بالتمييز بين الحقيقة Fact والقيمة Value، أو تحرير علم الاجتماع من القيم. وهذه قضية ليس من السهل الكشف عنها (٨). فالموضوعية سهلة وواضحة كهدف مثالي أو غاية، لكن ليس من السهل تطبيقها، خصوصاً في العلوم الاجتماعية. فمعنى أن تكون الملاحظة العلمية موضوعية يعني أنها تتأثر بالمعتقدات والتفضيلات والقيم وأمنيات الملاحظ وغاياته، أو بمعنى آخر، أنها تعني القدرة على رؤية الحقائق وقبولها كما هي لا كما ينبغي أن تكون (٩). ولكن كيف يمكن أن يتسنى للباحث عزل نفسه عن الظاهرة المبحوثة وهو جزء منها؟ إذ أن من السهل أن نكون موضوعيين حين نلاحظ شيئاً لا توجد لدينا نحوه قيم وتصورات واهتمامات معينة. إن التجرد الموضوعي في دراسة الوجود الإنساني لا يمكن أن يكون بالصورة التي نعرفها في الوجود الطبيعي. وكما يقول فيزون برات Pratt فإن الوجود الإنساني موضوع نموذجي للواجبات الأخلاقية. وهو الأمر الذي يعزز الاختلاف بينه وبين أهداف ودوافع الدراسة في الوجود الطبيعي (١٠).

أولاً: نسبية الواقع الاجتماعي وعلاقتها بأحكام القيمة في علم الاجتماع:

ولكن هل نستطيع التوصل إلى القواعد الأخلاقية، والتي يمكن أن تدرك بواسطة الإحساس والشعور، عن طريق استعمال "التفكير العقلي الخالص" وبدون مساعدة أية اعتبارات أخرى؟ أن هذا صعب جداً في ضوء حقيقة كون تلك القواعد

والمعتقدات الأخلاقية نسبية Relative، حيث تختلف من مجتمع لآخر رغم وجـــود بعض الاتفاق العام حول بعض القواعد والمفاهيم (١١). كما أن هذا البناء الأخلاقي هو في نهاية المطاف جزء من ثقافة المجتمع الذي يعايشـــه البــاحث والـــذي نشـــأ فيــه Socialize وتشرب ثقافته ومعتقداته، فليس من السهل عليه أن يتجرد مـــن قيمــه ومعتقداته تلك عند دراسته لموضوع أو ظاهرة تمس تلك القيم وتتأثر بها. فالتعامل مــع الأشياء الجامدة أيسر بكثير من التعامل مع الأفراد أو الجماعات. فعالم الطبيعة أيســـر عليه أن يتقبل الظاهرة الطبيعية على علاتها. في حين أن العالم الاجتماعي يعايش أمـــوراً ومواضيع له علاقة مباشرة بها، ولديه قيم وأحكام معينة تحدد مسبقاً تصـــوره لتلــك المواضيع والحوادث.

وبما أن عالم الاجتماع معرض للقناعات الأيدلوجية والعاطفية الـــتي تشـــكل وجهة نظره حول الحياة الاجتماعية، فإن موضوعيته تصبح محل شك (١٢). فبدلاً مـــن أن يلتزم بالحياد نجد أن اتجاهاته الخاصة وقيمه تغلف نتائجه وتفسيراته، وبدلاً مـــن أن يصدر أحكاما علمية قائمة على الدليل والبرهان، نراه يصدر أحكاماً قيمية نابعة مـــن خلفيته الفكرية واتجاهاته العاطفية، فنشأت مشكلة التحيز وأحكام القيمة في العلـــوم الاجتماعية.

وهذا العجز عن تحقيـــق الموضوعيـــة يرجـــع أساســـاً إلى عـــاملين: الأول يتمثل في كون الواقع الاجتماعي يحمل في طياته معان وأفكاراً لهـــا صلـــة بـــالذات الفردية وما تحمله من اتجاهات ومشاعر وأنماط سلوك تظهر مـــن خـــلال مواقـــف التفاعل الاجتماعي التي هي بمثابة المكون الموضوعـــي الـــذي يحتـــوي التصـــورات والتفسيرات الفردية ويؤطرها في أشكال الســـلوك الجماعيـــة المتـــأثرة بالإيحـــاءات المتبادلة بين المتفاعلين، وهو ما ذهبت إليه المدرسة التفاعلية الرمزيـــة، الـــتي تركـــز على مفهوم الذات ودرجة تأثيرها في تشكيل الواقـــع الاجتمـــاعي. وبالتـــالي فـــإن

ما يمكن أن نتوصل إليه من حقائق اجتماعية يجب أن ينطلــق مــن فــهم وتفســير الأفكار والمعاني التي يتبناها الفرد وتأويلاته لهذا الواقع ومــا يرتبــط بهــذا التــأويل من أشكال للتفاعل وأنماط للسلوك. وبما أن هناك تبايناً واختلافــاً شــديدين بــين تفسير كل فرد منا لهذا الواقع، متأثرين بأنمــاط وأشــكال المعرفــة الــتي نتحصــل عليها وبأذواقنا واتجاهاتنا ونفسياتنا، فلنا أن نتصور صعوبة إيجــاد تفســير موحــد أو متقارب للواقع الاجتماعي، ومستوى معين من القدرة علــى التنبــؤ بمــا يمكــن أن تتحول إليه الظروف في ضوء تباين المعطيات وما تقود إليــه مــن معرفــة.

أما العامل الثاني فيتمثل في قوة عامل الذاتيــة Subjectivity في نطــاق البحث الاجتماعي، فكما أن الموضوعية تمنع التحيز أثناء عملية البحث نجد أن الذاتيــة أو ذاتية الباحث تفرض على مجريات البحث. ويشير البرت ســتيورات Stewart إلى أنه قد ينتهي الباحث من عملية بحثية واسعة وشاملة لموضوع معين ثم يجــد أن أهــم فرض فيها لم تتم البرهنة عليه. وهنا فإن الموضوعية تستلزم من الباحث الاعتراف بهــذا الإخفاق (١٣).

ويحدث التقابل الأول ين العلم الاجتماعي وأحكام القيمــة، عنــد اختيــار الموضوع، إذ أن معالجة موضوع ما أو البحث في ظاهرة معينة يبــدأ عــادة باختيــار الموضوع، لكن أين يكمن التحيز في اختيار الباحث لأفكار بحثه ؟ أن السوســيولوجي يختار موضوعاً ما ربما لاعتقاده بأن هذا الموضوع يمكن بدراسته له أن يقدم إســهاماً في العلم ليس إلا، أو ربما لاحظ أن هذا الموضوع مهمل وأن دراسته ستســاعد في ســد فجوة في بناء المعرفة، ولكن الحقيقة الأكيدة هي أن كثيراً من السوسيولوجيين يرون في تعاملهم مع موضوع بحثهم ما يريدون فقط أن يروه. فماكس فيبر، كمثال، يركــز في بحثه حول تكون الرأسمالية الصناعية في أوروبا على تأثير الكالفينية وليس علــى تأثــير الابتكارات التكنولوجية، كما أن تالكوت بارسونز قد حدد تحليلــه عــن تكــامل

المجتمعات وتوازنها ككل على المستوى المعياري، وأهمل المشكلات الهامة التي يعاني منها التنظيم الاجتماعي. فتجاهل أشكال الصراع، وهي الأشياء التي لا يريد رؤيتها ولا يحبها كمواطن لأنها ضد إيمانه السياسي والأيدلوجي في نظام المجتمع. ويتساءل رالف دارندوف R.Dahrendorf هل دمج علماء كفيبر وبارسونز بصورة خاطئة بين العلم الاجتماعي وأحكام القيمة؟ وهل يجب إلغاء أحكام القيمة أو حذفها جذرياً من صيغة النظريات العلمية؟ (١٤). والتساؤل هنا: ما الذي سيتبقى لنا بعد ذلك من بناء النظرية الاجتماعية إذا قمنا بهذه العملية؟ وهل نوافق على هذا البناء ونستمر معه أم نجري عليه عملية تعديل وإعادة تصحيح؟ إن هذا مظهر من مظاهر أزمة علم الاجتماع.

وإلى ذلك فإن قضية اختيار موضوع البحث باعتبارها مظهراً انتقائياً ودليلاً على تفضيلات معينة يقوم بها الباحث، تشير إلى أن الباحث وأيدلوجيته أو ذاتيته تصبح مشكلة عندما تؤدي إلى استنتاجات تحمل بصمات تلك القيم (١٥). ومعنى ذلك أن المعرفة السوسيولوجية تتضمن أحكاماً للقيمة باستمرار وهذا كلام خطير.

ثانياً: الحيدة الخلقية عند الباحث الاجتماعي وإمكانيات تحقيقها:

لكن ما السبيل إلى التغلب على مشكلة أحكام القيمة، والتحيز، والتفضيلات. في الحقيقة فإن كثيراً من العلماء قدموا مناقشات عديدة حول هذا الموضوع لعل أهمها الآراء التي قدمها ماكس فيبر حول مفهوم "الحيدة الخلقي" Ethical neutrality، ثم الصياغة الحديثة لهذه القضية التي قدمها ميشل بولاني Polany وكارل بوبر Popper ، والتي أدت إلى أن تصبح قضية الموضوعية في العلم الاجتماعي ممكنة في جوانب منها.

فمنذ أن نادى ماكس فيبر Weber بضرورة خلو البحث العلمي من الأحكام القيمية أصبحت الموضوعية أحد المشكلات المنهجية في علم الاجتماع وموضوعاً مهماً للدراسة. وأي دارس لهذه القضية لا بد أن يطرح تصور فيبر لهذه القضية التي تمس مصداقية علم الاجتماع كعلم يفترض أنه يتصف بالصفة العملية عند دراسته لظواهر الحياة الاجتماعية التي طرحها في كتاباته عن المنهجية في العلوم الاجتماعية. ولذلك نجده يهتم بأبرز المشكلات الأساسية في قضية الموضوعية وإمكانية تحقيقها. ولقد اقترح مصطلح "الحيدة الخلقية" لمعالجة مشكلة العلاقة بين المواقف التقويمية أو الأحكام المعيارية من ناحية أو بين المعرفة التجريبية والعلمية من ناحية أخرى. واستعان بمجموعة من المحكات المنهجية التي تحول الإدراك الذاتي الفردي إلى فهم علمي موضوعي له صدقه وثباته الشامل. والتي تتمثل في إطار ييسر عملية الاقتراب من الحقيقة وانتقاء عناصرها الجوهرية، ثم استخدام المقارنة التي تستند إلى ما سماه بالنموذج المثالي Ideal Type وذلك كأجراء قياسي يهدف إلى تحقيق أكبر قدر من الموضوعية(١٦) .

والإدراك الذاتي للواقعة لدى ماكس فيبر يقوم بتحديد المعنى الكلي للظاهرة، ويتولى صياغة عناصرها الأساسية. والمدخل الذاتي تميز بخصائص تتمثل في الدمج بين النظريات الحدسية (العقلانية المنهجية) وتفهم الكليات الثقافية وخصوصيتها المتفردة، ويرتبط ذلك في المجال الاجتماعي بالتفهم أو إدراك جوهر الكليات الثقافية في إطار نسق من المعاني بحيث تبدو الحقائق مجرد تعبيرات عنه. ويشير هذا إلى إمكانية استنباط الحقيقة الواقعية من المفاهيم، إذ يرى أصحاب هذا المدخل أنه عن طريق الكشف باستمرار عن القوانين العامة يكون بالإمكان تأسيس نسق من المفاهيم يقود إلى استنباط الواقع منه. ولكن فيبر ينتقد أصحاب هذا الرأي لتجاهلهم قضية أساسية وهي

أن "المفهوم" انتقائي بطبيعته، ومن ثم فإن حجم المفاهيم والانتقاءات لا يمكن بأي حال أن يتساوى مع الكم الكلي للحقيقة الواقعية.

أما الخاصية الثانية للمدخل الذاتي فهي "الفهم من الداخل" حيث يؤكد فيبر على أنه ليس بالإمكان إلا ملاحظة المظهر الخارجي للظواهر الطبيعية فقط. أما بالنسبة للسلوك الإنساني فإن الباحث رغم إمكانية ملاحظة الظاهرة من الخارج يكون قادراً على تذوق دوافع العمل الاجتماعي ونسبتها إلى أصحابها الفاعلين. ومع ذلك، فإن إدراك المعنى مجرد عنصر في عملية البرهنة على صدق المعرفة (١٧).

أما الإطار الثاني الذي استند إليه فيبر في منهجه فهو "المدخل الموضوعي". واستراتيجية الإدراك في هذا المدخل تختلف تماماً عن المدخل الذاتي، ففي الوقت الذي يؤكد فيه المدخل الذاتي على ضرورة فهم معنى المفرد التاريخي، نجد أن المدخل الموضوعي لأدراك الحقيقة يهتم بالتعميم في مواجهة التخصيص، وذلك من خلال ثلاثة أبعاد أساسية: الأول، يتمثل في تخليص الحقيقة الموضوعة موضع الدراسة من كل جوانبها الخاصة التي قد تتميز بها، وذلك عن طريق إرجاع التباينات الكيفية إلى تكميمات قابلة للقياس يمكن أن تكون أساساً لمسلمة منطقية عامة. أما البعد الثاني فمتكامل مع البعد الأول، حيث يتركز الاهتمام على الخصائص العامة للظواهر بهدف تأسيس علاقات ضرورية ومطردة بينها بحيث يقود ذلك إلى تأسيس نسق من العلاقات والقوانين. أما البعد الثالث، فيتمثل في أن تأسيس مجموعة التعميمات العامة التي تعتبر ذات صدق وثبات بالنسبة للحقيقة المدروسة يمثل المسافة بين الباحث والموضوع الذي يدرسه، الأمر الذي يجعل فهمه غير مباشر بدلاً من كونه مباشراً، وبذلك يتخلص التناول العلمي للحقيقة الواقعية من كل تحيز قد كون مصدراً لذاتية الباحث وقيمه الشخصية (١٨).

أما الفهم من الخارج فإنه يشكل الغاية الثانية للمدخـل الموضوعـي (هـذه الخاصة التي تجعل علم الاجتماع يقترب من موقف العلم الطبيعي) مع إضافة ما يمكـن إنجازه عن طريق إمكانية فهم الظواهر الاجتماعية بالنظر إلى دوافعها. ويصبح بذلـك التكميم واستخدام المناهج الرياضية إحدى خصائص المدخل الموضوعي، حيث يعتقـد فيبر بأن التكميم هو الطريق الوحيد إلى المعرفة العلمية الصادقة. ومن خلال هذا الإطار قدم فيبر حله المنهجي.

ومن الواضح أن ماكس فيبر يدرك ما تحتويه الواقعة الاجتماعية من تباينـات ترتبط بدوافع البشر وظروفهم الموضوعية والذاتية ومستويات إدراكـهم ووعيـهم، ولذلك فإن حله المنهجي المزدوج ما بين التفهم والإدراك الذاتي مـن قبـل البـاحث والفهم من الخارج الذي تتم الاستعانة به في القياس والموازنة والأساليب الإحصائيـة، يشير إلى أن التحليل العلمي للظواهر الاجتماعية لن يكون موضوعياً على نحو مطلـق. حيث لا يستطيع القانون أن يكشف عن الحقيقة الاجتماعية، ولا يمكن أن نقـرر إلا وفقاً للأفكار أو لمفهومات القيمة. وهذا هو الفارق الذي يميز العلوم الطبيعيـة عـن العلوم الاجتماعية. ففهم دلالة الظواهر الاجتماعية لا يتم من خلال نسـق القوانـين التحليلية، مهما كان إتقانها، ما دامت دلالة الحوادث الثقافية وأهميتها تفـترض مسـبقاً توجيهاً نحو هذه الحوادث (١٩). ولذلك فإننا لا نشغل بالقوانين، بمعناها الضيق في العلم الطبيعي، بل نعنى في العلاقات الاجتماعية بالعلاقات العلية التي نعبر عنها في قواعـد، كما نعنى بتطبيق مقولة "الإمكانية الموضوعية". أما تعيين الانتظامات والاطرادات فـهي ليست غاية المعرفة بل هي وسيلتها (٢٠).

وعلى الرغم من أن بعض المنظرين من أمثال روبرت ميرتون Merton ، يرى بأن إسهام فيبر، ومن بعده بوبر وبولاني، يشكلان حلاً يساعد على استبعاد التحـيز والتوجيهات القيمية من الدراسة العلمية للظواهر الاجتماعية (٢١) إلا أنها لم تكن أكـثر

الحلول جدوى أو أفضلها تطبيقاً، فلم تكن نهاية المطاف في مجال تطوير منهجية علم الاجتماع، الذي انقسم دارسوه بين المناداة بأتباع أدوات القياس المقننة التي تقلل قدر الإمكان من مخاطر التحيز الذاتي، وبين الاستعانة بالأبنية الفرضية الخيالية التي اقترحها ماكس فيبر، تلك التي تستند إلى استبعاد عنصر أو أكثر من عناصر الواقع، ويتحول بواسطتها الواقع إلى بناء عقلي أو افتراضي يساعد الباحث على ملاحظة ما قد يحدث عند استبعاد شروط معينة أو تحويرها.

ولكن كلا الاتجاهين لم يساعدا إلا على تزويدنا بدراسات كمية بالنسبة للاتجاه الأول (وهي عبارة عن تجميع لوقائع إمبريقية لا يتوفر بها معنى ولا مضمون)، ولا يمكن أن توصل إلى اكتشاف قوانين أو تعميمات تحليلية (وهو الهدف الذي تسعى إليه). أما بالنسبة للاتجاه الثاني فقد قدم لنا نظريات غلبت عليها الأحكام الذاتية وقلت بها الأحكام الموضوعية.

ثالثاً: العلم الموضوعي ومأزق علم الاجتماع.

إن الرغبة في تعزيز صفة الموضوعية على العلم الاجتماعي والبعد عن التحيز والأحكام القيمة ما زالت تمثل الهاجس المنهجي لدراسي هذا العلم. وإذا كان فيبر قدم حلولاً يرى من وجهة نظره إنها توائم بين إمكانيات المعرفة الموضوعية، والأفكار التقويمية للباحث والتي تعبر عن تلاحم المكون الواقعي مع العلاقة المنطقية التي تتضمنه في تفسير الواقع أو الظاهرة موضع البحث، فإن دارسي علم الاجتماع المعاصرين يطالبون أنفسهم وغيرهم بأن يكونوا أكثر وعياً بالقيم والتحيزات والأماني التي يملكونها كبشر. ولقد كان جونار ميردال Myrdal من المنادي بأن التراهة واللا تحيز هما ربما أفضل طريقة لإبطال التحيز والذاتية في الدراسات الاجتماعية [٢٢]. فإذا كان علماء الاجتماع لم يتمكنوا من تحقيق الموضوعية الكاملة، إلا أن رغبتهم في هذا هي

بمثابة جهد أو محاولة لإنجازها، كما أن سعيهم إليها كهدف أو غاية يساعد على حماية علم الاجتماع من سيطرة الآراء الشخصية أو التعصبات الأيدلوجية (٢٣).

فبعد أن أضحى التفكير العلمي في الواقع يشكل موضوعاً مهماً ولا يترك مكاناً للذاتية، فالمنهج العلمي يهتم بأن يكون موضوعياً تماماً، نجد أن علماء الاجتماع وقعوا في مأزق تحويل علمهم إلى علم موضوعي، بعد أن زادت الانتقادات حول نتائجه المتباينة وأساليبه المنهجية غير الدقيقة، وتعميماته غير المبرهنة. لكن ما الذي يستطيع أن يقوم به عالم الاجتماع وهو الذي يواجه ظواهر ودوافع تختلف تمام الاختلاف عن ظروف العالم الطبيعي، فهو يبحث في ظواهر معقدة جداً، هذا إلى جانب أنه جزء منها.

ولذلك أصبح هاجس الموضوعية والتخلص من الذاتية وأحكام القيمة مرتبطاً في أذهان العديد من علماء الاجتماع بالالتزام بالمنهج العلمي المذكور آنفاً فقط، فهذا المنهج يساعدهم في كل الأحوال على التخلص من ذاتيتهم وأحكامهم وقيمهم لكي يروا بيئتهم الاجتماعية كما لو كانوا منفصلين عنها وغير مكتسبين أو متشربين لما فيها من نسق قيمي وفكري (٢٤). وكان السبيل إلى ذلك تطبيق المنهج الإمبريقي الذي يتخلص فيه الباحث من كل فكرة مسبقة ويتوقف دوره على ملاحظة الواقع وتجميع البيانات المرتبطة به. ويشك أصحاب هذا الاتجاه في آراء مناهضيهم الذين يؤكدون على عدم قدرة البيانات المجمعة عن الظواهر الاجتماعية على التعبير عن العلاقات والارتباطات المتبادلة، فهم يرون إمكانية حدوث ذلك في البحوث الإمبريقية الممتازة، والتي تعطي مثالاً على قدرة هذا النوع من البحث العلمي، وهذا يعني أنه لن توجد موضوعية أكثر من هذا (٢٥).

رابعاً: التعادل الموضوعي بين الواقع الاجتماعي المعياري ومواقف الباحث الذاتية:

بما أن التحيز في العلم الاجتماعي لا يمكن أن يمحى أو يزول ببساطة عن طريق الالتزام بالحقائق، وبواسطة المناهج الدقيقة، والعناية بالبيانات الإحصائية، فالبيانات الإحصائية وطرق معالجتها كثيراً ما تكون منفذاً لميول تظهر أكثر من "الفكر الخالص". كما أن الملاحظة فقط، وجمع المعلومات، منعزلاً، لا تؤدي إلى معرفة حقيقية. إذ يجب أن نثير تساؤلات معينة (يدخل فيها الانتقاء) قبل أن نتوقع إجابات عن تلك الحقائق [٢٦]. فإن فكرة عزل المواقف الذاتية للباحث عن موضوع بحثه قد تكون غير مجدية، ولكن الأهم هو التحكم الإرادي في تلك القناعات والمعتقدات أو المبادئ، لكي يمكن فحص الأدلة والبيانات وما يتكشف عنها بنزاهة [٢٧].

كما أن اعتبار الموضوعية هي قاعدة العلماء، والذاتية هي قاعدة الروائيين والأدباء الذين يكتبون عن الحياة الاجتماعية استناداً إلى خبراتهم الشخصية، هي قضية مشكوك بها. فكثير من العلماء الذين اعتمدوا على المنهج العلمي في البحث لم يتوصلوا إلى فهم حقيقي لكثير من الظواهر، في حين أننا نجد كثيراً من الأدباء قد شرحوا بعض الظواهر الاجتماعية بوضوح وبكثير من الفهم، على الرغم من عدم استخدام المنهج العلمي، وإنما اعتماداً على التأمل العقلي البحت. مثال ذلك ما قدمه لنا روائي مثل ليوتولستوي عن المجتمع الروسي وتناقضاته الاجتماعية في القرن التاسع عشر، كذلك ما قدمه لنا بلزاك من تحليل متعمق للأبعاد الأخلاقية والقيمية في المجتمع الفرنسي في القرن الثامن عشر. كما تمكن الكثير غيرهم من رصد وتحليل التغيرات الاجتماعية التي مست المجتمع عبر فترات طويلة من الزمن مثل الروائي نجيب محفوظ الذي تضم ثلاثيته العديد من نماذج التغير القيمية والاجتماعية التي عايشها المجتمع المصري خلال فترة القرن العشرين. والأمثلة على ذلك عديدة. وبناء على ذلك فإن المنهج التأملي قد لا يحيد أحياناً كثيراً عن الواقع إذا ما كان المتأمل واقعياً وموضوعياً ولديه القدرة على

استقراء الظروف سواء الجامدة أو المتغيرة منها والتي تحيط به ويعايشها بدون أن تؤثر على منطقه التحليلي ومنهجه الفكري.

ولذلك نجد عالماً مثل كارل مانهايم ينكر أن تكون كل المعرفة عن الشؤون الاجتماعية موضوعية، فمعرفتنا عن العالم الاجتماعي إنما نجمت عن الملاحظة، لكن بين الملاحظة الأولية والتفسير الذي نضفيه عليها عن طريق البحث والفحص العقلي، توجد حواجز لها تأثير غير مباشر، كما توجد خواص وصفات المفكر غير المدركة[٢٨]. وبذلك يعتبر السلوك العلمي جمعاً بين الفعل العقلاني بالنظر إلى الهدف أو الفعل العقلاني بالنظر إلى القيمة [٢٩]. وهي الازدواجية التي تظهر في سلوك الباحث منذ اختياره لموضوع معين يرى أنه جدير بالاهتمام وبالبحث.

ويشير دارندروف، مفسراً الانتقائية وأحكام القيمة في علم الاجتماع، إلى أن اختيار موضوع البحث إنما يتم في مرحلة الباحث فيها لا يزال حراً من القواعد الإجرائية التي سوف توجه أو تحكم بحثه بعد ذلك. ومن غير الواقعي الإصرار على أن أحكام القيمة يمكن إلغاؤها أو أبعادها عن اختيار المواضيع، كما أنه ليس ضرورياً، وذلك لأن سؤال: لماذا يعتبر موضوع معين جديراً بالبحث، غير متصل في الأساس بالمعادلة العلمية، وسواء أثرت أحكام القيمة على اختيار مواضيع البحث أو لم تؤثر، فإنها قضية غير هامة، فالدراسة المثمرة لا تتطلب في الواقع أن يكون اختيار الموضوع قائماً على أساس قيمة معينة، كما أنها لن تؤثر سلباً أو إيجابا على استنتاجاته.

فاختيار موضوع ما نابع من التزام الباحث في زيادة فهم الناس لمجتمعاتهم. إن مثل هذا الالتزام نفسه حكم قيمة، ولكنه لا يعد جزءاً من البحث العلمي، فيما عدا كونه ظرفاً ممهداً أو مقدمة مشروطة، متأثرة بالمحيط الأخلاقي، فهو يحتكم في الغالب ليس إلى البصيرة العلمية ولا للملاحظة النقدية، لكن إلى الإحساس أو ربما إلى إجماع العلماء، والدارسين واهتمامهم بهذا الموضوع.

فالعلماء الاجتماعيون لا يزالون يحاولون التمييز بين "المهم" و "اللامـــهم" في المواضيع الجديرة بالبحث. وفي هذا الشأن يشير روبرت ليند Lynd في مقالته "القيـم والعلوم الاجتماعية" إلى أن التحيز يتم على أساس "القيم الموجهة" ويؤكد على أنــه لا توجد طريقة أو وسيلة موضوعية تدفع الناس لاختيار مواضيعهم. وعلى أساس هــذه الحقيقة حذر جاي رومني وجوزيف ماير Rumney & Maier الدارسين بقولهـم "إن علم الاجتماع ليس بالموضوع السهل دراسته... إن عواطفنا وأمانينا بوعي منـا أو بدون وعي تتسلل بسهولة إلى ملاحظتنا، واختيارنا ما نريد أن نراه، وتغمض أعيننـا عن الأشياء التي لا نريد رؤيتها. ولكي نعالج هذه الآفة، على العلماء الاجتمـاعين أن يعنوا بتدريب أنفسهم في المواقف على الموضوعية العلمية. وذلك بالاستعانة بطريقـة التحليل النفسي وعلم الاجتماع المعرفي".

وقدم كارل بوبر Popper مناقشة لهذا الموضوع حيث أكد علـى انتقائيـة وصفنا أو تصويرنا للحقائق. وأشار إلى استحالة تجنبنا لخاصية الانتقاء في الدراسـة أو في الرؤية. ويؤكد بوبر على أنه ليس من المرغوب محاولة ذلك، لأنه إذا أمكننا القيـام بذلك فإنه لن يعني أننا سنحصل على وصف موضوعي أكثر، وإنما سنحصل على مجرد ركام من التعبيرات المتداخلة وغير المترابطة. والمحاولة الساذجة لتفادي ذلك لا تقود إلا إلى خداع النفس وإلى وجهة نظر غير نقدية وغير موضوعية. وبذلك فإن الانتقائيـة لا تشكل معضلة حتى إذا أسست على حكم قيمة، إذا كانت لا تؤثر على المعالجة العلمية كما يذهب دارندوف.

خامساً: النقد الذاتي كأحد أساليب التخلص من أحكام القيمة:

ولرؤية هذه الحقيقة، فإننا نحتاج فقط إلى التمييز بين مظهرين للبحث العلمـي، غالباً ما يسببان تضليلاً ألا وهما: المنطق، والاكتشاف العلمي. وكلما اتفق البـاحثون في هذا المجال فإن ذلك سيكون له تأثير إصلاحي (٣٠)، خاصة في مجال الاتفاق علـى

نتائج الدراسات على الرغم من اختلاف مداخلها (سواء التي تتبع المدخل الذاتي في الفهم أو التي تتبع المنهج الموضوعي البحت في الملاحظة الواقعية). ولكن في الحقيقة فإن عدم الاتفاق بين العلماء لا يزال موجوداً، فهناك اختلافات كبيرة تمس النظرية والمنهج. وهذا يؤكد على أهمية دور فحص الإسهامات السابقة لتحديد وحذف الأخطاء. فالبحث العلمي يتميز بالإعادة المتواصلة لما تقدم من تجارب. وبما أن "الموضوعية" تعتمد على الاتفاق في إعادة الدراسات، وهو الذي يؤدي إلى اعتمادها على بعضها، فإنه من المهم أن تكون المناهج التي تستخدم في الدراسات المتنوعة متشابهة قدر الإمكان. وهذا يمكن إنجازه في حالة توفر تقارير تفصيلية عن الإجراءات المستخدمة، والمعايير الأساسية التي توفر شروط الاستخدام. ويعتبر هذا هو هدف المناقشات التفصيلية للمثيودولوجية بهدف تنمية المفردات التقنية في فروع العلم المختلفة. وإذا كانت العلوم الأخرى قد تمكنت من تنمية أدوات خاصة تساعدها على إخضاع وتطويع العوائق الفيزيقية للملاحظة الدقيقة، وزادت من إمكانيات الملاحظة الموضوعية، فإن على العلوم الاجتماعية أن تحقق تطوراً في هذا المجال لكي تقلل من مصادر التحيز غير المقصود (٣١).

ولكن التساؤل الذي يمكن أن نثيره هنا هو: هل الأدوات التقنية والمناهج البحثية المتطورة فقط هي التي تشيع الاتفاق حول قضايا ومفاهيم العلم وتقلل من مخاطر التحيز؟ صحيح أن تطور المناهج سوف يساعد على الحصول على حقائق أكبر وأعمق لكن هذه الحقائق لا فائدة منها بدون الاستناد إلى التأمل العقلي والتفسير الذاتي من قبل الباحث. إن مفاهيم المجتمع حية ومتغيرة، فما نتوصل إليه اليوم كحقيقة قد يصبح غداً كذبة، أو تصوراً قد بلى وأصبح من التراث. فالمنهج قد يساعد على الحصول على حقيقة معينة، ولكنها بعد فترة زمنية ومع اختلاف الظروف قد تصبح بدون قيمة علمية. وصحيح أن إعادة فحصها بواسطة المناهج المتطورة ستعطينا صورة جديدة عنها، ولكنها صورة ناقصة، لأن المنهج يعطينا قياساتها ولا يعطينا أسبابها

وتفسيراتها، ولذلك فإن المنهج إنما هو أداة لا تفيد بشيء طالما لم تقترن بالتفكير العقلي، فالمنهج قضية إضافية وتابعة وليست أساسية.

وفي هذا الإطار هناك من يتساءل عن أهلية من سيقوم بفحص الملاحظة العلمية لكي يوضح لنا صدقها وحقيقتها من عدمه، وذلك لكي تحوز على اتفاق العلماء بشكل كاف ويضمن الحقيقة العلمية. كذلك كون الحقيقة العلمية إنما تعتمد على الخبرة الشعورية فقط، الأمر الذي سيؤدي إلى تنوعها واختلافها باختلاف الجماعات المهنية، كما أنها إما اعتمدت على البراهين العقلية البحتة، أو الذاتية، الأمر الذي يعني تنوع الدعاوى، فكيف سنضمن إذا حقيقة مفاهيم هذا العلم؟[٣٢]. وهذا يعود بنا إلى نقطة البداية.

وإذا كان النقد الذاتي يطرح بقوة الآن كأسلوب ليؤدي إلى توضيح وتصحيح النتائج، فإن نقد الكتابات والإسهامات التي يزخر بها مجال علم الاجتماع لا يمكن أن تؤدي إلى تصحيح النتائج وتطوير النسق النظري إلا إذا كان النقد يتم من قبل أكثر العلماء تخصصاً وفهماً لكي يتمكنوا من انتقاد أعمال بقية الباحثين.

وإذا اتفقنا على أن الباحث الاجتماعي ليس مثالياً، وأنه إنسان يمكن أن يخطئ أو يصيب فإن ما يتوصل إليه من نتائج قابل للأخذ والرد. وبالتالي فإن البناء النظري لهذا العلم لا بد وأن يتميز بالمرونة بحيث يتقبل التعديلات والأفكار الجديدة. وفي ضوء ذلك فإن الموضوعية في علم الاجتماع مهما كانت بعيدة المنال -كما يتصور لنا- فإنها يمكن أن تتحقق ولكن ليس بالصيغة نفسها التي ينادي بها أصحاب الاتجاه الذي ينادي به جملة من الباحثين بتخليص علم الاجتماع من القيم، وإنما بالصيغة التي تسهم في الوصول إلى معرفة واقعية عن الحقائق الاجتماعية، التي لا يمكن أن تنفصل عن مفاهيم المجتمع وقيمه ونسقه الفكري، التي يعبر عنها علم الاجتماع من خلال الشروح النظرية التي يسوقها لتوضيح الارتباطات ما بين تلك الحقائق، ويضفي عليها من تحليله الموضوعي أبعاداً نقدية جديدة هي في الحقيقة بذرة الإصلاح التي تمثل الهدف النهائي لهذا العلم.

الهوامش

١- T.B. Bottomore, *Sociology: A Guide to Problems and Literature* (London: George Allen and Uniuin Ltd; 1975) p.31.

٢- W. Ogburn and M. Nimkof, *A Hand book of Sociology* (London: Routledge and Kegan Paul, 1964), p.12.

٣- Arnold W. Green, *Sociology: An Analysis of Life in Modren Society*, 6th ed. (N.Y, : McGraw –Hill, 1972), p.7.

٤- Karl Mannhiem, *Essays on the Sociology of Knowledge* (London: Routledge and Kegan Paul, 1952), p.35.

٥- أنظر المناقشة حول هذه النقطة الواردة في: محمد عــارف، **المنـــهج في علـــم الاجتماع، الجزء الأول: المنهج الكيفي والمنهج الكمي في علم الاجتمـــاع** (القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٧٢).

٦- Green, *op.cit.* pp. 6-7.

٧- L. Gross, *Sociological Theory: Inquiries and Paradigms* (N.Y: Harper and Row, 1967), p.36.

٨- Stephen Catgrave, *The Science of Society: An Introducation to Socilogy,* 4th ed. (London: George Allen and Unwir, 1978). P.35.

٩- Horton Paul B. and Chester L. Hunt, *Sociology* (Tokyo: McGrow-Hill, 1968),pp. 11-12.

١٠- Vernon Pratt, *The Philosophy of The Social Sciences* (London: Rout edge and Kegan Paul, 1978), p.90.

١١- *Ibid*, pp. 22-23.

١٢- لمزيد من التفصيل حول هذه النقطة أنظر:
Catgrave, *op.cit.*

١٣- Albert, W. Stewart and James A. Glynn, *Introduction to Sociology*, 2nd ed. (New York: McGraw –Hill, 1971), p16.

١٤- Ralfe Dahrendorfm *Essays in the Theory of Society* (London: Routledge and Kegan Paul, 1970), p.16.

١٥- See: Gross, *op. cit.*, p. 353.

١٦- أنظر المناقشة الواردة حول هذا الموضوع لدى: صـــلاح الديـــن قـــانصوه، "الموضوعية عند ماكس فيبر بين النمط المثالي والحيدة الخلقية"، **مجلـــة الفكـــر العربي**، العدد ٩، ط٢، ص ص . ١١٤-١٢٢.

١٧- أنظر التحليل المستفيض لهذه النقطة لدى : علي ليلة، **النظريـــة الاجتماعيـــة المعاصرة** (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨١)، ص ص. ٤٧٢-٤٧٧.

١٨- أنظر: **المرجع نفسه**، ص ص.٤٧٩-٤٨٠.

١٩- أنظر: قانصوه، **المرجع المذكور**، ص ١١٤، كذلك :قباري إسمـــاعيل، **علـــم الاجتماع والإيدولوجيات** (الاسكندرية: الهيئة المصريـــة العامـــة للكتـــاب، ١٩٨٠)، ص. ٣٦٨.

٢٠- قانصوه، *المرجع المذكور*، ص. ١١٥.

٢١- See: Robert K. Merton and Robert Nisbete, *Contemporary Social Problems* (London: Routledge and Kegan Paul, 1976), p.25.

٢٢- See: Ginnar Myrdal, *Value in Social Theory* (London: Routledge and Kegan Paul, 1968), p.120.

٢٣- أنظر المناقشة الواردة لدى :

David Popenoe, *Sociology*, 4th . ed (Englewood Cliffs, N.J. : Prentice-Hall, 1980).

٢٤- Raymond W.Mack and John Pease, *Sociology and Social Life*, 5th ed, (N.Y. : D. Van Nostrand Company, 1973), p.9.

٢٥- Richard J. Bernstein, *The Restructuring of Social and Political Theory* (Oxford: Blackwell, 1976), pp. 10-11.

٢٦- Myrdal, *op.cit.*, p.128.

٢٧- Green, *op.cit.*, p.7

٢٨- See: Mannheim, *op.cit.*

٢٩- أنظر: علي ليلة، **المرجع المذكور**.

٣٠- See: Gross, *op.cit.* p.348.

٣١- أنظر المناقشة حول هذا الموضوع الواردة لدى:

Freedman and others, *Principle of Sociology* (N.Y.: Holt, Rinehart and Winston, 1956), pp. 27-28.

٣٢- Gross, *op.cit.*, p.59.

تقويم استراتيجية التنمية الاقتصادية والاجتماعية المصرية خلال الفترة ١٩٨٢-١٩٩٣

د. راشد محمد سلامة

كلية العلوم الإدارية والمالية

جامعة البتراء

ملخص

استعانت الحكومة المصرية بالخبراء الاقتصاديين الدوليين لوضع خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية المصرية ، لتصحيح الخلل القائم في الاقتصاد ، والمتمثل أساساً في اعتماد الاقتصاد المصري على مصادر إيراد خارجية للعملة الصعبة ، بعيدة عن سيطرة الحكومة المصرية ، وهذه المصادر بصفة رئيسية هي : إيرادات قناة السويس ، والإيرادات النفطية ، والإيرادات السياحية ، وتحويلات المصريين العاملين بالخارج ، والمساعدات الخارجية. فالتوقف المفاجئ لأي من هذه المصادر قد يؤدي إلى حدوث حالة من عدم الاستقرار في الاقتصاد المحلي يصعب على الحكومة المصرية السيطرة عليها. لقد نادى أولئك الخبراء بضرورة أن تعمل الحكومة المصرية على استثمار جزء من إيرادات العملة الصعبة في قطاعات إنتاجية محلية ، ليحل إنتاجها محل السلع المستوردة ، وبحيث تكون قادرة في مرحلة لاحقة على التصدير للخارج.

تهدف هذه الدراسة إلى تقويم مدى النجاح او الفشل الذي تم تحقيقه من خطتي التنمية الخمسية الاولى والثانية، والممتدة على مدى عقد من الزمن (١٩٨٢-١٩٩٢)، وتستند في منهجيتها على استخدام المنهج الوصفي التحليلي والذي يتلخص في الجمع بين جوانب وصفية كيفية وجوانب احصائية في التحليل، واستندنا إلى البيانات الاحصائية الصادرة في المنشورات الرسمية لبعض الجهات الحكومية المصرية كالبنك المركزي ووزارة التخطيط ، كما تمت الاستعانة ببعض البيانات الصادرة عن جهات ومراكز بحث دولية متخصصة.

لقد أظهرت الدراسة أن النتائج المحققة في نهاية مدة خطتي التنمية الخمسية الاولى والثانية لم تكن بالمستوى المنشود. ويمكن إرجاع هذا الفشل إلى عوامل داخلية تقع تحت سيطرة الحكومة المصرية مثل تطوير التشريعات التجارية والمصرفية ، والى عوامل أخرى خارجية ليس للحكومة المصرية قدرة على التأثير فيها ، أو أن مقدرتها على التأثير فيها محدودة الى حد بعيد ، مثل التغير في أسعار النفط عالميا.

توصي هذه الدراسة بأنه لتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية فانه لا يكفي أن تستعين الحكومة بالخبراء، محليين وأجانب، لوضع خطط تنمية نموذجية أو طموحة ، بل يجب أن يأتي تنفيذها مسبوقا ، أو على اقل تقدير مقرونا ، بإجراء أي تغيرات ضرورية على مختلف الجوانب التشريعية والإجرائية المحلية اللازمة لنجاح هذه الخطط. إن تطوير التشريعات التجارية والمصرفية واستمرارية الاستقرار والنهج السياسي الحالي سيكون لهما الأثر البالغ في النجاح المستقبلي لخطط التنمية المصرية ، ولكن سيبقى الاقتصاد المصري عرضة للتأثر بعوامل خارجية يصعب على الحكومة المصرية التحكم فيها.

•

Evaluation : Egypt Economic and Social Development Strategic Plans over the period 1982 – 1992

Rashed M. Salameh
Faculty of Business Administration
The University of Petra

Abstract

Since the early 1980s , the Egyptian government has sought the help of the international economic experts to assist the country in adjusting the imbalance existing in the local economy. This imbalance has been expressed in the fact that the hard currencies revenue in the local economy is mainly generated from foreign sources, where the Egyptian government has minimal or no control. These foreign currencies sources are : Suez Canal dues; oil revenue; tourism; remittances from Egyptian workers abroad; and foreign assistance. Therefore, any cut down or cut off in any one of these sources could result in disturbances to local economic stability.

Those international experts called on the Egyptian government to invest a high portion of foreign currencies available into the local production sectors. In this way, an increase in local commodity production will be achieved and substitute imports. At a later stage, Egypt should be able to increase its exports too.

This study aims to analyze, compare and evaluate the results achieved at the end of the first two Egyptian economic and social development strategic plans which extended over ten years period (1982 - 1992). A descriptive analytical approach was followed, and the statistical data used in the analyses are mainly published by official Egyptian government sources and international study centers.

The findings of the study, show that these two plans failed to achieve the desired objectives and the imbalance in the local economy still stands. This is mainly due to internal as well as external forces affecting the Egyptian economy. The study recommends that to achieve development it is not enough to hire international experts to lay down standard economic plans, but more importantly and simultaneously all necessary changes should be implemented in all economic and legislative aspects. However, no matter what actions the Egyptian government might follow, the local economy will continue to be subject to external forces.

مقدمة

يتشابه العديد من الدول النامية بخصائص اقتصادية متعددة : أهمـــها وجـود اختلالات هيكلية في اقتصادياتها، وزيادة النفقات الحكومية عن الإيرادات، مما يـترتب عنه ظهور عجز في موازناتها العامة. ولتغطية هذا العجز عادة ما تلجأ هذه الـدول إلى الاقتراض سنة بعد أخرى، مما أضاف أعباء جديدة إلى اقتصادياتهـا المترديـة أصـلا، فأصبحت هذه الدول عاجزة عن الوفاء بالتزاماتها المالية تجاه دائنيها، الذين بدورهـم بدأوا بفرض قيود متشددة لمنح الدول النامية مزيداً من القروض، أو تسهيلات ماليـة جديدة. لذلك لجأ العديد من الدول النامية إلى الاستعانة بخبراء دوليـين (كـالبنك الدولي، وصندوق النقد الدولي) لمساعدتها في وضع البرامج والسياسـات الضروريـة لإدخال تعديلات هيكلية على قطاعاتها الاقتصادية، وتصحيح مسـيرتها الاقتصاديـة، بهدف ضمان نمو اقتصادياتها بمعدلات معقولة، مما يحقق لها الاستقرار الاقتصادي.

ويمكن تفسير سلوك الدول النامية لإشراك الخبراء الدوليين لوضـع، أو المسـاهمة بوضع، برامجها للتصحيح الاقتصادي، وإعادة الهيكلة بأنها ترمي إلى تحقيق أحد الهدفـين التاليين أو كلاهما معا :

١- إن إشراك خبراء اقتصاديين دوليين في وضع برامج التصحيح الاقتصادي وإعـادة الهيكلة لأي دولة نامية سيضمن لها تحقيق الآتي :

أ. إمكانية الحصول على قروض جديدة، بما يتلاءم مع متطلبات خططـها التنمويـة الجديدة.

ب. إمكانية إعادة جدولة الديون المستحقة.

ج. إمكانية إعادة جدولة جزء من الديون المستحقة، والحصـول علـى قـروض أو مساعدات مالية جديدة.

٢- تأمل الدول النامية في أن مساهمة الخبراء الاقتصاديين الدوليين، وإشرافهم على وضع برامجها للتصحيح الاقتصادي وإعادة الهيكلة لقطاعاتها الاقتصادية، سيضمن لها تحقيق معدلات نمو اقتصادي، تساعدها على التخلص من المديونية، وترفع مستوى الدخل الفردي، وتحسّن مستوى المعيشة، بحيث ترتقي هذه الدول إلى مرتبة الدول المتقدمة اقتصاديا.

الدراسة وأهميتها :

تطور النظام الاقتصادي المصري في ظل زعامة الرئيس الراحل جمال عبدالناصر ليأخذ طابع الاقتصاد الاشتراكي، والذي يتسم بسيطرة القطاع العام (الحكومي) على الاقتصاد القومي. وقد هدفت خطط التنمية الاقتصادية المصرية خلال تلك الفترة إلى تحسين مستوى الدخل الفردي، وتلبية متطلبات الأمن القومي. ولا يزال هذان الهدفان يمثلان المحور الأساسي لخطط التنمية المصرية حتى يومنا هذا. إلاّ أن أولوية تحقيق أي من هذين الهدفين يحكمها العديد من المتغيرات السياسية والاقتصادية.

خلال أوائل الستينات حيث ساد الاستقرار الاقتصادي والسياسي في مصر، استطاع الاقتصاد تحقيق معدل نمو وصل إلى ٦%، إلا أن النصف الثاني من ذلك العقد شهد تطورات سياسية حادة مع إسرائيل، وتخللها حرب يونيو ١٩٦٧. وبالتالي أصبح العمل على توفير متطلبات الأمن القومي بمثابة الهدف الأساسي للحكومة المصرية. فانخفض معدل النمو الاقتصادي إلى حوالي ٣%، واستمر هذا المعدل حتى عام ١٩٧٣[١]، وهو معدل بالكاد يقارب مستوى النمو السكاني، كما مثلت مشتريات السلاح الجزء الأكبر من مجمل واردات الدولة. وفي بداية عهده حافظ الرئيس الراحل أنور السادات على نهج سلفه بالإبقاء على النظام الاقتصادي الاشتراكي، واعتبار متطلبات الأمن القومي على رأس سلم الأولويات.

إلا أن المسار الاقتصادي في مصر - لفترة ما بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ - بدأ يشهد تحولات جذرية، فأصبح الاهتمام بتحقيق معدلات نمو اقتصادي مرتفع، وتحسين مستوى دخل الفرد (مع عدم الإخلال بمتطلبات الأمن القومي) وتشجيع الاستثمار الخاص والأجنبي هما السمة المميزة لمسيرة الاقتصاد المصري. وبدأ الاقتصاد المحلي يشهد انفتاحا على العالم الخارجي، وصدر قانون ٤٣ لعام ١٩٧٤ لتشجيع الاستثمار الأجنبي في مصر. وانخفضت نسبة واردات السلاح إلى مجمل الواردات من ٦١,٨% عام ١٩٧٢ إلى ٥.٩% عام ١٩٧٩، ومقارنة بإجمالي المصروفات الحكومية انخفضت تلك النسبة من ٥٠,٥% عام ١٩٧٥ إلى ١٩,٧% عام ١٩٨٠ وإلى ١٥,١% عام ١٩٨٢[٢] وإلى أقل من ٧,٧% عام ١٩٩١/٩٠. أما بالنسبة للناتج المحلي الإجمالي، فقد حقق معدل نمو سنوي حقيقي مقداره ٩% خلال الفترة ما بين عامي ٧٤-١٩٨١، فارتفعت قيمته من ٤,٣ مليار جنيه عام ١٩٧٤ إلى ١٦,٩ مليار جنيه عام ١٩٨١/٨٠. مسجلا بذلك زيادة مطلقة مقدارها ٢٩٣% (ملحق ١). إلا أن هذا النمو المتسارع في الناتج القومي قد جاء مصاحبا لظهور خلل في البنية الهيكلية للاقتصاد القومي. فسياسة الانفتاح الاقتصادي التي سادت خلال تلك الحقبة الزمنية، لم يكن لها دور يذكر في زيادة قيمة الناتج القومي، وإنما جاءت معظم هذه الزيادة من أربعة مصادر إيرادية رئيسية، وهي على سبيل التحديد: الإيرادات النفطية، ورسوم المرور في قناة السويس، وتحويلات المصريين العاملين بالخارج، والمساعدات الأجنبية، وهذه كلها مصادر تقع خارج نطاق سيطرة الحكومة المصرية.

فعلى سبيل المثال ارتفعت الإيرادات النفطية من ٧٤٦ مليون جنيه عام ١٩٧٤ إلى ٢١٤٤ مليون جنيه عام ١٩٨١/٨٠، ونتيجة لإعادة فتح قناة السويس أمام الملاحة الدولية، ارتفعت إيرادات رسوم قناة السويس من ٤٠ مليون جنيه عام ١٩٧٥ إلى ٥٤٣ مليون جنيه عام ١٩٨١/٨٠.

كما وافق هذا النمو في الناتج القومي خلال النصف الثاني من عقد السبعينات حدوث خلل في التوازن الاقتصادي المحلي. فالزيادة في الواردات لم يقابلها زيادة مماثلة في الصادرات، فاتسعت فجوة العجز التجاري لترتفع من ١,٨ بليون دولار عام ١٩٧٤ إلى ٤ بليون دولار عام ١٩٨١/٨٠. وازدادت حدة العجز في الموازنة العامة للدولة لترتفع من ٦٢٥ مليون جنيه عام ١٩٧٤ إلى ٢,٣ بليون جنيه عام ١٩٨١/٨٠. ولتغطية هذا العجز المتصاعد في كل من الحساب الجاري والموازنة العامة للدولة لجأت الحكومة المصرية إلى الاقتراض من مصادر متعددة، فاقترضت من الحكومات الأجنبية، ومؤسسات الإقراض الدولية، ومن الجهاز المصرفي المحلي والأجنبي.

في هذا الوقت بدأ الاقتصاد المصري يأخذ طابع الاقتصاد المختلط، وبدأت تزداد أهمية القطاع الخاص والأجنبي المشترك في الاقتصاد المحلي. إلا أن الدولة بقيت مسيطرة على الجزء الأكبر من مجمل الاقتصاد القومي. واستمرت الحكومة في إتباع منهجية العمل بوقف مكننة التكلفة في تحديد الأسعار، فبقيت أسعار العديد من السلع الأساسية إما مدعومة أو محددة، مما اضطر الحكومة في ظل الزيادة المتواصلة للسكان، إلى التوسع في زيادة الإنفاق على دعم أسعار تلك السلع، ودون أن يواجه هذه الزيادة في الإنفاق زيادة مماثلة في الإيرادات. وبالتالي استمر الارتفاع في عجز الموازنة العامة سنة بعد أخرى.

وفي محاولة لإيجاد حل ناجح لهذا الخلل الهيكلي في البنية الأساسية للاقتصاد المصري، لجأت الحكومة المصرية في أوائل الثمانينات إلى الاستعانة بالبنك الدولي لمساعدتها في وضع استراتيجية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية، تحقق الاستقرار الاقتصادي في الدولة، وتضمن نمو الاقتصاد المحلي بمعدلات مقبولة، وتلافي حدوث حالة من عدم الاستقرار الاقتصادي نتيجة توقف أو انقطاع أي من موارد الدخل

الأجنبي، التي لها تأثير مباشر على الاقتصاد المحلي، ولكنها تقع خارج نطاق سيطرة الحكومة المصرية. وهذه الموارد على سبيل التحديد تنحصر في : تحويلات المصريين العاملين بالخارج، إيرادات السياحة، إيرادات قناة السويس، الإيرادات النفطية والمساعدات الخارجية.

هذه الدراسة تهدف إلى تقييم مدى نجاح أو فشل استراتيجية التنمية المصرية في تحقيق أهدافها خلال عقد من الزمن (١٩٨٢-١٩٩٢). وتتمثل أهمية الدراسة فيما يلي :—

١- إن صانعي القرار في الحكومة المصرية قد يرون أن النتائج التي سنتوصل إليها، أو بعضها، يمكن الاستفادة منها مستقبلا عند وضع السياسات الاقتصادية المحلية والخارجية.

٢- إن العديد من الدول النامية تستعين في معظم الأحيان بالخبراء الدوليين لوضع برامج لتصحيح وإعادة هيكلة اقتصادياتها المحلية، وما أحوج هذه الدول إلى أن تنظر إلى التجربة المصرية نظرة تحليلية متفحصة، على أمل أن تجد فيها ما يفيدها عند وضع برامجها واستراتيجياتها التنموية.

٣- إن العديد من الدول المستقلة حديثا - نتيجة تفكك الاتحاد السوفياتي - قد تجد في التجربة المصرية العديد من الجوانب المفيدة لها، خاصة وأن البعض من هذه الدول كانت تسير على النظم الاشتراكية، التي سادت في مصر حتى منتصف السبعينات.

٤- إن بعض الدارسين للنظريات الاقتصادية والمالية قد يجدون في الدراسة أهمية خاصة بالنسبة إليهم.

فرضيات الدراسة :

تهدف هذه الدراسة إلى نفي أو تأكيد صحة أي من الفرضيتين التاليتين :

الفرضية الأولى :

إن استراتيجية التنمية المصرية قد نجحت في إعادة هيكلة البنية الأساسية للقطاعات الاقتصادية المحلية، بحيث أصبح استقرار الاقتصاد المحلي ونموه بمعدلات معقولة من السمات الأساسية المميزة للاقتصاد المصري، والتي تستطيع الحكومة أن تحافظ عليها، وتتحكم بها على المدى الطويل.

الفرضية البديلة (الثانية) :

إن استراتيجية التنمية المصرية قد فشلت في إعادة هيكلة البنية الأساسية، أو في تحقيق معدلات نمو معقولة للاقتصاد المحلي، وبالتالي بقي الاقتصاد المصري عرضة للتأثر بعوامل خارجية يصعب على الحكومة المصرية التأثير فيها.

محدودية الدراسة :

١- تركز الدراسة على تبيان الملامح الرئيسية والنتائج المحققة لاستراتيجية التنمية المصرية، كما تضمنتها خطتا التنمية الخمسية الأولى والثانية (للفترة ١٩٨٢-١٩٩٢)، أما التفصيلات الدقيقة لكل بند من عناصر استراتيجية التنمية المصرية فيتعدى حدود هذه الدراسة.

٢- تقتصر الدراسة على تناول استراتيجية التنمية المصرية بالنقاش والتحليل، ولكننا لا نلجأ إلى مقارنة هذه التجربة بتجارب دول أخرى.

٣- تعتبر الأجهزة الحكومية، وصانعو القرار الاقتصادي والسياسي، ومراكز البحث المتخصصة هي الجهات الأكثر استفادة من النتائج التي قد نتوصل إليها، أما الفائدة التي تقدمها الدراسة للقطاع الخاص فمحدودة إلى حد بعيد.

البيانات الإحصائية :

تمثل البيانات الإحصائية الصادرة في المنشورات الرسمية لبعض الجهات الحكومية المصرية، كالبنك المركزي ووزارة التخطيط مصدرا رئيسيا لهذه الدراسة، كما تمت الاستعانة أيضا ببعض البيانات الصادرة عن جهات ومراكز بحث دولية متخصصة، مثل : البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، ووحدة الايكونمست. وقد انصب اهتمامنا على تحليل البيانات الإحصائية الخاصة بالفترة موضع الدراسة، إلا أننا في بعض الأحيان، لجأنا إلى إظهار بعض البيانات الإحصائية لفترات تقع خارج حدود هذه الفترة، وذلك لأغراض إيضاحية تخدم أهداف الدراسة.

منهجية الدراسة :

تستند منهجية هذه الدراسة على استخدام الأسلوب الكيفي المنظم، والذي يتلخص في الجمع بين جوانب وصفية كيفية وجوانب إحصائية في التحليل، وذلك بهدف التعرف على مدى نجاح أو فشل خطط التنمية المصرية في إحداث تعديلات هيكلية في البنية الأساسية للاقتصاد المحلي، ومدى إسهامها في تخفيف أثر انقطاع موارد النقد الأجنبي على الاقتصاد المحلي، وإمكانية ضمان استمرارية نمو الاقتصاد المحلي بمعدلات مقبولة. ولتحقيق ذلك فإننا سنقوم بإجراء تحليل مقارن للنتائج المحققة مع الأهداف المأمول تحقيقها لكل من خطتي التنمية الخمسية الأولى والثانية، وذلك من زاويتين : الزاوية الأولى تتمثل في تقييم أداء مختلف القطاعات الاقتصادية والزاوية

الثانية تركز على تحليل مدى تحقق الاستقرار الاقتصادي والنقدي خلال كل من هاتين الخطتين التنمويتين.

استراتيجية التنمية الاقتصادية والاجتماعية المصرية :

قام فريق بحث من اقتصاديي البنك الدولي، بالتعاون مع الاقتصاديين المصريين بإجراء دراسة تحليلية للاقتصاد المصري، وتوصلوا إلى أن استراتيجية التنمية الاقتصادية المصرية يجب أن تستند إلى " ضرورة إجراء تعديلات جذرية وهيكلية - في القطاعات الاقتصادية المحلية - قبل نهاية القرن، حتى يحقق الاقتصاد المصري معدلات النمو المطلوبة "(٣). وقام فريق البحث بصياغة نموذج للاقتصاد المصري يعرف " بنموذج النمو الأمثل في الأجل الطويل"، والذي يستند إلى افتراض أن أي انخفاض في الإيرادات الخارجية، سيضعف قدرة الدولة على الاستيراد، وبالتالي يجب استثمار تلك الإيرادات في أنشطة إنتاجية محلية، ليحل جزء من إنتاجها محل الواردات التي تستنزف الجزء الأعظم من موارد العملات الأجنبية، واستخدام الجزء الآخر من الإنتاج المحلي لأغراض التصدير، مما يضمن للدولة استمرار تدفق العملات الأجنبية، ويجنب الاقتصاد المحلي عدم الاستقرار الذي قد ينتج عن التقلبات الحادة في موارد الدخل الأجنبي، والتي تقع خارج نطاق سيطرة الحكومة المصرية.

أخذت الحكومة المصرية بالتوصيات التي توصل إليها الخبراء الدوليون والخبراء المصريون، فجاءت استراتيجية التنمية المصرية الحالية الطويلة المدى للفترة ١٩٨٢-٢٠٠٢ متضمنة أربع خطط خمسية متداخلة، ومتكاملة مع بعضها بعضا، والمبينة في ملحق ٢، وقد هدفت هذه الخطط في مجملها إلى تعديل البنية الأساسية للاقتصاد المصري، وذلك بالتركيز على زيادة الأهمية النسبية للقطاع السلعي، وخاصة قطاعي الزراعة، والصناعة والتعدين في قيمة الناتج المحلي الإجمالي، والسعي إلى تخفيض معدل

النمو السكاني من ٢,٨% إلى ٢,٦% سنويا. كما هدفت إلى تقييد الواردات الاستهلاكية، وخاصة السلع الكمالية والترفيهية. وهدفت إلى زيادة الصادرات السلعية والخدمية بمعدل نمو يبلغ حوالي ٦% سنويا.

ولكن في الوقت الذي استهدفت فيه خطة التنمية الأولى المنتهية في يوليو ١٩٨٧ تحسين البنية الأساسية للاقتصاد، وتحقيق معدل نمو في قيمة الناتج المحلي الإجمالي بواقع ٧,٩%، استهدفت ثلاث الخطط المتبقية تحقيق معدلات نمو بواقع ٥,٨%، ٦,٢%، ٦,٧% على التوالي، لترتفع بذلك قيمة الناتج المحلي الإجمالي من ٤٠,٨ بليون جنيه عام ١٩٨٨/٨٧ إلى ١٠٠,١ بليون جنيه عام ٢٠٠٢/١. وأن يرتفع معدل النمو المستهدف للقطاعات السلعية من ٤,٩% - خلال خطة التنمية الأولى - إلى ٥,٨%، ٦,٤%، ٧,٣% خلال ثلاث الخطط المتبقية على التوالي؛ لتصل نسبة مساهمة القطاعات السلعية في قيمة الناتج المحلي الإجمالي إلى ٥٠,٣% في نهاية الخطة الخمسية الرابعة. كما ركزت استراتيجية التنمية المصرية على تدعيم النشاط السياحي ليحقق معدل نمو سنوي بواقع ١٠%، في حين أن من المستهدف أن تبقى قطاعات الخدمات الاجتماعية عند مستواها في حدود ١٧,٢% من الناتج المحلي الإجمالي.

كما أولت استراتيجية التنمية المصرية أهمية خاصة للاستثمار في القطاعات السلعية، بحيث ترتفع نسبة الاستثمار في هذه القطاعات من ٥٢,٩% - من جملة استثمارات الخطة التنموية الثانية، والمقدرة بمبلغ ٤٥,٧ بليون جنيه - إلى ٦٠,٥% من جملة استثمارات الخطة التنموية الرابعة، والمقدرة بمبلغ ١٠٢ بليون جنيه، كما هو مبين في ملحق ٣.

وقد احتل قطاع الصناعة والتعدين أهمية خاصة، حيث دعت الخطط التنموية إلى زيادة الاستثمار في هذا القطاع، على اعتبار أنه سيكون الركيزة الأساسية للموارد الخارجية، فخصص ما نسبته ٣٥,١٪ من جملة استثمارات الخطة الرابعة لاستثمارها في هذا القطاع، بحيث تزداد مخصصات الاستثمار لهذا القطاع من ١٢,٢ بليون جنيه خلال الخطة الخمسية الثانية إلى ٣٥,٨ بليون جنيه خلال الخطة التنموية الرابعة. كما أوليت السياحة أهمية خاصة أيضا باعتبارها موردا أساسيا للعملات الأجنبية، فازدادت قيمة مخصصات الاستثمار لهذا القطاع من ٠,٤ بليون جنيه في الخطة التنموية الثانية إلى ٢,١ بليون جنيه في الخطة التنموية الرابعة.

كما يبين ملحق ٤ التصور العام للموارد والاستخدامات المتاحة للاقتصاد المصري حتى عام ٢٠٠٢، ومنه يتبين أنه – وحتى النصف الثاني من العقد الحالي – من المتوقع أن يبقى الاقتصاد المصري يواجه عجزا في الميزان السلعي والخدمي، إلا أنه يؤمل أن ينتقل الاقتصاد المصري من مرحلة العجز في الميزان السلعي والخدمي إلى مرحلة الفائض بعد ذلك.

أداء الخطة الخمسية الأولى (١٩٨٣/٨٢ - ١٩٨٧/٨٦)

استهدفت خطة التنمية الخمسية الأولى تحسين البنية الأساسية للاقتصاد المحلي، وتحقيق معدل نمو في قيمة الناتج المحلي الإجمالي بنسبة ٧,٩٪ وزيادة قيمة الاستثمارات في القطاع السلعي، بهدف زيادة الأهمية النسبية لهذا القطاع في الناتج القومي.

وسنقوم فيما يلي بالتعرف على مدى النجاح الذي تم تحقيقه في تحسين البنية الأساسية للاقتصاد المحلي، وتنمية أداء القطاعات الاقتصادية المختلفة، ومدى الاستقرار الاقتصادي والنقدي، الذي تم تحقيقه أثناء سنوات الخطة، وذلك على النحو التالي :

أولا : أداء القطاعات الاقتصادية :

اتسمت سنوات الخطة باستمرار الارتفاع في قيمة الناتج المحلي الإجمالي بالأسعار الجارية ؛ ليصل إلى ٤٠,٩ مليار جنيه عام ١٩٨٧/٨٦، بعد أن كان ٢٤,٨ مليار جنيه عام ١٩٨٣/٨٢، مسجلا بذلك زيادة مطلقة بنسبة ٦٤,٩%. أما إذا حسبت هذه الأرقام بالأسعار السائدة في عام ١٩٨٢/٨١ فستنخفض نسبة الزيادة إلى ٢٦,٧%، وستنخفض قيمة الناتج المحلي الإجمالي إلى ٢٨ مليار جنيه عام ١٩٨٧/٨٦، كما هو مبين في ملحق ٥. ولكن بالرغم من هذه الزيادة إلا أن النتائج المحققة على مستوى الاقتصاد القومي بمجمله، لم تكن بالمستوى المنشود، إذ بلغ معدل النمو السنوي للناتج المحلي الإجمالي ٦,٢% وكان المستهدف ٧,٩%، كما هو مبين في جدول (١).

جدول (١)

معدلات النمو المستهدفة والفعلية والأهمية النسبية لمختلف القطاعات الاقتصادية خلال الخطة الخمسية الأولى (١٩٨٣/٨٢ - ١٩٨٧/٨٦)

القطاعات الاقتصادية	معدلات النمو		الأهمية النسبية (%)[٣] (بأسعار عام ١٩٨٢/٨١)	
	مستهدف[١] (%)	محقق[٢] (%)	١٩٨٣/٨٢	١٩٨٧/٨٦
القطاعات السلعية			٥١,٧	٥٠,١
الزراعة والري	٣,٥	٣,٠	١٨,٥	١٦,٧
الصناعة	٩,٨	٩,٢	١٣,٦	١٤,٨
البترول	١٣,٣	٧,٣	١٤,٠	١٣,٨
الكهرباء	١٠,٧	١٤,٦	٠,٦	٠,٩
التشييد	٧,٣	٤,٣	٥,٠	٤.٤
قطاعات الخدمات الإنتاجية				
النقل والمواصلات	٥,٣	٨,١	٣٠,٨	٣٠,٤
قناة السويس	٦,٤	٠,٨	١٠,٢	١٠,١
التجارة	٦,٧	٦,٩	١٩,٥	١٩,١
المال		٤،٢	١,١	١,١
التأمين	٧,٠	٣,٣		
المطاعم والفنادق (السياحة)	٧.٠	٥,٧		
خدمات اجتماعية			١٧,٥	١٩,٠
الإسكان والمرافق العامة	٩,٠	٩,٢	٢,١	٢,٥
الخدمات الأخرى	٨,٠	٧,٩	١٥,٤	١٦,٥
الناتج المحلي الإجمالي	٧,٩	٦,٢	١٠٠	١٠٠

المصادر :

(١) صندوق النقد الدولي، **جمهورية مصر العربية : التطورات الاقتصادية الحديثة. تقرير رقم س م / ١٠٤/٨٨ بتاريخ ١٠ مايو ١٩٨٨**، صفحة ٨٠.

(٢) تم احتسابها من البيانات الواردة في التقرير السنوي للبنك المركزي المصري لعام ١٩٩١/٩٠. جدول ١/١، صفحة ١٥١.

(٣) البنك المركزي المصري، **التقرير السنوي ١٩٩٢/٩١**، جدول ١/١، صفحة ١٥٢

وعلى الرغم من أن النتائج المحققة خلال ثلاث السنوات الأولى من الخطة قد فاقت التوقعات، بحيث وصل معدل النمو السنوي إلى ٨,٤٪، إلا أن هذه النسبة قد انخفضت خلال السنتين التاليتين إلى حوالي ٤,٥٪. غير أنه لم يكن للحكومة المصرية أي دور يذكر في هذه التغيرات الاقتصادية، وإنما مرجعها إلى عوامل خارجة عن نطاق سيطرة الحكومة المصرية، كالهبوط الحاد في أسعار النفط الخام، والذي انخفض من ٣٠,٦ دولار للبرميل في كانون أول ١٩٨٢ إلى ما دون ١٧ دولارا للبرميل في شباط ١٩٨٧، مما ترتب عليه أن معدل النمو السنوي للقطاع النفطي لم ينم إلا بمعدل ٧,٧٪، وكان المستهدف ١٣,٣٪. كما تأثرت حركة الملاحة في قناة السويس نتيجة لانخفاض حجم تجارة دول الخليج العربي، وحالة عدم الاستقرار السياسي في تلك المنطقة، والتي خلقتها الحرب العراقية الإيرانية، وقيام العراق بتصدير نفطه عبر الأراضي التركية، وبالتالي لم ينم المعدل السنوي لإيرادات قناة السويس إلا بحوالي ٠,٨٪، وكان المستهدف ٦,٤٪. كما لم تحقق السياحة في مصر معدلات النمو المستهدفة للخطة، وذلك لسببين يتمثلان في عدم قيام الحكومة المصرية ببذل جهود حقيقية لتنمية وتطوير خدمات السياحة، وعدم نجاحها في وقف هجمات الجماعات الإسلامية على السياح الأجانب.

وقد انعكس اختلاف معدلات النمو المحققة عن المستهدفة للعديد من القطاعات الاقتصادية على الأهمية النسبية لهذه القطاعات في قيمة الناتج المحلي، حيث نلاحظ أنه خلال سنوات الخطة ارتفعت الأهمية النسبية لقطاع الخدمات الاجتماعية من ١٧,٥٪ إلى ١٩٪، وبالأسعار الثابتة لعام ١٩٨٢/٨١ (جدول١). أما إجمالي كل من القطاعات السلعية والإنتاجية، فقد انخفضت نسبة مساهمتها في قيمة الناتج المحلي الإجمالي. فبالنسبة لمساهمة القطاع السلعي انخفضت من ٥١,٧٪ عام ١٩٨٣/٨٢

إلى ٥٠,١% عام ١٩٨٧/٨٦ وبالأسعار الثابتة لعام ١٩٨٢/٨١، هذا على الرغم من التحسن الطفيف في نسبة مساهمة قطاع الصناعة والتعدين، والذي كانت معدلات نموه خلال سنوات الخطة دون المستوى المطلوب. كما أن مساهمة القطاع الزراعي في قيمة الناتج المحلي بالأسعار الثابتة لعام ١٩٨٢/٨١ انخفضت من ١٨,٥% في السنة الأولى إلى ١٦,٧% في السنة الأخيرة من الخطة. ويمكن إرجاع السبب في عدم نمو القطاع السلعي -كما كان مأمولا أثناء سنوات الخطة- إلى أن جملة استثمارات القطاعين العام والخاص في هذا القطاع لم تكن بالمستوى المطلوب. فمن جملة استثمارات كل من القطاعين العام والخاص،والبالغة ٤٣,٧ مليار جنيه خلال سنوات الخطة، اقتصرت حصة القطاع الزراعي على ما نسبته ٧,٨% منها(ملحق ٦).

أما بالنسبة للصادرات فقد انخفضت قيمتها خلال العامين الأخيرين من الخطة الخمسية الأولى بنسبة ٦,٢%، في حين ارتفعت قيمة الواردات خلال الفترة نفسها بنسبة ٣٤,٥%، وبقيت قيمة الصادرات لا تمثل إلا ما نسبته ٢١,٩% من قيمة الواردات، كما هو موضح في (ملحق ٧).

و لم تنجح الجهود الحكومية في الحد من معدل الزيادة السكانية، الذي وصل إلى حوالي ٣% أثناء سنوات الخطة، وذلك بسبب رفض قطاع كبير من المواطنين للبرامج الحكومية الهادفة إلى تحديد النسل، مما ساهم في زيادة عبء الإنفاق الحكومي، فزادت المصروفات الحكومية خلال سنوات الخطة الخمس بنسبة ٦٩%، لتصل إلى ٢٤,٥ مليار جنيه عام ١٩٨٧/٨٦، إلا أن هذه الزيادة لم يرافقها زيادة مماثلة في الإيرادات، التي ارتفعت بنسبة ٥٨,٧% فقط. مما ترتب عليه اتساع فجوة العجز ما بين الموارد والاستخدامات، فارتفع العجز في الموازنة العامة إلى ٩,١ مليار جنيه عام ١٩٨٧/٨٦ بعد أن كان مقدرا لذلك العام بمبلغ ٤,٩ مليار جنيه، مما دفع بالحكومة المصرية إلى الاستمرار في الاقتراض من مصادر محلية وخارجية، كما هو مبين في ملحق ٥.

ثانيا : الاستقرار الاقتصادي والنقدي :

لم تنجح معدلات النمو الاقتصادي المحققة خلال خطة التنمية الخمسية الأولى في تضييق فجوة العجز ما بين الموارد والاستخدامات في الاقتصاد المحلي، وبالتالي استمر نمو الاقتصاد المصري على حساب العالم الخارجي. إلا أن ذلك لم يكن سهلا على الحكومة المصرية، التي أصبحت بين كل فترة وأخرى مضطرة إلى خوض مناقشات شاقة ومضنية مع صندوق النقد الدولي، بهدف الحصول على قروض وتسهيلات إئتمانية جديدة، أو لإعادة جدولة الديون الخارجية المستحقة. ولتحقيق ذلك اشترط صندوق النقد الدولي على الحكومة المصرية، من ضمن شروط عدة، شرطين رئيسيين، أولهما ضرورة إجراء تعديل على هيكل سعر صرف الجنيه، وثانيهما ضرورة رفع الدعم عن السلع الاستهلاكية.

وفي أوائل عام ١٩٨٤، وافقت الحكومة المصرية على إصدار تشريعات عدة لتخفيف القيود المفروضة على سعر صرف الجنيه في السوق المحلي، فسمحت بإقامة سوق مصرفية حرة فيما بين البنوك التجارية، بحيث يتم من خلال تلك السوق تداول الجنيه بسعر صرف يختلف عن سعر الصرف الرسمي الذي يتعامل به البنك المركزي. وسمح بتذبذب سعر صرف الجنيه في حدود معينة في تلك السوق. في الوقت نفسه، رفضت الحكومة إجراء أي تعديل على سعر صرف الجنيه الرسمي في تعاملها وتقويمها لبعض الأنشطة المحلية (في ذلك الوقت كان السعر الرسمي ٠,٧ جنيه = دولار أمريكي). إذ أن الحكومة المصرية تستخدمه كأساس لحساب قيمة الواردات من السلع الاستهلاكية المدعومة. وقد ترتب عن هذا الوضع ما يلي :

أ- انخفاض سعر صرف الجنيه في السوق الحرة مقابل العملات الأجنبية. إذ انخفض سعر صرف الجنيه من ١,٢ جنيه للدولار في أوائل سنة ١٩٨٤ إلى ٢,٣ جنيه للدولار

في ديسمبر ١٩٨٧، وقد ترتب عن هذا الانخفاض ارتفاع أسعار العديد من السلع الاستهلاكية، وخاصة المستورد منها، مما أدى إلى ازدياد معدلات التضخم المحلي، الذي ارتفع من ٩,١% عام ١٩٨٥/٨٤ إلى ٣٤,٦% عام ١٩٨٧/٨٦ (٤). ولكن إصرار الحكومة المصرية في الإبقاء على سعر الصرف الرسمي في احتساب أسعار العديد من السلع التموينية قد مكنها من كبح جماح التضخم، الذي كان من الممكن أن يرتفع إلى مستويات تفوق هذه المعدلات.

ب- إن عدم السماح بحرية تحرك سعر صرف الجنيه وفق عوامل العرض والطلب أدى إلى قيام سوق صرف غير مشروعة " سوق سوداء "، وأصبحت هذه السوق تستقطب معظم تحويلات المصريين العاملين في الخارج.

ج- إن رفض الحكومة المصرية التخلي عن سعر الصرف الرسمي، ورفض رفع الدعم عن السلع الاستهلاكية، قد فرض عليها ضغوطا سياسية دولية، للدرجة التي دفعت بالرئيس المصري للتصريح بأن بعض شروط صندوق النقد الدولي غير مقبولة، وتعتبر تدخلا في الشؤون الداخلية، وبأن مصر لا تسمح لأحد بالتدخل في شؤونها (٥).

خلاصـــــة :

استنادا على ما تقدم، فإنه يمكننا استخلاص القول بأن خطة التنمية الخمسية الأولى لم تنجح في تحقيق أهدافها الأساسية والمتمثلة في تحسين البنية الأساسية للاقتصاد المحلي، وزيادة معدل نمو الناتج المحلي الإجمالي بمعدلات معقولة. ويمكن إرجاع هذا الفشل إلى عوامل داخلية وأخرى خارجية، ونقصد بالعوامل الداخلية بأنها تلك العوامل التي تستطيع الحكومة المصرية التأثير فيها بشكل مباشر، أما العوامل الخارجية، فليس للحكومة المصرية قدرة على التأثير فيها، أو أن مقدرتها على التأثير فيها محدودة إلى حد بعيد.

وتتمثل العوامل الداخلية بصورة أساسية في عدم قيام الحكومة المصرية ببذل الجهود الكافية لتنمية وتطوير القطاع السلعي، أو تطوير وتسويق الخدمات السياحية، وعدم مقدرتها أيضا على وقف نشاط الجماعات الإسلامية ضد السياح الأجانب، مما ترك آثاره السلبية الواضحة على معدل نمو قطاع السياحة ونسبة مساهمته في الناتج المحلي. كما لم تبذل الحكومة جهودا كافية في مجال تطوير الأنظمة والتشريعات لتنمية الصادرات المصرية، أو لاستقطاب أموال المغتربين المصريين.

أما العوامل الخارجية فتتمثل أساسا بالانخفاض الحاد في أسعار النفط الخام عالميا، والذي أثر سلبا على الاقتصاد المصري في أكثر من اتجاه. حيث كان لانخفاض أسعار النفط تأثيره المباشر في انخفاض نسبة مساهمة قطاع البترول في الناتج المحلي الإجمالي، ومن جهة أخرى، فان انخفاض أسعار النفط واستمرار الحرب العراقية - الإيرانية أديا إلى انخفاض حجم تجارة دول الخليج العربي، مما ساهم في انخفاض إيرادات رسوم المرور في قناة السويس. وبالتالي بقي الاقتصاد المصري عرضة للتأثر بالعوامل نفسها الخارجية

البعيدة عن سيطرة الحكومة المصرية، والتي هدفت خطط التنمية أساسا للتخفيف من آثارها، أو للتخلص منها بصورة نهائية.

أداء الخطة الخمسية الثانية (١٩٨٨/٨٧ – ١٩٩٢/٩١) :

أولا : أداء القطاعات الاقتصادية :

هدفت الخطة الخمسية الثانية من خطط التنمية المصرية إلى تحقيق الاستقرار الاقتصادي عن طريق تحقيق معدل نمو مقداره ٥,٨% في قيمة الناتج المحلي الإجمالي. كما ركزت هذه الخطة على تدعيم قطاعي الزراعة والصناعة بحيث يحققان معدلات نمو سنوية مقدارها ٤,١% و ٨,٤% على التوالي (ملحق١)، وذلك بهدف توفير الأمن الغذائي، وتخفيض قيمة الواردات الغذائية، وكذلك تشجيع الصناعة المحلية ليحل إنتاجها مكان الواردات من السلع المشابهة، وكذلك تزويد القطاع الاستهلاكي والزراعي باحتياجاته من السلع المصنعة محليا، مما يوفر للدولة مبالغ طائلة من العملات الأجنبية التي يمكن استثمارها في مجالات أخرى.

إلا أن النتائج المحققة لم تكن بالمستوى المأمول، فالأرقام الفعلية لأداء السنوات الأربع الأولى من الخطة الخمسية الثانية[٦] تشير إلى أن أداء هذه السنوات لم يكن بأحسن حالا من أداء الخطة التنموية الخمسية الأولى. فمعدل نمو الناتج المحلي المستهدف لم يتحقق إلا في السنة الأولى من الخطة الخمسية الثانية (جدول ٢). ويرجع السبب الأساسي في ذلك إلى قيام الحكومة المصرية بتعديل الأرقام الإحصائية لتلك السنة، وبما يتناسب ومستويات الأسعار السائدة خلالها، والتي تفوق كثيرا ما كان متوقعا عند إعداد الخطة التنموية، أي أن معدل نمو ذلك العام جاء انعكاسا للأرقام الإحصائية، ولم يكن نتيجة لأداء حقيقي للاقتصاد المصري. كما نلاحظ أيضا أن

معدل النمو السنوي للناتج المحلي الإجمالي لأي من ثلاث السنوات الأخيرة لم يصل إلى مستوى أداء السنة الأولى من الخطة سواء إذا ما قيس أداء هذه السنوات بالأسعار الجارية أو بالأسعار الثابتة.

جدول ٢

الناتج المحلي الإجمالي ومعدلات نموه السنوية للفترة ١٩٨٨/٨٧ - ١٩٩١/٩٠

البيان	١٩٨٨/٨٧	١٩٨٩/٨٨	١٩٩٠/٨٩	١٩٩١/٩٠
الناتج المحلي الإجمالي بالأسعار الجارية (مليار جنيه)	٤٦,٨	٤٩,٣	٥٢,١	٥٤,٦
الناتج المحلي الإجمالي بأسعار عام ١٩٨٧/٨٦ (مليار جنيه)	٤٣,٣	٤٥,٦	٤٧,٩	٥٠,٢
معدل النمو السنوي بالأسعار الجارية (%)	٦,٢	٥,٣	٥,٧	٤,٨
معدل النمو السنوي بأسعار عام ١٩٨٧/٨٦ (%)	٥,٩	٥,٣	٥,٠	٤,٨

وإذا نظرنا إلى معدل النمو السنوي للناتج المحلي الإجمالي لسنوات الخطة فإننا نجده لم يتعد ٣,٩٪، في حين كان المستهدف ٥,٨٪ (جدول ٣). فعلى مستوى أداء القطاعات السلعية، فإنها لم تحقق معدل النمو السنوي المستهدف، كما هو مبين في (جدول ٣). فمعدل النمو في القطاع الزراعي كان دائما دون المستوى المستهدف، وهو ٤,١٪. أما أداء القطاع الصناعي فلم يكن بأحسن حالا من أداء القطاع الزراعي، فانخفض معدل نموه من ٧,٤٪ إلى ٥,٧٪ خلال عامي ١٩٩٠/٨٩ و

١٩٩١/٩٠ على التوالي (جدول ٤)، وكان معدل النمو المستهدف للقطاع الصناعي ٨,٤%، ولكن المحقق فعلا خلال سنوات الخطة لم يتعد ٤,٩%.

ويعتبر تدني مستوى حجم الاستثمارات في القطاعات السلعية، وعدم تطوير الأنظمة التشريعية بما يتناسب مع طموحات الخطط التنموية من الأسباب الرئيسية لذلك الوضع. فنسبة الاستثمار في القطاعات السلعية لم تتعد ٥٠,١%، في حين كانت خطة التنمية الثانية تدعو إلى استثمار ما نسبته ٥٢,٩% في القطاع السلعي. كما كانت نسبة الاستثمارات في قطاعي الزراعة والصناعة ٩% و ٢٣.٩% على التوالي، في حين نجد أن النسبة المقترحة في خطة التنمية كانت لهذين القطاعين ١٠,٨% و ٢٧,٧% على التوالي.

جدول ٣

الناتج المحلي الإجمالي (بتكلفة عوامل الإنتاج) بأسعار (١٩٨٧/٨٦)

	متوسط سنوات الخطة الخمسية (٨٨/٨٧-١٩٩٢/٩١)			
	معدل النمو السنوي		الهيكل القطاعي	
	مستهدف	فعلي	مستهدف	فعلي
الناتج المحلي الإجمالي	٥,٨	٣,٩		
القطاعات السلعية	٥,٨	٣,٧	٤٨,١	٤٧,٦
الزراعة	٤,١	٢,٨	٢٠,٧	١٩,٧
الصناعة	٨,٤	٤,٩	١٦,٧	١٧,٤
البترول	٢,٣	٠,٤	٣,٨	٣,٢
الكهرباء	٧,١	٦,٠	١,١	١,٢
التشييد	٥,٩	٥,٠	٥,٨	٦,١
قطاع الخدمات الإنتاجية	٥,٦	٤,٠	٣٢,٤	٣٢,٥
النقل والمواصلات		٣,٨	٦.٦	٦,٥
قناة السويس	٥,١	١,٩	١,٧	١,٦
التجارة		٣,٤	١٨,٦	١٨,٢
المال	٥,٥	٣,٩	٤,٥	٤،١
التأمين		٢,٦	٠,١	١,٧
المطاعم والفنادق	١٠,٩	١٧,٣	٠,٩	١٩,٩
قطاع الخدمات الاجتماعية	٦,٢	٤,٤	١٩,٥	٢,٠
الإسكان		١٠,٧	١,٤	٠,٤
المرافق العامة	١١,٤	٧,٨	٠,٣	٩,٦
الخدمات الحكومية والتأمينات الاجتماعية	٥,٥	٥,٠	٩,٢	٩,٦
الخدمات الشخصية	٥,٢	٢,٣	٨,٦	٧,٩

المصدر : البنك المركزي المصري، **التقرير السنوي ١٩٩٢/٩١**، ص ص. ٦،٧

ويلاحظ أن القطاع الوحيد الذي طرأ تحسن على أدائه خلال السنة الرابعة من الخطة الخمسية الثانية هو قطاع البترول ومنتجاته (جدول ٤)، ويعود السبب في ذلك إلى أحداث أزمة الخليج، التي دفعت بأسعار البترول عاليا، لتصل إلى ٢٤ دولارا للبرميل، بعد أن كانت في حدود ١٧,٥ دولار للبرميل قبل الأزمة، وكذلك إلى قيام الحكومة المصرية بزيادة إنتاجها من البترول للمساعدة في تعويض النقص الذي حصل في سوق النفط العالمي جراء الأزمة، فارتفع الإنتاج النفطي لمصر من ٨٧٥ ألف برميل يوميا إلى ٩٠٠ ألف برميل يوميا. ولكن بعد انتهاء حرب الخليج عاودت أسعار النفط انخفاضها، ليصل سعر البرميل إلى ١٥,٣ دولار، مما ترتب عليه انخفاض عائدات البترول من ١,٩٧ مليار دولار عام ٩١/٩٠ إلى ١,٦٥ مليار دولار في العام التالي (ملحق٨). وبالتالي بقي معدل النمو السنوي لقطاع البترول دون المستوى المستهدف.

أما بالنسبة لقطاعات الخدمات الإنتاجية، فقد فاقت معدلات النمو المحققة خلال ثلاث السنوات الأولى من الخطة معدلات النمو المستهدفة (جدول ٤). ويعتبر التحسن الكبير الذي طرأ على قطاع السياحة سببا رئيسيا لهذا النمو، إذ وصلت معدلات النمو في القطاع السياحي خلال السنتين الأوليتين من الخطة ٣٣,٦% و ٢٠,٨% في حين كانت نسبة النمو المستهدف لهذا القطاع ١٠,٩%. إلا أن معدل نمو قطاعات الخدمات الإنتاجية قد انخفض بشكل حاد خلال السنة الرابعة من الخطة الخمسية الثانية للتنمية ليصل إلى ٢,٧% بعد أن كان في السنة الثالثة ٦,٣%. ويعود السبب في هذا الانخفاض بشكل رئيسي إلى أداء قطاع السياحة أيضا، والذي حقق في عام ١٩٩١/٩٠ معدل نمو سلبي مقداره ٢٦,١%، ويعود السبب في هذا الانخفاض إلى التخوف والشك من حدوث اضطرابات في المنطقة بسبب أزمة الخليج، وبالتالي إلى ابتعاد السائحين الأجانب عن المنطقة. ولكن بعد انتهاء الحرب تغير هذا الاتجاه، فنمت الإيرادات السياحية خلال عام ٩٢/٩١ بنسبة وصلت إلى ٩٢% عن العام

السابق، فارتفعت إيرادات السياحة من ٠,٩ مليـــار دولار عـــام ٩١/٩٠ إلى ١,٧٣ مليار دولار في العام التالي (ملحق ٨).

جدول ٤

معدلات النمو لمختلف القطاعات الاقتصادية خلال أربع السنوات الأولى من الخطة الخمسية الثانية (١٩٨٨/٨٧ - ١٩٩١/٩٠)

البيان	معدل النمو (%) (بأسعار عام ١٩٨٧/٨٦)				
	المحقق				المستهدف
	٨٨/٨٧	٨٩/٨٨	٩٠/٨٩	٩١/٩٠	
القطاعات السلعية					
الزراعة والري	٣,٧	٣.٣	٣.٣	٣,١	٤,١
الصناعة والتعدين	٧,٢	٧,٣	٧,٤	٥,٧	٨,٤
البترول ومنتجاته	٦,٤	(٢,٨)	٢,٧	٤,١	٢,٣
الكهرباء	٧,٩	٩,٥	٣,١	٥,٢	٧,١
التشييد	٧,٨	٥,٣	٥.٥	٥.٥	٥,٩
جملة القطاعات السلعية	٥,٦	٤,٦	٤,٩	٤.٤	٥,٨
قطاع الخدمات الإنتاجية					
النقل والتخزين والمواصلات وقناة السويس	٦,٤	٩,٣	٩,٨	٤,١	١.١
التجارة والمال والتأمين	٥,٢	٤,٦	٤,٧	٣,٩	٥.٥
السياحة	٣٣,٦	٢٠,٨	٧,٨	(٢٦,١)	١.١
جملة قطاعات الخدمات الإنتاجية	٦,٤	٦,٥	٦,٣	٢,٧	٥,٦
قطاعات الخدمات الاجتماعية					
الإسكان والمرافق العامة	٩,٥	١٢,١	١٢,٨	١٠,٧	١١,٤
خدمات اجتماعية وشخصية	٤,٨	٤,٦	٥,٣	٤,٧	٥,٤
الخدمات الحكومية والتأمينات	٦,٠	٦,١	٥,٦	٤,٨	
جملة قطاعات الخدمات الاجتماعية	٦,١	٦,٣	٦,٤	٥.٥	٦,٢
الناتج المحلي الإجمالي	٥,٩	٥.٥	٥,٧	٤,٠	٥,٨

أما قطاعات الخدمات الاجتماعية، فقد كانت معدلات نموها المحققة خلال ثلاث السنوات الأولى في حدود المستوى المنشود. بل وصل خلال السنة الثالثة (١٩٩٠/٨٩) إلى ٦٫٤٥%، وكان المستهدف ٦٫٢%. ويعود السبب في ذلك إلى اهتمام الحكومة بمشكلة الإسكان، ومحاولة توفير المساكن للجميع، إضافة إلى تحسين مستوى الخدمات الحكومية.

وبصفة عامة يلاحظ أن معدلات النمو للقطاعات الاقتصادية قد جاءت دون المستوى المنشود خلال السنة الرابعة (١٩٩١/٩٠) من الخطة الخمسية الثانية. ما عدا قطاع البترول ومنتجاته فقد شهد هذا القطاع تحسنا ملحوظا، مقارنة بأدائه في الأعوام السابقة من الخطة. ويرجع السبب في ذلك إلى أحداث أزمة الخليج.

أما إذا تفحصنا الأهمية النسبية للقطاعات الاقتصادية المختلفة ونسبة مساهمتها في قيمة الناتج المحلي الإجمالي (جدول ٣)، فنلاحظ بصفة خاصة أن نسبة مساهمة القطاع السلعي لا تزال دون المستوى المستهدف، وخاصة بالنسبة لقطاعي الزراعة والبترول.

أما بالنسبة للاستثمار في الاقتصاد المحلي، فيلاحظ أن جملة الاستثمارات خلال أربع السنوات الأولى من الخطة الخمسية الثانية قد فاقت إجمالي الاستثمارات المقدرة على مدى سنوات الخطة الخمس. ففي الوقت الذي قدرت فيه جملة الاستثمارات خلال سنوات الخطة الخمس بمبلغ ٤٥٫٧ مليار جنيه (ملحق ٣) منها ٧٠% استثمارات حكومية، بلغت جملة الاستثمارات خلال أربع السنوات الأولى ٦٦٫٦ مليار جنيه، وخصص ما مقداره ٤٦٫٥ مليار جنيه كاستثمارات لعام ١٩٩٢، منها ١٨ مليارا من القطاع الخاص. ويعود السبب في هذا الارتفاع بقيمة الاستثمارات إلى انخفاض سعر صرف الجنيه مقابل العملات الأجنبية، حيث انخفض سعر صرف الجنيه في السوق الحرة من ١٫٤ جنيه للدولار في ديسمبر ١٩٨٦ إلى ٣٫٣ جنيه للدولار في

يونيو ١٩٩١. وبالتالي أصبحت الحكومة مضطرة إلى دفع مبالغ أعلى (بالعملة المحلية) للحصول على احتياجاتها من الخارج.

من هنا يتبين لنا أن توجهات الحكومة المصرية قد انصبت على تحسين الخدمات الإنتاجية والاجتماعية بدلا من التركيز على رفع أداء القطاع السلعي، كما جاء في أهداف استراتيجية التنمية. فجزء كبير من النفقات الحكومية قد تم إنفاقه على استبدال وتحسين وسائل خدمات متاحة (مثل استبدال شبكات الصرف الصحي) بدلا من إنفاقه في مجالات إنتاجية جديدة.

ثانيا : الاستقرار الاقتصادي والنقدي :

نتيجة لاستمرار انخفاض سعر صرف الجنيه أمام العملات الصعبة من جهة، ولعدم تمكن الاقتصاد المصري من تحقيق معدلات النمو المطلوبة من جهة أخرى، ازدادت فجوة العجز التجاري الذي ارتفع من ١٢,٥ مليار جنيه عام ١٩٨٨/٨٧ إلى ٢٢ مليار جنيه عام ١٩٩١/٩٠. وفي أثناء هذه الفترة ارتفعت قيمة الواردات من ١٦,٣ بليون جنيه إلى ٣١,٤ بليون جنيه في حين ارتفعت قيمة الصادرات من ٣,٨ بليون جنيه إلى ٩,٤ بليون جنيه.

كما استمر عجز الموازنة العامة، فارتفع من ٧,٢ مليار جنيه عام ١٩٨٨/٨٧ إلى ١٠,١ مليار جنيه عام ١٩٩١/٩٠ (ملحق ٩)، مما دفع بالحكومة المصرية إلى الاستمرار في البحث عن مصادر تمويل خارجية لتمكينها من تغطية العجز في الموازنة العامة. ويلاحظ بصفة عامة أن الموازنة العامة للدولة دائما تميل إلى إظهار قيمة العجز التقديري أقل بكثير من الأرقام النهائية للميزانية، ففي عام ١٩٨٨/٨٧قدر العجز في الموازنة العامة بمبلغ ٤,٩ مليار جنيه، أما العجز الفعلي فوصل إلى ٧,٢ مليار جنيه وفي عام ١٩٩٠/٨٩ وصل العجز الفعلي إلى ١٠,٨ مليار جنيه في حين كان العجز التقديري ٦,٥ مليار جنيه. ويمكن تفسير هذا الوضع من عدة جوانب، فقد يكون

السبب في انخفاض قيمة العجز التقديري هو استخدام الحكومة المصرية لتلك الموازنة في مفاوضاتها مع صندوق النقد الدولي، مما يحسن مركزها التفاوضي، إذ يشترط الصندوق ضرورة إلا تزيد قيمة العجز في الموازنة عن نسبة معينة من قيمة الناتج المحلي، أو قد يكون السبب في ذلك هو استمرار تدهور سعر صرف الجنيه بمعدلات تفوق توقعات الحكومة المصرية، أو كلاهما معا.

ولكننا نلاحظ انه خلال العام الأخير من خطة التنمية الخمسية الثانية، فان قيمة العجز الكلي الفعلي قد انخفضت إلى أدنى مستوى لها خلال سنوات الخطة، فلأول مرة يظهر ميزان المعاملات الجارية (بما فيها التحويلات الخاصة والرسمية) فائضا مقداره ١,٤ مليار دولار، وسجل ميزان المدفوعات أيضا فائضا وصل إلى ٥,١ مليار دولار، مما انعكس على تحسن احتياطي الدولة من العملات الأجنبية. ويمكن إرجاع هذا التحسن المفاجئ في الأوضاع المالية للحكومة المصرية إلى أحداث أزمة الخليج والتي تركت آثارها على اكثر من جانب في الاقتصاد المصري، نبين منها المؤشرات التالية (ملحق ٨) :

١- نتيجة لموقف الحكومة المصرية المؤيد لدول التحالف ضد العراق، قامت بعض من هذه الدول بتقديم ملايين الدولارات كمساعدات للحكومة المصرية، فارتفعت التحويلات الرسمية من الخارج (بخلاف المنح الاستثنائية) من ١,١ مليار دولار عام ١٩٩٠/٨٩ إلى ١,٣ مليار دولار عام ١٩٩١/٩٠.

٢- قامت بعض دول التحالف (مثل الكويت، السعودية، والولايات المتحدة الأمريكية) بإعفاء الحكومة المصرية من ديونها كليا أو جزئيا، مما ترتب عليه انخفاض المدفوعات على القروض والالتزامات من ١,٧ مليار دولار عام ١٩٩٠/٨٩ إلى ١,٣ مليار دولار عام ١٩٩٢/٩١.

٣- قام المغتربون المصريون العاملون في دول الخليج بزيادة تحويل مدخراهم إلى بلدهم، فارتفعت تحويلات العاملين بالخارج من ٣,٨ مليار دولار عـــام ١٩٩٠/٨٩ إلى ٥.٥ مليار دولار عام ١٩٩٢/٩١.

٤- بعد انتهاء حرب الخليج، قام العديد من دول التحالف بتشجيع مواطنيـــها علـــى قضاء إجازاتهم السياحية في مصر، مما أدى إلى رفع الإيـــرادات الســـياحية إلى أعلـــى مستوى لها خلال الفترة موضوع البحث، فارتفعت تلك الإيرادات مـــن ٠,٩ مليـــار دولار عام ١٩٩١/٩٠ إلى ١,٧٣ مليار دولار في العام التالي.

٥-قامت الحكومة المصرية كما أشرنا سابقا بزيادة إنتاجها من النفط الخام، لتعويـــض النقص الذي شهدته السوق العالمية جراء أزمة الخليج، كما ارتفعت أسعار النفط الخـــام ارتفاعا ملحوظا، وصل إلى حوالي ٣٧% خلال بضعة أسابيع من بداية الأزمـــة، ممـــا أدى إلى زيادة الإيرادات النفطية المصرية بشكل ملحوظ خلال السنتين الأخيرتين مـــن الخطة مقارنة ببقية السنوات (ملحق ٨).

إلا أن استمرار العجز في الموازنة العامة للدولة مصحوبا بالعجز التجاري مع العـــالم الخارجي، قد أجبر الحكومة المصرية على الرضوخ لشروط ومطالب صندوق النقـــد الدولي، والمتمثلة أساسا بإدخال تعديلات على هيكل سعر صرف الجنيه محليا، ورفـــع أسعار العديد من السلع والخدمات. فبالإضافة إلى تصريحاته عام ١٩٨٦ بأن شـــروط صندوق النقد الدولي تعتبر تدخلا في الشؤون الداخلية لمصر، وأن مصـــر لا تســـمح لأحد بالتدخل في شؤونها، عاود الرئيس مبارك في عام ١٩٨٨ التصريح بـــأن مصـــر ترفض طلبات صندوق النقد الدولي الخاصة برفع الأسعار مـــا بـــين ٤٥% - ٨٠% لبعض السلع والخدمات، وأشار إلى انه " إذا عملنا ذلك كلنـــا ســـنموت " [(٧)] ، إلا

أننا وبعد مرور سنتين أخريين على هذه التصريحات نجد أن الحكومة المصريـــة بـــدأت تستجيب لمطالب الصندوق. ويمكن بيان ذلك بما يلي :

١- اتخذت الحكومة المصرية سلسلة من القرارات الهادفة إلى إجراء تعديلات جذريـــة على هيكل سعر صرف الجنيه محليا. حيث تم تعديل سعر صرف الجنيه الرسمي مـــن ٠,٧ جنيه للدولار إلى ١,١ جنيه للدولار، ثم تم تخفيضه مـــرة أخـــرى إلى ٢ جنيـــه للدولار، ثم تم توحيد سعر الصرف الرسمي مع سعر السوق الحرة في شهر تشـــرين أول ١٩٩١ عند مستوى ٣.٣ جنيه للدولار. إن هذا الانخفاض في سعر صرف الجنيه قـــد أدى إلى استمرار الارتفاع في معدلات التضخم محليا. إذ بلغ الارتفـــاع في الأرقـــام القياسية لأسعار المستهلكين حوالي ٢٠,٧% عام ١٩٩١/٩٠ محسوبا بأســـعار عـــام ١٩٨٧/٨٦. وتشير بعض التقديرات المستقلة إلى انه في حالة ما إذا اســـتبعد الدعـــم الحكومي لأسعار السلع والخدمات فإن معدلات التضخم قد تصل إلى ٥٠%[٨].

٢- وافقت الحكومة المصرية على رفع أسعار مصادر الطاقة بنسب متفاوتة، تتراوح مـــا بين ١٠% - ٢٥% بالنسبة للتيار الكهربائي، و ٦٦% للغاز الطبيعـــي، و ٥٠% للكيروسين. كما ارتفعت أسعار أجرة التاكسي والمواصلات بنسبة ٢٠% - ٥٠%. كما وعدت الحكومة المصرية صندوق النقد الدولي بأن تعمل على رفع أسعار الطاقـــة إلى المستوى العالمي في نهاية يونيو ١٩٩٥. ويقدر مقدار الزيادة المتوقعة في الإيـــرادات الحكومية الناتجة عن هذه الزيادة في الأسعار بحوالي ٨٠٠ مليون جنيه سنويا.

أما مطالب صندوق النقد الدولي الخاصة برفع الدعم الحكومي عن أسعار الســـلع التموينية فان الحكومة المصرية قد بقيت حذرة في اتخاذ مثل هذه الخطوة والـــتي قـــد

تؤدي إلى أحداث شغب داخلية *. لذا فإن الحكومة المصرية - على الرغم من موافقتها المبدئية على تخفيض ورفع الدعم عن السلع التموينية - قد خصصت في عام ١٩٩٢/٩١ ما مقداره ٤,٥ مليار جنيه لدعم أسعار تلك السلع، بزيادة مقدارها ٢٥% عن العام السابق. إلا أن هذا الرضوخ لمطالب الصندوق لم يحقق للاقتصاد المصري أي نوع من الاستقرار، بل أوجد إشكالات اقتصادية إضافية مما اضطر المجتمع الدولي والمؤسسات الدولية إلى تخصيص ملايين الدولارات لمساعدة الاقتصاد المصري في تلافي المشاكل الجديدة التي بدأ يعاني منها، ويمكن بيان ذلك على النحو التالي :

١- إن خطط التنمية المصرية قد فشلت في امتصاص البطالة المحلية، فعلى النقيض مما هو متوقع، ارتفع مستوى البطالة حسب التقديرات الرسمية من ٥,٦% عام ١٩٨٨/٨٧ إلى ٨,٤ عام ١٩٩١/٩٠. في حين تقدر مصادر أخرى مستوى البطالة بواقع ٢٠%[٩].

٢- إن توقيع اتفاقية مع البنك الدولي في شهر مارس ١٩٩١، يقدم بموجبها البنك للحكومة المصرية قرضا بقيمة ثلاثمائة مليون دولار، لدليل على محاولة الحكومة المصرية تلافي الأضرار التي قد تترتب على توجيه مسار الاقتصاد المصري باتجاه الأخذ بمبدأ السوق الحرة.

---

* فالتجربة المصرية في هذا المجال لا زالت ماثلة في الأذهان، فعندما قررت الحكومة رفع أسعار الخبز في أواخر السبعينات ثار الشعب ضد هذا القرار وتم إلغاؤه. وفي أوائل عام ١٩٨٨ عندما كان هناك نقص في العديد من السلع في السوق المحلي (مثل انخفاض وجود الرز، الطحين، الصابون) حرص الرئيس المصري في ١٩٨٨/١٠/٢٤ (وعلى اثر ثورة الشعب الجزائري على الوضع الاقتصادي في بلدهم) على التأكيد على توافر العملات الصعبة لدى الدولة لاستيراد المواد الغذائية الرئيسية، مثل : الشاي، والسكر، والطحين، والدجاج... كما تم في ذلك العام طلب السكر مباشرة عن طريق بعض السفارات الأجنبية في مصر، وتم نقله بالطائرات ليصل إلى المواطنين قبل بدء شهر رمضان.

٣- إن برنامج التصحيح الاقتصادي المصري قد ألحق الضرر بفئات عديدة من شرائح المجتمع، وبخاصة ذوي الدخل المحدود، مما دفع بالبنك الدولي إلى تخصيص ما مقداره ٤٠٠ مليون دولار لمساعدة المتضررين من هذا البرنامج ، ولخلق ١٥٠ ألف وظيفة جديدة خلال ٤ سنوات **.

الاستنتاج

مما تقدم، يمكن القول بأن خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية المصرية خلال العقد الماضي، والتي استندت في جوهرها على الأخذ بمقترحات البنك الدولي، وتوجيهات صندوق النقد الدولي، قد فشلت في إحداث أي تغيير جذري في التركيبة الأساسية للاقتصاد المحلي، كما فشلت في تحقيق معدلات النمو المستهدفة. فجاء نمو الاقتصاد المصري على حساب العالم الخارجي، حيث استمر العجز في الميزان التجاري، واستمر العجز في الموازنة العامة، واستمرت الحكومة في تمويل جزء من هذا العجز عن طريق الاستدانة من الخارج. كما بينت تجربة التنمية المصرية أن الاقتصاد المصري سيبقى عرضة للتأثر الحاد بمتغيرات بعيدة عن سيطرة الحكومة المصرية، وخاصة فيما يتعلق بجانب الموارد الخارجية للعملات الأجنبية، والتي تتمثل في الإيرادات النفطية، إيراد رسوم قناة السويس، إيرادات السياحة، تحويلات المصريين العاملين بالخارج، والمساعدات الخارجية، وهذه كلها عوامل يصعب على الحكومة المصرية التحكم بها.

إن رضوخ الحكومة المصرية " لتوجيهات " صندوق النقد الدولي، والمتمثلة في جوهرها بضرورة ابتعاد الاقتصاد المحلي عن النهج الاقتصادي الاشتراكي وتقريبه من

** من أهم الجهات المساهمة بهذا المبلغ : البنك الدولي ٧٠ مليون، المؤسسة الأمريكية للتنمية الدولية (USAID) ٥٠ مليون، الصندوق العربي للتنمية الاقتصادية والاجتماعية ٥٠ مليون، الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية ٥٠ مليون، ألمانيا ٣٥ مليون، السويد ١٠ ملايين.

النهج الاقتصادي الرأسمالي، لم يحقق للاقتصاد المصري خلال الفترة موضع البحث إلا مزيداً من عدم الاستقرار النقدي، والاقتصادي، والاجتماعي، وأصبحت القرارات الاقتصادية المصرية - إلى حد بعيد - متأثرة بتوجيهات صندوق النقد الدولي وخبرائه.

أما الموقف المصري من أزمة الخليج والمؤيد لدول التحالف، فقد أدى إلى إغداق المساعدات المالية على مصر والى إعفائها من جزء من ديونها القائمة. إن مثل هذا الإعفاء مضافا إليه ملايين الدولارات الواردة كمساعدات من الدول الأخرى قد ساهم في تحسن أداء الاقتصاد المصري خلال السنتين الأخيرتين للفترة موضع البحث، ولكن استمرار هذا التحسن مستقبلا سيبقى مرهونا باستمرارية النهج السياسي الحكومي المؤيد لسياسات الدول الغربية، وذلك لضمان استمرار تدفق المساعدات الخارجية على الدولة. ولكن الخلل الهيكلي في الاقتصاد المصري، والمتمثل بتأثره إلى حد بعيد بعوامل خارجية بعيدة عن السيطرة الحكومية سيبقى خللاً قائماً فشلت خطط التنمية في معالجته خلال العقد الماضي.

التوصيـــات

في ضوء النتائج السابقة فان الدراسة تقترح التوصيات التالية :

١. إن الاستعانة بالخبراء الأجانب لوضع خطط التنمية المصرية لم يؤدِ الى تحقيق النتائج المرجوة، لذا نرى ضرورة اعتماد الحكومة المصرية وبالدرجة الأولى على خبرائـــها المحليين الذين تزخر بهم مصر.

٢. على الحكومة المصرية ان تسعى جاهدة للاعتماد على مصادر تمويل محلية لتوفـــير الاحتياجات المالية اللازمة لخططها التنموية والابتعاد عن المؤسسات المالية الدولية. وهنا يمكن للحكومة المصرية ان تعطي اهتماماً خاصـــاً لاســـتقطاب مدخـــرات المصريين العاملين في الخارج وتشجيعهم على استثمارها في مصر.

٣. من الأهمية بمكان الابتعاد عن البيروقراطية الحكومية في تعديل التشريعات التجاريـة والمصرفية وتشكيل لجان او هيئات خاصة يوكل لها مهمـــة اجـــراء التعديـــلات التنظيمية والتشريعية التي تتطلبها خطط التنمية.

٤. إن الاقتصاد المصري، شأن اقتصاد أي دولة اخرى، يتأثر مباشـــرة بمـــدى توفـــر الاستقرار السياسي والاقتصادي المحلي، لذلك على الحكومة المصرية ان تولي عنايـة خاصة لتلافي حدوث أي اضطرابات او نزاعات سياسية مسلحة داخلية.

٥. كان للموقف السياسي للحكومة المصرية الموالي لدول التحالف ضد العراق آثـــاره الايجابية على الاقتصاد المصري، ولكن الدعم المالي الخارجي للحكومـــة المصريـــة المترتب عن هذه السياسة لن يكون له تأثير جوهري في إحداث تعديلات هيكليـــة في الاقتصاد المصري، واستمرارية هذا التحسن مستقبلاً سيبقى مرهوناً باستمرارية النهج السياسي المصري المؤيد لدول التحالف ضد العراق. إن الموازنة بين المصـــالح السياسية والاقتصادية سيبقى تحدياً يواجه الحكومة المصرية مستقبلاً.

جداول الملحق الإحصائي

ملحق ١ : بعض مؤشرات الاقتصاد المصري خلال الفترة ١٩٧٤ - ١٩٨١.

ملحق ٢ : الناتج المحلي الإجمالي حسب الخطط التنموية الخمسية حتى عام ٢٠٠٢.

ملحق ٣ : إجمالي الاستثمارات التقديرية موزعة وفقا للقطاعات الاقتصادية حسب الخطط التنموية الخمسية حتى عام ٢٠٠٢.

ملحق ٤ : التصور العام للموارد والاستخدامات حتى عام ٢٠٠١/٢٠٠٢.

ملحق ٥ : بعض مؤشرات الاقتصاد المصري خلال الخطة الخمسية الأولى (١٩٨٣/٨٢ - ١٩٨٧/٨٦).

ملحق ٦ : استثمارات كل من القطاع العام والقطاع الخاص موزعة على القطاعات الاقتصادية.

ملحق ٧ : الصادرات والواردات لعامي ١٩٨٦/٨٥ - ١٩٨٧/٨٦.

ملحق ٨ : بعض المؤشرات الاقتصادية للفترة من ١٩٨٩/٨٨ إلى ١٩٩٢/٩١.

ملحق ٩ : عجز الموازنة العامة ومصادر تمويله للفترة ١٩٨٨/٨٧ - ١٩٩١/٩٠.

ملحق ١

بعض مؤشرات الاقتصاد المصري خلال الفترة ١٩٧٤-١٩٨١

السنة	١٩٧٤	١٩٧٥	١٩٧٦	١٩٧٧	١٩٧٨	١٩٧٩	١٩٨١/٨٠
تعداد السكان (مليون)	٣٦	٣٧	٣٧,٩	٣٨,٨	٣٩,٧	٤١	٤٢,٣
الناتج المحلي الاجمالي بالاسعار الجارية (مليون جنيه)	٤٣٣٩	٥٢١٨	٦٧٢٧	٨٣٤٤	٩٧٩٥	١٢٧٠٥	١٦٩٤٦
العجز التجاري (مليون دولار)	١٨٠٠	٢٧٣٣	٢٤٩٠	٢٧٦٤	٣٤٤٠	٣٣١٢	٤٠٣٧
الموازنة العامة (مليون جنيه)							
الايرادات	١٦٠٣	٢٠٥٢	٢٥٧٤	٣٤٤٥	٣٩٣٨	٤٤٤٥	٧٩٢٢
الانفاق	٢٢٢٨	٣٢٦٢	٣٦٥٠	٤٤٩٣	٥٩٩٥	٦٨٢٧	١٠٢٠٤
عجز	٦٢٥	١٢١٠	١٠٧٦	١٠٤٨	٢٠٥٧	٢٣٨٢	٢٢٨٢

المصدر: World Bank, **Arab Republic of Egypt, Issue of Trade Strategy**: **& Investment Planning, (January** 14, 1983), Several Tables.

ملحق ٢

الناتج المحلي الاجمالي حسب الخطط التنموية الخمسية حتى عام ٢٠٠٢ (القيمة بالمليون جنيه وباسعار ١٩٨٧/٨٦)

القطاعات الاقتصادية	الخطة الخمسية ٨٧/٨٢		الخطة الخمسية ١٩٩٢/٨٧			الخطة الخمسية ١٩٩٧/٩٢			الخطة الخمسية ٢٠٠٢/٩٧		
	٨٧/٨٦	الهيكل %	٩٢/٩١	معدل النمو السنوي	الهيكل %	٩٧/٩٦	معدل النمو السنوي	الهيكل %	٢٠٠٢/١	معدل النمو السنوي	الهيكل %
الزراعة	٨٦٤٠,٠	٢١,١	١٠٥٥٠,٠	٤,١	١٩,٥	١٢٨٤٠	٤,٠	١٧,٦	١٥٦٢٥	٤,٠	١٥,٥
الصناعة والتعدين	٦٩٣٣,١	١٧,٠	١٠٣٩٧,٠	٨,٤	١٩,٢	١٦٠٠٠	٩,٠	٢٢,٠٠	٢٥٧٧٥	١٠,٠	٢٥,٥
البترول ومنتجاته	١٦٩٠,١	٤,١	١٨٩٨,٠	٢,٣	٣,٥	١٩٠٠	-	٢,٦	١٨٣٠	(٠,١)	١,٨
الكهرباء	٥١٨,٤	١,٢	٧٢٩,٠	٧,١	١,٤	١٠٢٥	٧,٠	١,٤	١٤٧٠	٧,٥	١,٥
التشييد والبناء	١٩٨٨,٦	٤,٩	٢٦٤٧,٠	٥,٩	٤,٩	٤٠٠٠	٨,٦	٥.٥	٦٠٠٠	٨,٥	٥,٩
مجموع القطاعات السلعية	١٩٧٧٠,٢	٤٨,٤	٢٦٢٢١,٠	٥,٨	٤٨,٥	٣٥٧٦٥	٦,٤	٤٩,٠	٥٠٧٠٠	٧,٣	٥٠,٣
النقل والمواصلات والتخزين	٢٩٤٦,٨	٧,٢	٣١٦٣,٥	٥,٨	٧,٣	٥٣٠٥	٦,٠	٧,٣	٧٢٠٠	٦,٣	٧,١
قناة السويس	٨٠٨,٧	٢,٠	٨٥٥,٥	١.١	١,٦	٩٩٠	٣,٠	١,٤	١١٥٠	٣,٠	١,٢
التجارة والمال والتأمين	٩٦٤٦,٣	٣٣,٦	١٢٦٢٤,٠	٥.٥	٢٣,٣	١٦٨٩٠	٦,٠	٢٢,٢	٢٢٨٠٠	٦,٢	٢٢,٦
السياحة (المطاعم والفنادق)	٣٩٩,٠	١,٠	٦٦٨,٠	١٠,٩	١,٢	١٠٧٥	١٠,٠	١,٥	١٧٢٠	١٠,٠	١,٧
مجموع قطاعات الخدمات الانتاجية	١٣٨٠٠,٨	٣٣,٨	١٨١١١,٠	٥,٦	٣٣,٤	٢٤٢٦٠	٦,٠	٣٢,٣	٣١٨٨٠	٦,١	٣٢,٥
الاسكان والمرافق العامة	٨٢٠,٠	٢,٠	١٤٠٩,٠	١١,٤	٢,٦	١٩٨٠	٧,٠	٢,٧	٢٨٠٠	٧,٢	٢,٨
الخدمات الأخرى	٦٤٤١,١	١٥,٨	٨٣٨٥,٠	٥,٤	١٥,٥	١٠٩٣٥	٥.٥	١٥,٠	١٤٥٠٠	٥,٨	١٤,٤
مجموع قطاعات الخدمات الاجتماعية	٧٢٦١,١	١٧,٨	٩٧٩٤,٠	٦,٢	١٨,١	١٢٩١٥	٥,٨	١٧,٧	١٧٢٠٠	٦,٠	١٧,٢
اجمالي عام	٤٠٨٣٢,١	١٠٠,٠	٥٤١٢٦,٠	٥,٨	١٠٠,٠	٧٢٩٤٠	٦,٢	١٠٠,٠	١٠٠٨٨٠	٦,٧	١٠٠,٠

المصدر: وزارة التخطيط والتعاون الدولي - مصر، الخطة الخمسية الثانية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية (٨٧/ ١٩٨٨-٩١/ ١٩٩٢) جدول ٣٠ ص ١١٣

ملحق ٣

اجمالي الاستثمارات التقديرية موزعة وفقا للقطاعات الاقتصادية

حسب الخطط التنموية الخمسية حتى عام ٢٠٠٢* (مليون جنيه)

القطاع	الخطة الخمسية (الثانية)١٩٨٧/١٩٩٢		الخطة الخمسية (الثالثة)١٩٩٢/١٩٩٧		الخطة الخمسية (الرابعة)١٩٩٧/٢٠٠٢	
	القيمة	الاهمية النسبية%	القيمة	الأهمية النسبية%	القيمة	الأهمية النسبية%
الزراعة والري	٤٩٣٧	١٠,٨	٦٧٠٠	١٠,٠	١٠٢٠٠	١٠.٠
الصناعة والتعدين	١٢١٧٠	٢٧,٧	٢٠٠٠٠	٢٩,٨	٣٥٨٠٠	٣٥,١
البترول ومنتجاته	١١١٥	٢,٤	٢٠٠٠	٣,٠	٢٥٠٠	٢,٤
الكهرباء	٤٧٦١	١٠,٤	٧٣٠٠	١٠,١	١٠٠٠٠	٩,٨
التشييد	١١٨١	٢,٦	١٥٠٠	٢.٢	٢٠٠٠	٢,٠
مجموع القطاعات السلعية	٢٤١٦٤	٥٢,٩	٣٧٥٠٠	٥٥,٩	٦٠٥٠٠	٦٠,٣
النقل والتخزين والمواصلات	٦٠٣٢	١٣,٢	٧٨٠٠	١١,٦	١١٥٠٠	١١,٣
قناة السويس	٢٤٠	٠,٥	٦٠٠	٠,٩	١٠٠٠	١,٠
التجارة والمال والتأمين	٤٥٦	١,٠	٩٠٠	١,٣	١٤٥٠	١,٤
فنادق ومطاعم (السياحة)	٤٢٨	١,٠	١٠٠٠	١,٥	٢٠٥٠	٢,٠
مجموع قطاعات الخدمات الانتاجية	٧١٥٦	١٥,٧	١٠٣٠٠	١٥,٤	١٦٠٠٠	١٥,٧
الاسكان	٦٧٦٧	١٤,٨	٨٢٠٠	١٢,٢	١٠٥٠٠	١٠,٣
المرافق العامة	٣٩٧٧	٨,٧	٦٠٠٠	٩,٠	٨٠٠٠	٧,٨
الخدمات الحكومية والتأمينات	٣٦٢٠	٧,٩	٥٠٠٠	٧,٥	٧٠٠٠	٦,٩
مجموع قطاعات الخدمات الاجتماعية	١٤٣٦٤	٣١,٤	١٩٢٠٠	٢٨,٧	٢٥٥٠٠	٢٥,٠
المجموع الكلي	٤٥٦٨٤	١٠٠,٠	٦٧٠٠٠	١٠٠,٠	١٠٢٠٠٠	١٠٠,٠

المصدر : وزارة التخطيط والتعاون الدولي، **الخطة الخمسية الثانية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية (١٩٨٨/٨٧ – ١٩٩٢/٩١)**، جدول ٣٢، صفحة ١١٤.

* جملة الاستثمارات التقديرية للخطة الخمسية الاولى غير متوفرة.

ملحق ٤

التصور العام للموارد والاستخدامات

حتى عام ٢٠٠٢/٢٠٠١ * القيمة بالمليون جنيه وبأسعار ١٩٨٧/٨٦ *

البيان	١٩٨٧/٨٦	مستهدف ١٩٩٢/٩١	النمو السنوي %	تصورات بعيدة المدى			
				٩٧/٩٦	معدل النمو سنوي%	٢٠٠١ ٢٠٠٢	معدل النمو سنوي%
الناتج المحلي الاجمالي بتكلفة العوامل	٤٠٨٣٠	٥٤١٢٦	٥,٨	٧٣٠٠٠	٦,٢	١٠١٠٠٠	٦,٧
صافي الضرائب غير المباشرة	٣٢٢٠	٤٠٠٠	٤,٦	٦٠٠٠	٨,٤	٨٠٠٠	٥,٩
اجمالي الناتج المحلي بسعر السوق	٤٤٠٥٠	٥٨١٢٦	٥,٧	٧٩٠٠٠	٦,٣	١٠٩٠٠٠	٦.٦
استهلاك عائلي	٣٤٢٦٠	٤٢٤٩٦	٤.٤	٥٣٩٧٠	٥,٠	٧١١٢٠	٥,٧
استهلاك الحكومة	٦٣٣٠	٨٠٨٥	٥,٠	١٠٠٧٠	٤,٥	١٢٧٨٠	٤,٩
جملة الاستهلاك النهائي	٤٠٥٩٠	٥٠٥٨١	٤,٥	٦٤٠٤٠	٤,٨	٨٣٩٠٠	٥,٦
التكوين الرأسمالي	٨١٥٠	١٠٣٠٠	٤,٧	١٥٠٠٠	٧,٨	٢٣٦٠٠	
جملة الاستخدامات	٤٨٧٤٠	٦٠٨٨١	٤,٦	٧٩٠٤٠	٥,٣	١٠٧٥٠٠	
عجز الميزان السلعي والخدمي	(٤٦٩٠)	(٢٧٥٥)		(٤٠)		١٥٠٠	

المصدر : وزارة التخطيط والتعاون الدولي – مصر، **الخطة الخمسية الثانية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية (١٩٨٨/٨٧-١٩٩٢/٩١)**، جدول ٣٠، صفحة ١١٢.

ملحق ٥

بعض مؤشرات الاقتصاد المصري خلال الخطة الخمسية الأولى

(١٩٨٣/٨٢ - ١٩٨٧/٨٦) (مليار جنيه)

البيـــــان	١٩٨٣/٨٢	١٩٨٤/٨٣	١٩٨٥/٨٤	١٩٨٦/٨٥	١٩٨٧/٨٦
الناتج المحلي الاجمالي					
- بالأسعار الجارية	٢٤,٨	٢٧,٩	٣٢,٥	٣٦,٥	٤٠,٩
- بأسعار عام ١٩٨٢/٨١	٢٢,١	٢٣,٨	٢٥,٦	٢٨,٨	٢٨,٠
الموازنة العامة					
الايرادات	٩,٧	١٠,٤	١١,٣	١٤,٥	١٥,٤
الانفاق	١٤,٥	١٦,٨	١٨,٥	٢٤,٣	٢٤,٥
العجز	٤,٧	٦,٤	٧,٢	٩,٨	٩,١
تمويل العجز					
- تمويل خارجي	٠,٩	١,١	١,٥	٢,٦	٣,٨
- تمويل محلي	٣,٨	٥,٣	٥,٧	٧,٢	٥,٣
منها					
بنوك محلية	٢	٢,٩	٢,٨	٤,٢	٢,٤
اوعية ادخارية محلية	١,١	١,٤	١,٧	٢,٣	٢.٤
اخرى	٠,٧	١,٠	١,٢	٠,٧	٠,٥

المصدر : البنك المركزي المصري، **التقرير السنوي لعدة سنوات، جداول عجز الموازنة ومصادر تمويله بالملحق الاحصائي.**

ملحق ٦

استثمارات كل من القطاع العام والقطاع الخاص موزعة على القطاعات الاقتصادية

	جملة الخمس سنوات ١٩٨٧/٨٦-٨٣/٨٢		جملة الأربع سنوات ١٩٩١/٩٠-٨٨/٨٧	
البيـــان	النسبة (%)	القيمة (مليار جنيه)	النسبة (%)	القيمة (مليار جنيه)
القطاعات السلعية	٤٥,٥	١٩,٩	٥٠,٢	٣٣,٤
- الزراعة والري	٧,٨	٣,٤	٩,٠	٦,٠
- الصناعة والتعدين	٢٢,٩	١٠,٠	٢٣,٩	١٥,٩
- البترول ومنتجاته	٣,٤	١,٥	١,٢	٠,٨
- الكهرباء	٩,٢	٤,٠	١٣,٨	٩,٢
- التشييد	٢,٢	١,٠	٢,٣	١,٥
قطاع الخدمات الانتاجية	٢٥,٤	١١,١	٢٢,١	١٤,٧
- النقل والتخزين والموصلات	٢٢,٩	١٠,٠	١٩,٥	١٣,٠
قناة السويس	١,٤	٠,٦	١,٢	٠,٨
- التجارة والمال والتأمين	١,١	٠,٥	١,٤	٠,٩
- السياحة	٢٧,٧	١٢,١	٢٧,٨	١٨,٥
قطاعات الخدمات الاجتماعية	١٤,٤	٦,٣	١١,٩	٧,٩
- الاسكان	٧,٦	٣,٣	٩,٦	٦,٤
- المرافق	٢,١	٠,٩	٢,٣	١,٥
- الخدمات التعليمية	١,٦	٠,٧	١,٦	١,١
- الخدمات الصحية	٢,٠	٠,٩	٢,٤	١,٦
- الخدمات الاخرى	١,٤	٠.٦	–	–
- انفاق استثماري				
الاجمالي	١٠٠	٤٣,٧	١٠٠	٦٦,٦

المصدر : البنك المركزي المصري، **التقرير السنوي ١٩٩١/٩٠**، جدول ١/٣ صفحة ١٥٣.

ملحق ٧

الصادرات والواردات (لعامي ١٩٨٦/٨٥ - ١٩٨٧/٨٦)

البيـــان	السنـــة	
	١٩٨٦/٨٥	١٩٨٧/٨٦
واردات (بالمليون جنيه)	٩٢١١	١٢٣٨٦
صادرات (بالمليون جنيه)	٢٨٨٥	٢٧٠٧
منـها :-		
صادرات زراعية	٤١٨	٤٨٦
صادرات صناعية	٦٠٦	١٢٦٥
صناعة البترول	١٦٦٥	٦٣٤

ملحق ٨

بعض المؤشرات الاقتصادية للفترة ١٩٨٩/٨٨ - ١٩٩٢/٩١

(مليون دولار)

	١٩٨٩/٨٨	١٩٩٠/٨٩	١٩٩١/٩٠	١٩٩٢/٩١
صادرات	٢٧٣٧,٥	٣١٤٤,٨	٣٨٨٦,٨	٣٦٣٦,٤
واردات	١٠٢٩٣,٥	١١٤٤١	١١٤٢٤,٥	١٠٠٣٩,٥
صادرات البترول	١١٧٢,٩	١٣٥١,٥	١٩٧٠,٧	١٦٥١,١
رسوم المرور في قناة السويس	١٣٠٦,٧	١٤٧١,٨	١٦٦١.٩	١٩٥٠,٢
السياحة	٩٠٠,٦	١٠٧١,٨	٩٢٤,١	١٧٢٧,٢
تحويلات رسمية من الخارج (بخلاف المنح الاستثنائية)	٧١١,٢	١٠٩٣,٧	١٤٨٦,٩	١١٢٣,٣
مدفوعات على القروض والالتزامات	١١٢٣,٢	١٦٨٦,٢	١٥٢٩,٧	١٣١١,٢
تحويلات العاملين بالخارج	٣٥٣٢,٢	٣٧٤٣,٥	٣٧٧٥,٣	٥٤٦٧,٤

ملحق ٩

عجز الموازنة العامة ومصادر تمويله

للفترة ١٩٨٨/٨٧ – ١٩٩٢/٩١

*** القيمة بالمليار جنيه ***

البيـــــان	١٩٨٨/٨٧	١٩٨٩/٨٨	١٩٩٠/٨٩	١٩٩١/٩٠	١٩٩٢/٩١
اجمالي النفقات	٢٦,٠	٣٣,٤	٣٤,٢	٤٢,٢	٤٧,٦
اجمالي الايرادات	١٨,٨	٢١,٣	٢٣,٥	٣٢,١	٤١,٤
العجز الكلي الفعلي	٧,٢	١٢,١	١٠,٨	١٠,١	٦,٢
العجز التقديري	٤,٩	٩.٥	٦,٥	٨,٩	٨,٤
مصادر تمويل العجز الكلي					
تمويل خارجي	١,٩	٣,٤	٣,١	٢,٩	١,٨
تمويل محلي غير مصرفي	٣,١	٣,٩	٢,٢	٣,٣	٧,٧
الجهاز المصرفي المحلي	٢,٢	٤,٨	٥,٥	٣,٩	(٣.٣)
اجمالي العجز	٧,٢	١٢,١	١٠,٨	١٠,١	٦,٢

المصدر : البنك المركزي المصري، **التقرير السنوي لعدة سنوات**، جداول عجز الموازنة ومصادر تمويله بالملحق الاحصائي.

الهوامش

١. The Economist Intelligence Unit (EIU), *Egypt : Country Profile 1986-1987*. London: 400 Duke st.P.12.

٢. Middle East Research Institute (MERI), of the University Pennsylvania, *MERI Report, Egypt*. (USA: Croom Helm Ltd : 1985), P.141.

٣. World Bank; *Egypt : Review of Finances in the Decentralized Public Sector. Report 6421-EGT*, (March 1987). The Arabic Summary, P.1.

٤. البنك المركزي المصري، التقرير السنوي ١٩٨٨/٨٧، جداول ١٢/١،ص. ١٤١.

٥. The Economist-Intelligence Unit,(EIU), Egypt: Country Report No.3, 1986,P.9.

٦. أشار التقرير السنوي للبنك المركزي المصري لعام ١٩٩٢/٩١، ص.٥، إلى عدم توفر أي سلسلة متصلة عن بيانات الناتج المحلي لعام ١٩٩٢/٩١،السنة الخامسة من خطة التنمية الثانية، لذلك فإن تحليلنا التفصيلي سيكون لأربع السنوات الأولى من الخطة، في حين سنتعرض لنتائج العام الأخير من الخطة في ضوء حجم البيانات المتوفرة من المصادر الإحصائية المشار إليها في صدر البحث.

٧. EIU, *Egypt : Country Report, No. 4, 1988,* P.11.

٨. EIU, *Egypt : Country Report, No. 2, 1989,* P.3.

٩. EIU, *Egypt : Country Report, No. 4, 1988,* P.10.

المراجع :

١- البنك المركزي المصري،" التقرير السنوي" التقارير الخاصة بالأعوام ١٩٨٣/٨٢ إلى ٩١-١٩٩٢.

٢- البنك المركزي المصري، " Economic Review" ، أعداد عدة متعلقة بالأعوام ١٩٨٢ إلى ١٩٩٢.

٣- وزارة التخطيط والتعاون الدولي – مصر،" خطتي التنمية الاقتصادية والاجتماعية للفترة ١٩٨٣/٨٣ – ٩١-١٩٩٢.

٤- صندوق النقد الدولي، جمهورية مصر العربية: التطورات الاقتصادية الحديثة، تقرير رقم س م / ١٠٤/٨٨ بتاريخ ١٠ مايو ١٩٨٨.

The Economist-Intelligence Unit, Egypt Country Profile 1986-87, London: 40 Duke st. WIA IDW	٥-
The Economist Intelligence Unit- London, Egypt: Country Report, Various issues related to the period 1982-1992. London : 40 Duke st. WIA IDW	٦-
Middle East Research Institute (MERI), University of Pennsylvania, MERI Report, Egypt. Croom Helm LTd: USA, 1985.	٧-
World Bank, Arab Republic of Egypt: Issue of Trade strategy & Investment Planning. January 14, 1983.	٨-
World Bank; Egypt: Review of Finances in the Decentralized Public Sector. Report 6421-EGT, March 1987.	٩-

جدوى ومجالات تطبيق مفهوم دورة حياة المنتج على قطاع الخدمات (دراسة وصفية/تحليلية)

د. بشير عباس العلاق
كلية الاقتصاد والعلوم الإدارية
جامعة الزيتونة الأردنية

ملخص

يدور جدل محتدم في أوساط المعنيين بتسويق الخدمات من أكاديميين وممارسين حول جدوى وإمكانية تطبيق مفهوم دورة حياة المنتج في قطاع الخدمات.

وقد استعرضت الدراسة المفهوم التقليدي لدورة حياة المنتج، مع التركيز على مجالات تطبيق هذا المفهوم على قطاع الخدمات. وقد تبين من خلال استعراض العديد من أدبيات تسويق الخدمات، أن مجالات التطبيق تكاد تكون محدودة جدا إن لم تكن معدومة، باعتبار أن تسويق الخدمات يختلف عن تسويق السلع الملموسة. ولهذا، ركزت الدراسة على تسليط الضوء على عدد من النماذج المعدلة عن النموذج التقليدي لدورة حياة المنتج، علاوة على قيام الباحث بالتطرق إلى مجالات تطبيق دورة حياة المنتج على قطاع الخدمات، مع توضيح ما يكتنف هذا التطبيق من مشاكل ومعوقات.

ووجد الباحث أن مؤسسات الخدمة قادرة على رسم استراتيجياتها التسويقية الفاعلة من خلال اعتماد نماذج معدلة عن النموذج التقليدي لدورة حياة المنتج، خصوصا النموذج المعروف بإسم نموذج (Sasser) ونموذج (Urwin)، وهما نموذجان يجدان تطبيقاهما اليوم في عدد من المنشآت الخدمية.

كما تطرقت الدراسة إلى الانتقادات الموجهة لمفهوم دورة الحياة، وصلة هذه الدورة بالخدمات، وذلك في إطار استعراض موجز للمشاكل المتعلقة بمفهوم دورة حياة المنتج.

ويتوصل الباحث في نهاية الدراسة إلى استنتاج مفاده أن الحيطة والحذر مطلوبان عند محاولة تطبيق مفهوم دورة الحياة في قطاع الخدمات.

The Feasibility and Scopes of the Application of the Product Life Cycle (PLC) Concept in the Service Sector.

(Descriptive / Analytical Study)

Dr. Basheer Al-Alak
Faculty of Economics and Administrative Sciences
Al-Zaytoonah University of Jordan

Abstract

Marketing services is different than marketing products partly because services are not the same as products and partly because the issues addressed by services marketing professionals encompass the entire firm-not just the issues traditionally included in the study of marketing. One of the implications of this fact is that the concept of Product Life Cycle (PLC) as applied in services is not the same as that which is applied in the manufacturing industry. As such, researchers often call for new or modified PLC models for services.

The current study addresses these issues in a format that encourages further research work. Light is shed on the traditional PLC, and comparison is drawn between this traditional concept and the modified models of PLC as applied in the service sector.

The study discusses the feasibility and scopes of applying these modified models through the illustration of two models, i.e. Sasser's model of multisite service firms, and Urwin's service life-cycle model. Besides, problems and limitations related to the traditional and modified PLC models are also discussed in an objective manner in order to determine their feasibility and scopes of applications in the service sector.

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى:

١. إلقاء مزيد من الضوء لفهم خصوصيات وتطبيقات دورة حياة المُنْتَج (Product Life Cycle/PLC) في قطاع الخدمات حصرياً.

٢. توضيح جوانب الاختلاف القائمة بين دورة حياة السلعة ودورة حياة الخدمة.

٣. إبراز المشاكل المتعلقة بمفهوم دورة حياة المُنْتَج.

٤. إلقاء الضوء على النماذج الرائدة في مجال تطبيقات دورة حياة المُنتج في قطاع الخدمات.

٥. الاستئناس بآراء الباحثين الرواد بخصوص جدوى وأهمية تطبيق مفهوم دورة حياة المُنتج في قطاع الخدمات.

ثانياً: أهمية الدراسة

تستمد هذه الدراسة أهميتها من:

١. توضيح ضرورة عدم اللجوء إلى النموذج التقليدي لدورة حياة المنتج لصياغة وتنفيذ استراتيجيات تسويق الخدمات، والاستعانة بدلاً عن هذا النموذج بنماذج معدّلة تكون أكثر ملاءمة لقطاع الخدمات.

٢. أهمية تحليل مكامن الخلل ليس فقط في النموذج التقليدي لدورة حياة المنتج وإنما أيضاً في النماذج المعدّلة الخاصة بتسويق الخدمات.

٣. فتح المجال أمام الباحثين والدارسين للتعمق في دراسة ونقد وتحليل الأساليب التقليدية والمبتكرة في تطبيق نماذج دورة حياة المنتج، سواء في قطاع السلع أو قطاع الخدمات، وكذلك تشجيع الباحثين على ولوج الميدان لتطبيق هذه

النماذج والتعرف على مدى استخداماتها من عدمها في المنشـآت الإنتاجية والخدمية.

ثالثاً: مشكلة الدراسة

تتلخص مشكلة الدراسة في وجود سوء فهم واضح بين المنشـآت الخدمية حول النموذج الأقرب للواقع لدورة حياة المنتج، والـذي ينبغي تطبيقه لصياغة استراتيجيات وأهداف التسويق الخاصة بقطاع الخدمات. كذلك عجز كثير من منشآت الخدمة عن معرفة الفروقات القائمة بين مفهوم دورة حياة السلعة، وذلك المفهوم المتعلق بدورة حياة الخدمة، الأمر الذي ينتج عنه خلل كبير في صياغة وتنفيذ الخطط والاستراتيجيات التسويقية الملائمة.

رابعاً: محددات الدراسة

صعوبة قيام باحث لوحده بإجراء بحث ميداني يتناول تطبيقات دورة حياة المنتج في قطاع الخدمات، وتتضاعف هذه الصعوبة في أن مفهوم دورة حياة المُنتج يكتنفه الغموض أصلاً، علاوة على أن الباحثين الرواد في مجال تسويق الخدمات مازالوا غير متفقين بعد على جدوى وإمكانية تطبيق دورة حياة المنتج في قطاع الخدمات.

وعليه، فإن الضرورة تقتضي قيام مجاميع بحثية بدعم من المؤسسات الأكاديمية والصناعية والتجارية والخدمية ، بإعداد المزيد من الأبحاث في هذا المجال بالذات.

خامساً: منهجية الدراسة

في ضوء أهداف وأهمية ومشكلة ومحددات الدراسة، لجأ الباحث إلى أسلوب جمع البيانات الخاصة بالاتجاهات الفكرية الحديثة في تسويق الخدمات قدر تعلق هذه الاتجاهات بمفهوم دورة حياة الخدمة، وذلك بهدف تكوين إطار علمي يمكن في ضوئه تقويم مدى فاعلية هذا المفهوم في التطبيق العملي. وقد تطلب ذلك الرجوع إلى بعض

المراجع العربية والأجنبية المتخصصة في هذا المجال، كما لجأ الباحث إلى الأسلوب الوصفي والتحليلي لهذه المعطيات، وذلك للوقوف على مدى جدوى وأهمية تطبيق مفهوم دورة الحياة على الخدمات حصرياً.

مقدمة

يعد مفهوم دورة حياة المنتج (Product Life-Cycle Concept) من الأفكار الشائعة في أدبيات التسويق. وباختصار شديد، يقوم هذا المفهوم على قاعدة تقول إن المنتجات تمر من خلال عدة مراحل عبر الزمن، وهذه المراحل هي:

١. مرحلة التقديم — Introduction

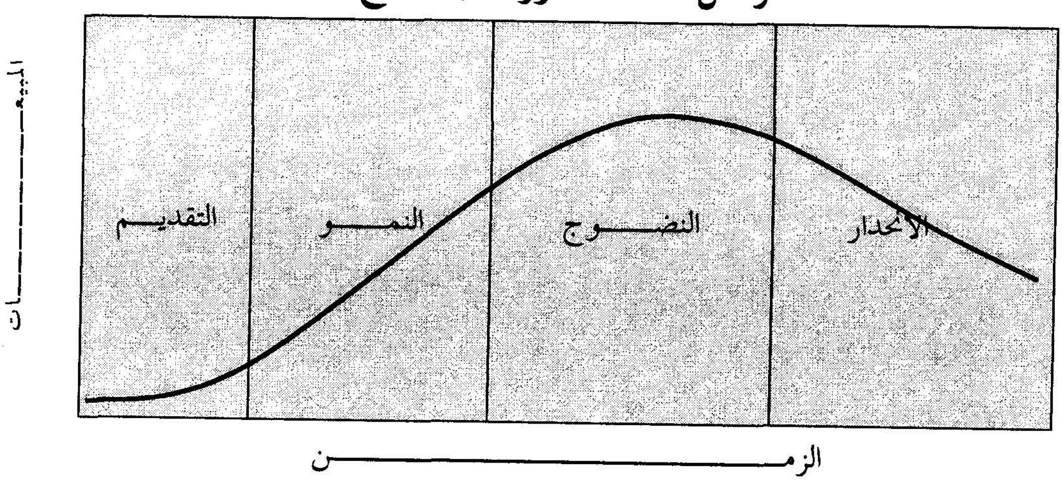
٢. مرحلة النمو — Growth

٣. مرحلة النضوج — Maturity

٤. مرحلة الانحدار — Decline

ويمكن توضيح هذه المراحل بالشكل رقم (١)

المراحل المختلفة لدورة حياة المنتج



Source: Philip Kotler, *Marketing Management, Analysis, Planning, Implementation and Control,* N. J, U.S.A, Prentice-Hall, 1999.

وسنحاول بإيجاز تسليط الضوء على كل مرحلة من هـــذه المراحــل[1].

١. مرحلة التقديم

تتصف هذه المرحلة بانخفاض في حجم المبيعات بســبب جـهل المســتهلك بالسلعة الجديدة. والأهم في هذه المرحلة أن يتعرف المستهلك على هذه الســلعة مــن حيث شكلها ومزاياها واستخداماتها وأماكن بيعها وغير ذلك.

٢. مرحلة النمو

تشهد المبيعات في هذه المرحلة تطوراً ملحوظاً بسبب إقبال المستهلكين علــى شراء السلعة، عندئذ يمكن القول إن السلعة قد نجحت في تلبية حاجات المســتهلكين وورغباتهم، وهنا تبدأ المنافسة في الدخول الى سوق إنتاج السلعة من خلال إنتاج سلعة شبيهة.

٣. مرحلة النضوج

وهي من أطول مراحل دورة حياة السلعة، كما تعتبر من أهم المراحل بالنسـبة لعناصر المزيج التسويقي. إن رجال التسويق يهدفون إلى الوصول إلى هــذه المرحلــة بأسرع وقت ويحاولون البقاء فيها أطول فترة ممكنة،حيث تحقق هذه المرحلة للشــركة أعلى أرباح ممكنة .

٤. مرحلة الانحدار

عندما تصل السلعة إلى حالة لا يمكن معها الاستمرار، كــالنقص المــتزايد في حجم المبيعات بسبب ظهور سلع بخصائص ومميزات أفضل، أو بسبب ظــهور ســلع جديدة أو استخدام تكنولوجيا الإنتاج الكبير مما يعني إنتاج سلع بتكاليف أقل، عندئــذ تبدأ الأرباح بالانخفاض وترى المنشأة أنه لا بد من إعادة النظر بإنتاج السلعة.

إن مفهوم دورة حياة السلعة من حيث المراحل يختلف من سلعة إلى أخرى، فقد تصل سلعة إلى مرحلة الانحدار بعد مرحلة التقديم، كما تختلف الفترة الزمنية التي تســتغرقها

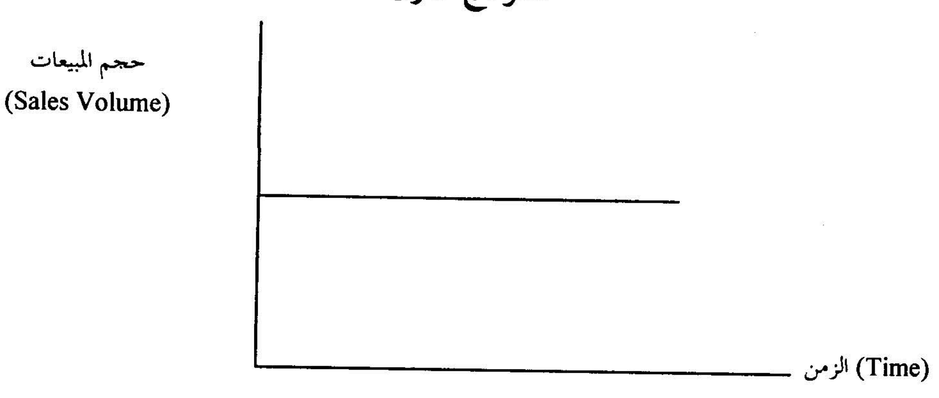
هذه الدورة من سلعة إلى أخرى. ففي سلع مثل سلع الموضة كالملابس قد تتـــم هـــذه الدورة في فصل واحد، بينما في سلعة أخرى كالتلفزيون مثلاً قد تمر عشرات السنوات بين مرحلة التقديم ومرحلة الانحدار كما حدث بالنسبة للتلفزيون الأسود والأبيض بعد ظهور التلفزيون الملون.

ومن الجدير بالذكر أنه يمكن بعث الحياة في سلعة ما بعد وصولها إلى مرحلـــة الانحدار عن طريق إدخال تغييرات جذرية وجوهرية على السلعة بحيث تقـــوم بـــأداء الوظيفة بشكل أفضل وإيجاد استخدامات جديدة لها لم تكن موجودة سابقاً.

نماذج معدّلة عن النموذج التقليدي لدورة حياة المنتج

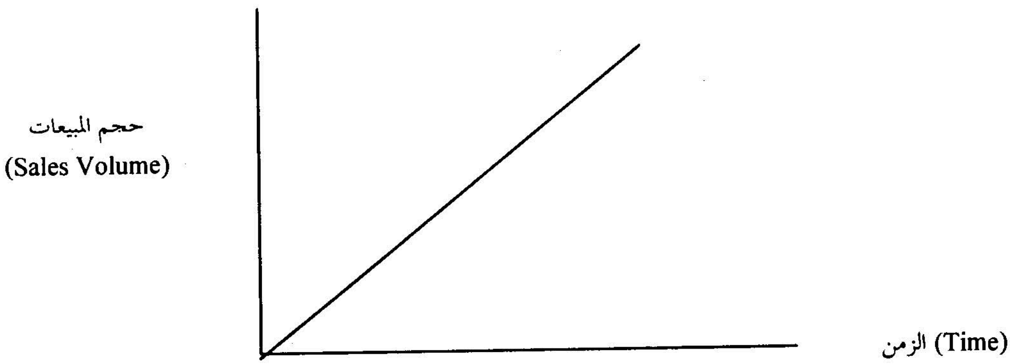
يرى Hise[٢] أن تاريخ حجم مبيعات العديد من المنتجـــات والخدمـــات لا يتوافق أو ينسجم مع النموذج التقليدي لدورة حياة المنتج سابق الذكر. ولتأكيد هـــذه القناعة فإنه يوضح عدة نماذج معدلة لتفسير دورة حياة المنتجات والخدمات. ومن أبرز هذه النماذج الآتي:

النموذج الأول



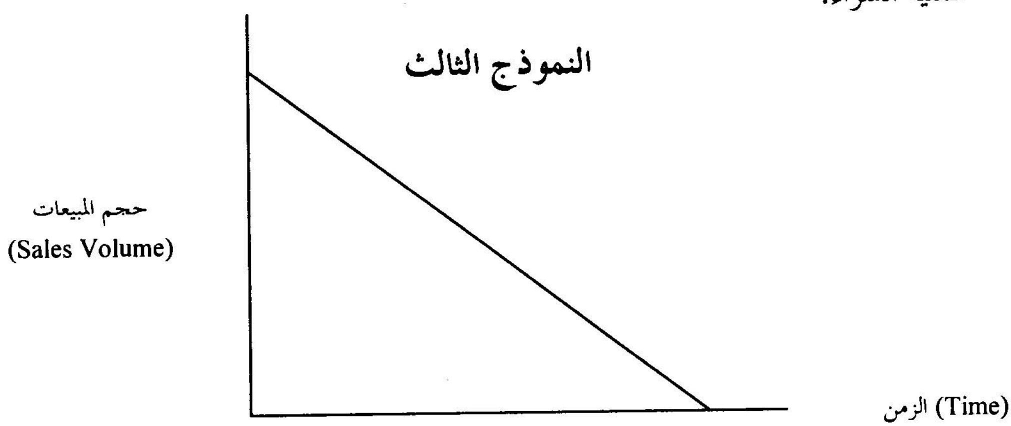
يوضح النموذج الأول حالة سلعة أو خدمة استطاعت أن تثبت أقدامـــــها في السوق منذ البداية، واستمرت مبيعاتها على المستوى نفسه مع مرور الزمن.

النموذج الثاني



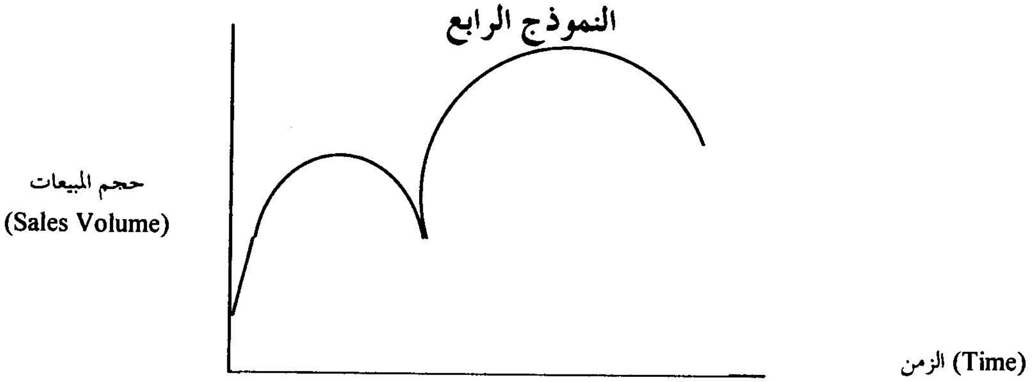
في النموذج الثاني، فإن السلعة أو الخدمة تتمتع بمزية تنافســية (Competitive Advantage) حيث تستمر باستقطاب المزيد من المستهلكين/ العملاء الجدد، وتتكــرر عملية الشراء.

النموذج الثالث



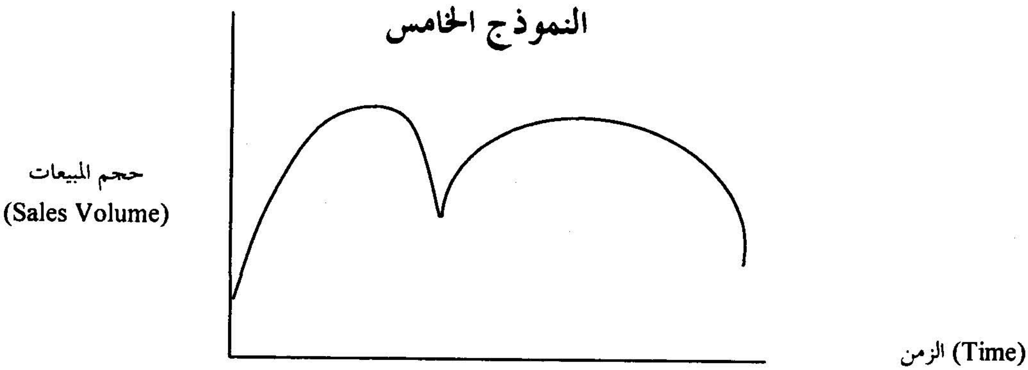
يمثل النموذج الثالث حالة سلعة أو خدمة، حيث تبدأ بمزية تنافســـية، إلا أن السلعة/الخدمة يصيبها التقادم (Obsolescence) نتيجة ظهور سلعة/أو خدمـــة تفوقـــها تقنياً.

النموذج الرابع



أما النموذج الرابع فهو يمثل حالة سلعة / خدمة وصلت إلى مرحلة الانحـــدار لكن سرعان ما تم إنقاذها بواسطة حملة ترويجية أو تخفيض الأسعار.

النموذج الخامس



ويمثل النموذج الخامس حالة سلعة/خدمة تم إحياؤها خلال مرحلة الانحـــدار، على الرغم من أن دورة الحياة الثانية في هذه الحالة لم تكن ناجحة مثـــل دورة الحيـــاة الأولى.

مجالات تطبيق دورة حياة المنتج على قطاع الخدمات

لا شك في أن دورة حياة المنتج تثير اهتمامات رجال تسويق الخدمات، فالفكرة بالنسبة لهم تبدو جذابة، وفيها نوع من التحدي الإيجابي. وكما يقول Rathmell [٣] فإن للخدمات كما للسلع دورة حياة معينة. ويشير (Rathmell) إلى وجود خدمات في مرحلة النمو من دورة حياتها، ومن أمثلتها الاتصالات، أنظمة الرعاية الصحية، خدمات التأجير وبعض الخدمات الترفيهية الخارجية. أما الخدمات التي تجاوزت ذروة النمو في دورة حياتها، فهي برأي (Rathmell) تشمل السينما، وتصليح الساعات، والخدمات المحلية، والمعاهد التعليمية المخصصة لجنس واحد (للذكور حصراً أو للإناث حصراً).

ويرى كل من (Naylor and Mclver)[٤] أن دورة حياة المنتج قابلة للتطبيق العلم في تسويق الخدمات المالية، بينما يؤكد (Kotler) [٥] أن مفهوم دورة الحياة يجد تطبيقاته في المنظمات غير الربحية.

أما (Laczniak) [٦] فإنه يؤكد أن المؤسسات المعنية بالفنون (Art Organizations) تطبق مفهوم دورة الحياة بشكل خاص.

ويرى (Baron and Harris) [٧] أن مفهوم دورة الحياة ذو صلة بصناعتيّ السياحة والنقل (Tourism and Transportation) حيث يقولان إن لبعض الخدمات السياحية دورة حياة قصيرة، بينما توجد خدمات سياحية ذات دورة حياة طويلة.

ويرى باحثون آخرون أن صناعة النقل الجوي عبر المحيطات (Transatlantic Airline Industry) قد دخلت مرحلة النضوج في دورة حياتها، بعد أن برزت خدمات الرحلات الجوية المؤجرة (Charter Flights)، وانخفاض أسعار تذاكر السفر حيث المنافسة على أشدها بين شركات الطيران، ووكلاء السياحة والسفر (٨).

نموذج (Sasser) لدورة حياة شركات الخدمة ذات الفروع والمواقع المختلفة.

Sasser's Model of Multisite Service Firms.

من المفيد الإشارة إلى نموذج (Sasser)[٩] الخاص بدورة حياة شركات الخدمة ذات الفروع والمواقع المختلفة. فقد أجرى (Sasser) دراسات ميدانية شملت شركات من هذا النوع مثل (McDonalds) و (Holiday Inn) و (Hertz)، حيث وجد أن هذه الشركات تمر بخمس مراحل هي:

١. مرحلة الريادة	Enterprenurial
٢. مرحلة ترشيد المواقع/ الفروع	Multisite Rationalization
٣. مرحلة النمو	Growth
٤. مرحلة النضوج	Maturity
٥. مرحلة الانحدار	Decline / Regeneration

حيث أن كل مرحلة من هذه المراحل الخمس يتم وضعها ودراستها في إطار خمسة مجالات وظيفية رئيسية من مجالات الشركة. وهذه المجالات هي:

١. التمويل/ الرقابة	Finance/Control
٢. العمليات	Operations
٣. التسويق	Marketing
٤. التطوير	Development
٥. الإدارة	Administration

ومن خلال دراسته وتفحصه لكل مرحلة من مراحل دورة الحياة، وكل مجال من المجالات الوظيفية سابقة الذكر، يرى (Sasser) أنه من خلال تحديد موقع الشركة في

دورة الحياة، فإن بالإمكان التكهن بالأهداف والقرارات والمشاكل والتنقلات التنظيمية الرئيسية المطلوبة في المستقبل. كما درس (Sasser) سلوك تكـاليف الشـركة (Firm's Costs) خلال انتقالها عبر المراحل المختلفة لدورة الحياة.

ومن الدروس التي يمكن استنتاجها من هذا النموذج، والتي قد تفيـد رجـل تسويق الخدمات، أن النمو الناجح للشركة ذات المواقع والفـروع المختلفـة يعتمـد بالدرجة الأساس على قدرة مديريها التنفيذيين في إدارة الحاضر (Present) والمسـتقبل (Future). فالشركة أثناء مرورها بدورة الحياة، يتطلب من إدارتها اتخـاذ عـدد مـن القرارات والإجراءات، من نوع ما يلي (١٠).

- على الإدارة أن تدرك أن هناك أربع وظائف أساسية تتطلب نوعـاً مـن الإدارة والتسيير (تطوير الوحدة الجديدة، العمليات، التسويق، مفهوم التطوير).
- على مؤسسي الشركة أن يفوضوا بعض الصلاحيات للغير.
- ينبغي على الفريق الإداري أن يطور أو يمتلك المهارات المطلوبـة لإدارة شـركة كبيرة.
- ينبغي تحفيز/حفز الإدارة.
- ضرورة تجنب النمو الاعتباطي لأنه يشكل مصدر خطر للشركة.
- على الشركة أن تغير أي مفهوم وصل إلى مرحلة النضوج.
- على الشركة أن لا تتشعب بسرعة.
- ضرورة الإبقاء على قنوات الاتصال مفتوحة.

نموذج Urwin

إن المثال الآخر لاستخدام مفهوم دورة الحياة يختص بالدراسات التي قام بهـا (Urwin)[١١] والتي عرفت فيما بعد بنموذج Urwin لدورة حياة الخدمة (Urwin's Service Life-Cycle Model).

يعتقد (Urwin) أن الصناعات الخدمية (Service Industries) تمر بمرحلتين اثنتين من دورة الحياة الصناعية (Industrial Life-Cycle). ففي المرحلة الأولى، تنفذ الأعمال يدوياً (by hand)، حيث تُفصّل الخدمات وتتشعب طبقاً لحاجات ورغبات الأفراد المستفيدين من الخدمة، أي تقديم خدمات شخصية (Personalized Services) لإشباع حاجات فردية. وفي المرحلة الثانية من دورة الحياة الصناعية، تلجأ الصناعة الخدمية إلى ترشيد (Rationalization) ومكننة (Mechanization) وترشيق (Streamlining) الخدمات المقدمة للمستفيدين.

ويعتقد (Urwin) أن معرفة موقع الصناعة في دورة الحياة الصناعية (في أي مرحلة مثلاً) لها انعكاساتها على مزيج الاتصالات (Communication Mix) الذي ينبغي استخدامه. فهو يرى أن غرض الجهود الاتصالية، وأنواع المغريات (Appeals) المستخدمة وشكل هذه المغريات، تتباين طبقاً للمرحلة التي تمر بها الصناعة في دورة حياتها.

ويبدو جلياً أن مفهوم حياة المنتج يصلح للتطبيق في مجال الخدمات أيضاً، إلا أن هناك بعض الانتقادات التي ينبغي الإشارة إليها.

المشاكل المتعلقة بمفهوم دورة حياة المُنتج

بالرغم من الأمثلة التي أوردناها في هذه الدراسة حول صلاحية مفهوم دورة حياة المنتج للتطبيق في قطاع الخدمات، إلا أن هناك مشاكل تتعلق بتطبيق المفهوم في مجال تسويق الخدمات. هذه المشاكل تتمحور في ثلاثة مجالات أو مجاميع، هي:

١. انتقادات موجهة لمفهوم دورة الحياة وصلة هذه الدورة بالخدمات.

٢. مشاكل تعريفية.

٣. عدم وجود أدلة تجريبية تثبت صلاحية المفهوم.

وسنتناول هذه الأنواع الثلاثة من المشاكل بالتفصيل.

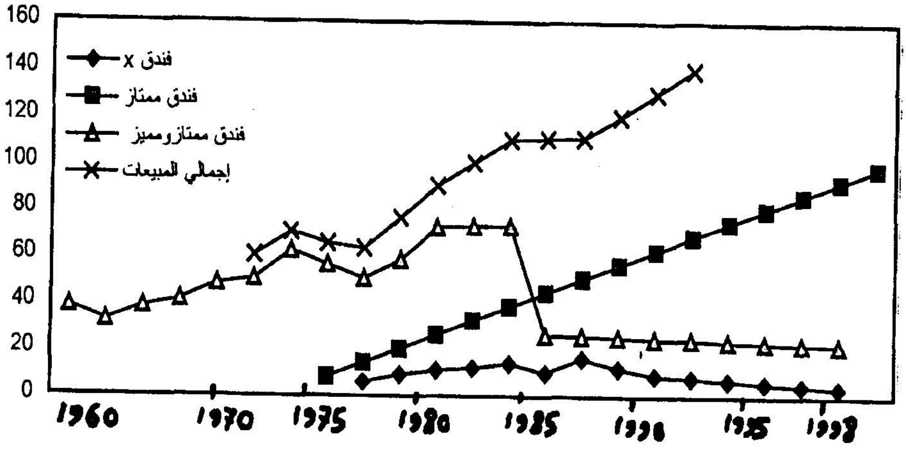
أولاً: انتقادات موجهة لمفهوم دورة الحياة وصلة هذه الدورة بالخدمات.

لا عجب أن يكون لمفهوم دورة الحياة نقّاد، فالمحاولات الرامية إلى رسم منحنى دورة الحياة على شكل حرف (S) مع توضيح المراحل المختلفة في دورة الحياة، وهي مراحل التقديم، والنمو، والنضوج والانحدار، لم تكن مقنعة البتة، لدرجة أن العديد من الباحثين دعوا علانية لنسيان فكرة هذا المفهوم. فالباحثان (Bateson) [١٢] و (Goncalves) [١٣] يؤكدان أن محاولة استخدام مفهوم دورة الحياة لرسم البرنامج التسويقي للخدمات، هي محاولة عقيمة. ويرى منتقدو المفهوم أنه باستثناء بعض الخدمات (مثل البنوك) فإن معظم مؤسسات الخدمة لا تمتلك إلا عدداً محدوداً من الخدمات الجوهر (Core Services)، أو أنها لا تتمتع بالمرونة الكافية لتجميع خدمات مختلفة تابعة لفئة خدمية واحدة.

ثانياً: مشاكل تعريفية

توجد قضيتان هنا تسترعيان الاهتمام، الأولى تتعلق بضرورة التمييز بين الطرق المختلفة لاستخدام مفهوم دورة الحياة. فالمفهوم قد يشير (كما في الشكل رقم ٢) إلى طبقة المنتج (مثلاً الفنادق)، أو إلى هيئة المنتج (مثلاً فنادق الدرجة الممتازة) أو إلى صنف المنتج (فندق Xمثلاً) وقد يستخدم المفهوم لوصف دورة حياة الشركة الفندقية برمتها (راجع نموذج Sasser آنف الذكر).

الشكل رقم(٢)



يوضح الشكل (٢) الدورات لطبقة مُنْتَج (المبيعات الإجمالية للفنادق في عمّان مثلاً)، وهيئتين للمنتج (فنادق الدرجة الممتازة التي تقدم خدمات كاملة ، وفنادق الدرجة الممتازة التي تقدم خدمات ذات طبيعة خاصة أو محددة)، وصنف المنتج (فندق X). إن طبقات المنتج تتمتع بأطول دورات الحياة، بينما هيئات المنتج تميل إلى أخذ شكل (S). إما الأصناف فهي تأخذ صورة غريبة نوعاً ما بحكم السياسات التنافسية المتغيرة.

والقضية الثانية، أنه بالإضافة إلى موضوعات التصنيف، فإن (Doyle) [١٤] يرى أن البيانات الخاصة بالمبيعات والمستخدمة لتثبيت دورات حياة المنتج تحتاج إلى تعديلات في ضوء المتغيرات الموسمية والعنيفة التي قد تحصل عبر الوقت، مثل تأثيرات التضخم، والنمو السكاني، وغيرها، وإلا فإن مفهوم دورة الحياة سيكون عديم الفائدة وغير واقعي.

ثالثاً: عدم وجود أي أدلة تجريبية تؤيد صلاحية المفهوم

يرى (Doyle) [١٥] أنه لا يوجد دليل تجريبي شامل يؤيد صلاحية المفهوم في قطاع الخدمات، فالأدلة التجريبية تكاد تكون حكراً على سلع ملموسة مثل السجائر، والسلع الرأسمالية، ومنتجات البقالة، والمنتجات الصحية. إما في قطاع الخدمات، فإن هناك محاولات جارية في الوقت الراهن لإثبات صلاحية دورة الحياة للخدمات. إلا أنه لا توجد أدلة تجريبية حاسمة على جدواها بعد، وربما يعود ذلك إلى طبيعة الخدمات باعتبارها تتضمن عناصر كثيرة غير ملموسة علاوة على المشاكل المتعلقة بالتنبؤ بالطلب على الخدمات [١٦].

فالكثير من الخدمات لا تتسم أنماط الطلب عليها بالاستقرار، الأمر الذي ينعكس على شكل المنحنى في دورة الحياة حيث يبدو غير منتظم على أقل تقدير. ولهذا فإن الحيطة والحذر مطلوبان عند محاولة تطبيق مفهوم دورة الحياة في قطاع الخدمات.

الهوامش

١. قحطان العبدلي وبشير العلاق، **التسويق: أساسيات ومبادئ** (عمّــان:الأردن، دار زهران للنشر والتوزيع، ١٩٩٩).

٢. R.Hise, No More Traditional PLC in Service Industry", *Journal Of Marketing* (Fall 1993), P. 41.

٣. J. Rathmel, "Commodity and Service Life Cycle Applications', *Journal Of Marketing (Oct. 1990).P. 90.*

٤. C.McIver and G. Naylor, Marketing Financial Services", *The Institute* of Bankers (1980), P.71.

٥. P. Kotler, *Marketing for Non-Pofit* Organizations (N.J, USA: Prentice Hall, 1982), P.70.

٦. S. Laczniak, "Beyond Commodity Life Cycle", *Journal of Marketing* (Summer 1994), P.111.

٧. S. Baron and K. Harris, *Services Marketing, Text and Cases* (London: Macmillan Press, 1995), P.90.

٨. P. Eiglier and E. Langeard, "A New Approach to Service Marketing", *Marketing Consumer Services: New Insights Report* (Boston, Marketing Science Institute, 1997), P.77.

٩. W.E. Sasser, "Understanding Service Operations", *Management of Service Operations*", (Boston: Allyn & Bacor, 1976), P.133.

١٠. بشير العلاق وحميد الطائي، **تسويق الخدمات: مدخل استراتيجي، وظيفــــي، تطبيقي** (عمان: دار العقل، ١٩٩٩) ص١١١

١١. S. Urwin, "Modified PLC in Services", *HBR*, Vol. 2 (Summer 1993), P.31.

١٢. J.E. G. Bateson, *Managing Services Marketing: Text and Readings*, 2nd ed. (London: The Dryden Press, 1992).

١٣. K. Gonclaves, *Services Marketing* (N.J.USA: